

قضية التصوف

المنقذ من الضلال لحبة الإسلام الغزالي

مع

أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام الغزالي



بقلم

الدكتور عبد الحليم محمود

دار الكتب الحديثة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

ت: ٣٩٠٠٨٣٨

لصاحبها توفيق عفيفي عامر

المنقذ من الضلال لحبة الإسلام الغزالي

الدكتور عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة

قضية التصوف

المنفذ من الضلال

لجنة الإسلام الغزالي

مع
أبحاث في التصوف، ودراسات عن الإمام الغزالي

بقلم

الدكتور عبد الحكيم محمود

يطلب من

دار الكتب الحديثة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

تليفون : ٣٩٠٠٨٣٨

لصاحبها توفيق عفيفي

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

دار الكتب الحديثة

١٤ شارع الجمهورية — عابدين

ت : ٣٩٠٠٨٣٨

لصاحبها توفيق عفيفي عامر



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل مخلوق وخير
مبعوث ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

التصوف والحياة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :
إن من الحقائق التي لا مصرية فيها : أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج
باب الله ، أو يسير في الطريق إليه ، إلا بالعبودية الخالصة لله وحده
لا شريك له .

فإذا ماتحضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الإنسان من عباد الله
المخلصين ، وحقق بذلك : ﴿ إياك نعبد ، وإياك نستعين ﴾ - فإن الله
سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلًا ﴾^(١)
ويعترف إبليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة
لله سبحانه ، فيقول :

﴿ فبعتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٢)
ويقول :

﴿ ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ،

إلا عبادك منهم المخلصين ﴿١﴾ .

وإذا ما حقق الإنسان العبودية لله ، فإن الله ، يتولاه بالإمداد
بالمعرفة . . إنه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

﴿ فوجدنا عبدا من عبادنا ءاتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا
علما ﴾ (٢)

إنه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ، وأن
يفيض عليه العلم . .

ولست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية ، بل إن للتحقق
بالعبودية ثمارا كثيرة سامية .

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه ، أنى مسنى الشيطان بنصب
وعذاب . . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . . ووهبنا له
أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكري لأولى الأبواب . . وخذ بيدك
ضغتنا فاضرب به ولا تمنحث إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب ﴾ (٣)
ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة .

(٢) الكهف : ٦٥

(١) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٣) ص : ٤١ - ٤٤

لقد حققها في ذروتها ، فكانت صلاته ، وكان نسكه ، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته ، لله رب العالمين . . لاشريك له :
﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾^(١) .

لقد حققها موفورة تامة ، فاتاه الله عز الدنيا والآخرة . .
ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واقتداء به ، سار الصوفية على الدرب . . يقول صاحب « عوارف المعارف » :
[الصوفي : هو الذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس . . ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه . . فبدوام الافتقار يتق من الكدر . . وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها . . أدركها ببصيرته النافذة ، وفر منها إلى ربه . .

فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقه وكدره . . فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . . قال الله تعالى :
﴿ كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ﴾^(٢) .

(٢) المائدة : ٨

(١) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

وهذه القوامية لله على النفس ، هي التحقيق بالتصوف^(١)

ويقول في موضع آخر :

[والصوفي يضع الأشياء ، مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال ، كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه .. ويستتر ما ينبغي أن يسير ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر .. ويأتى بالأمور في مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص^(٢)]

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما دق من الأمور ، وما وضع منها .. وفي السير من أعمالهم ، والمظيم منها .. ومن أمثلة ذلك :

في الجهاد :

ولا يتأتى أن تذكر تاريخاً مفصلاً لجهاد الصوفية الحربي ، ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة :

كان شقيق البلخي ، وهو من قم الصوفية الشاذلية ، يسارع إلى خوض المارك .. لا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه ..

انظر إليه : خائضاً المعارك ، محارباً العدو ، مسلحاً بإيمانه ، وثقته.

(١) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا .

(٢) . . . ج ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا

في الله ، وعدته الحربية . . شاهرا سيفه ، فارسا بكل ما تتطلبه كلمة
الفروسية من معنى ، هادئا ، مطمئنا ، كامل الثقة في الله . .

ولقد وصلت ثقته بالله ، إلى حد أنه - وهو لا يرى إلا سيوفا
معلمة ورقابا تقطع ، ورءوسا تسقط - يقول لمن بجواره في هذا الجو :
كيف ترى نفسك ؟ .. أترى نفسك في مساعدة تشبه سمادتك في الليلة
التي زفت فيها امرأتك إليك ؟

فأجابه الذي بجواره : لا .. والله ..

فقال شقيق : لكني والله .. أرى نفسي في هذا اليوم ، مثلها
في الليلة التي زفت فيها امرأتى إلى ..

لقد كان سعيدا بجهاده .. ومات شهيدا في معركة الشرف والبطولة
في ساحة الحرب والجهاد ..

وشخص آخر - هو من قيم الصوفية أيضا - : إنه حاتم الأصم :
كان يدخل الممارك ، ويخوضها في غير خوف ولا فزع . . وما كانت
نفسه تطير أشعاها من الأبطال .. وما كان يقول لها : لن تراعى .
لقد كان كيانه كله في ثقة مطلقة بالله - وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون
التمثل ، حينما أخذوه أسيرا ، وطرحوه أرضا ، وجثم العدو على صدره
ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو في هذه الحالة فيقول :

لم يشتغل به قلبي ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى في .. فبينما هو يطلب السكين التي يذبح بها ، أصابه سهم فقتله .. وقت سليما معافى - قام سليما معافى ، ليعاود المعركة من جديد ..

وإذا قفزنا في ساحة الزمن قفزة واسعة ، فوصلنا إلى معركة المنصورة ، فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية في قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم، وهبوا مندفعين إلى المنصورة ، ليساهموا في النصر ، والاستشهاد في سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم - ولقد كان - وهذا له أهميته الخاصة - أبو الحسن الشاذلي - وهو من صفوة الصفوة الصوفية - قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة ، مساهما في المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل ؛ لقد كانت تشغله مستيقظا ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيئته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود .. مشجعا ، حاثا ، مبشرا بالنصر وبالجنة ، فإذا ماجته الليل ، أخذ يتهل إلى الله سبحانه وتعالى ، متضرعا ،

نخاشعاً ، راجياً التوفيق والنصر للأمة الإسلامية .

وفي ليلة من الليالي ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم - في رؤيا طويلة - وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر .

ولم تكن هذه هي الموقعة الأولى التي ساهم فيها أبو الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - ولم تكن الأخيرة .

وإذا ما قفزنا مرة أخرى - في ساحة الزمن - قفزة واسعة ، فإننا نلتقي بالصوفي الشهير : عبد القادر الجزائري .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة في الحرب . ولقد حارب الاستعمار في الجزائر ، وفعل بإيمانه القوى ، وصوفيته العميقة الأعاجيب في الشجاعة والإقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل ، سرى إيمانه وإقدامه فيهم ، فتمثلت فيهم الشجاعة في أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد شيئاً فشيئاً على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير عبد القادر النداء تلو النداء للأمة الإسلامية ، من أجل العون المالى ، والإنسانى ، ومن أجل العون فى العتاد . . فكانت المساعدات التى قدمت إليه مخجّله يندى لها الجبين . .

ولم تشعر الأمة الإسلامية ، بأنها أمة واحدة . . وكأنها لم تسمع
ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى :

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون ﴾ ^(٢) .

إن الأمة الإسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الإخوة ، وكأنها
لا تشعر بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ^(٣) .

ولا تحس بالإحساس الإسلامى :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسله ولا يخذله » ^(٤) .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ^(٥) .

« ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى
عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ولم يثن كل ذلك الأمير عبد القادر ، عن متابعة الحرب والكفاح
ضد المستعمر ، وحينما أمر ، كرمه الأعداء أنفسهم ، لشجاعته وشهامته .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

(١) الأنبياء : ٩٢ .

(٣) الحجرات : ١٠ .

(٥) البخارى .

(٤) مسلم .

ومرهوته؛ ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية - وذلك بعد الأسر - مكث في دمشق يدرس التصوف، متخذاً - الفتوحات المكية - كتابه المفضل في الشرح والتفسير . . . ولقد طبع هذه الفتوحات . . . وفي أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب المواقف . . . وهو كتاب في التصوف عريق، بين فيه وجهة نظر الصوفية في مختلف الموضوعات .

في التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة، فإننا نبتدىء بذكر كلمة « للإمام، الكامل، الفقيه، الأصولي، المفسر، الاسفراييني » . صاحب كتاب: « التبصير في الدين . . . وهو من أئمة أهل السنة، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة .

إنه يذكر ما يمتاز به أهل السنة، عن غيرهم من الخوارج، والروافض، والتقديرية . . . فيذكر أن سادس ما يمتاز به أهل السنة هو :

[علم التصوف والإشارات، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ . . . بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر : « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريباً من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ٠٠ ولم يوجد في جملة قط من ينسب إلى شيء من بدع « القدريّة ، والروافض ، والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ؛ والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

بعد هذا نبداً في النظر إلى طريق التصوف ، وصلته بالشريعة :

يقول الإمام الغزالي :

« إن الطريق إلى ذلك إنما هو : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات

المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى .

ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره

بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في

القلب ، وانمصرح المصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن

وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاّأت فيه حقائق الأمور

الإلهية ، فليس هو العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار

الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول ابن خلدون :

« وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ، وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بها عناية ..

وفي فضائل أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم ، كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم ، ..
هذا فيما يتعاقب بالطريق ..

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشعور ، والأحوال .. فإن الصوفية — على وجه العموم — نبهوا في صور حاسمة إلى وجوب التزام الشريعة ، يقول أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه :

(من دعا إلى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو بدعى) .

ويقول :

(إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ،
خلا تعباً به) .

ومن أجمل كلماته في هذا ، قوله :

(ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة . . فن
أعطيها ، وجعل يشاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو
خطأ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نمت
الرضا ، فجعل يشاق إلى منياسة الدواب ، وخلع الرضا) .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج . ومن هؤلاء مثلاً : أبو يزيد
البسطامي . الذي يقول في قوة حاسمة ، وفي منطق صادق :

(لمو نظرتم إلى رجل أعطى من السكرامات ، حتى يرتقي في الهواء ،
فلا تتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ
الحدود ، وأداء الشريعة) .

ولقد تحدث الإمام الجنيد أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة
بين التصوف والشريعة . ومما قاله في ذلك :

(الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول
صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته) .

وقال أيضا :

(من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر .. لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) .

ولقد كان الإمام الغزالي ، في سلوكه ، وفي قوله ، في حياته الخاصة والعامة ، يلتزم الشريعة ، ويقول : إن المحققين قالوا :

(لو رأيت إنسانا يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعامل أمرًا يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان) .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله - فهو إمامهم الأسمى في كل ما يأتون ، وما يدعون . وهم يتابعونه مهتدين في ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا) .

وبعد : فقد تبيننا مما سبق أن الطريق إلى الله هو التحقق بالعبودية ، وقد سار الصوفية في هذا الطريق ، فأثمر لهم ثمارا سامية كثيرة ، منها : الجهاد .

ومنها : التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

* * *

أما عن الصوفية والعلم : فإن الصوفية يمثلون العلم الإسلامى فى قته وفى جميع فروعہ : فى الفقه ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الأخلاق ...

وإذا أردنا أن نتحدث عن القمة العلمية الشائخة التى لا تضارع فيما اجتمع لديها من علوم مدروسة مرواة محكمة فيها الإتيان ، والإستنتاج المتبصر ، والتبصر المتتابع ، والاتباع الواعى ، أعنى شخصية الشيخ الأكبر محمى الدين ، فإن الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وإن مقارنات مؤرخى الفكر بين الشيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين تصمد به إلى القمة .

والشيخ الأكبر يذكر دائماً بحجة الإسلام الغزالي الذى جمع فى إحيائه ، أربعين كتاباً كل منها له استقلاله وله ذاتيته ، وألف منها - فى إحكام محكم - كتابه إحياء علوم الدين .

واقدم انهار تحت قلمه فى سهولة ويسر عباقرة الفكر الفلسفى قتهافتوا وانهاروا وأتى عليهم كتابه النفيس « تهافت الفلاسفة » .

وأخذ حجة الإسلام بدعة الفلسفة وعبث الفلسفة في الشرق الإسلامي.
وللامام الغزالي أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة، في الأصول
وللفقه والتوحيد والفلسفة والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ وتداول وعليها دائماً طابع النضرة : طابع الخلود .
والصورة الجميلة في الصوفية - في الأغلب الأعم - هي صورة الجنيد :
لقد كان الكتبه (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه
والفقهاء لتقريره .

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون لتحقيقه .

والصوفية لإشاراته وحقائقه .

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

« كان فقيهاً على مذهب « أبي ثور » وكان يفتي في حلقاته بحضرة
وهو ابن عشرين سنة .

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبي الحسين علي بن إبراهيم
الهمداني ، يقول : حضرت مجلس القاضي أبي العباس بن شريح ، فتكلم
في الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلما رأى إعجابي ، قال :
أتدري من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

وإذا ذكر الجنيد ذكر أستاذه : الحارث المحاسبي وقد كان الحارث مثقفا فى الدين والعربية كأحسن ما يكون المثقف ، لقد كان فقيها ، وكان محدثا ، وكان متكلماً ، وكان عالماً فى الأخلاق ، وكان صوفياً ، واقد دخل فى قوة فى كل المشاكل التى وجدت فى عصره باحثاً مرشداً مجادلاً هادياً إلى الحق ، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وألف المحاسبي الكثير من الكتب فى شتى مجالات العلوم .
ولياخذ الإنسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم السلى فى طبقاته أو الذين ذكرهم القشيري فى رسالته ، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة وعكفوا على دراسته تقرباً إلى الله سبحانه .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة وإعما مع علم الكتب ، كان طموحهم إلى العلم الوهمي : العلم الذى عنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى سافر موسى عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ليلتقى فى نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى ، علمه الله من لدنه علماً . يقول سبحانه عن موسى وفتاه :

فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من
لقدنا علما .

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم — وهو مطمئهم الأخير — لا يتأتى إلا بإخلاص
العبودية لله ، ولأن إخلاص العبودية لله لا يتأتى إلا بأن يكون
الاستغراق في العمل : صلاة وذكر وأصياما من الأسس
الجوهرية في حياة الإنسان : فإنهم اتجهوا في صورة موفقه إلى العمل ؛
لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء : فأفاض الله عليهم من
إلهاماته ، واتسم مادونوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة ، وكان
طابعه أنه يزكو على مر الزمن .

والصورة الحية المثالية لثمار إلهاماتهم هي كتاب «إحياء علوم الدين»
لحجة الإسلام وكتاب : «الحكم لابن عطاء الله» .
ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح في الهداية على مر
العصور .

* * *

وقد يتساءل قوم : وماذا غن العمل والضرب في الأرض واكتساب
الرزق ؟

وأبتدىء في هذا الموضوع بذكر بعض ألقاب الصوفية :

القصار ، الوراق ، الخراز ، الخواص ، البزاز ، الحلاج ، الزجاجي ،
الحصري ، الصيرفي ، المقرئ ، الفراء .

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كثيرهم ، منهم الفقير ومنهم الغني ، ومنهم المازف
عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثروات الضخمة ، التي يؤدون فيها
حق الله ، وينفقون منها في سبيله ؛ إنهم يؤتون حق المال يوم حصاده ،
وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .

وهذا مثلاً أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، وهو من صفوة
الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

وتقول « مزارع » بالجمع لتابع في هذا التعبير حديث المؤرخين
عنه ، وكان له حصاد ، ودراس .. وكانت له ثيران .. وكان يتاجر ..
ومن دعاته المشهور :

« اللهم وسع على رزقي في دنياي ، ولا تجعيني بها عن أخراي » .
ومن دعاته بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها في أيدينا ، ولا تجعلها في قلوبنا » .

والفرق بين الصوفية وغيرهم في هذا هو أن الدنيا لا تستيبدكم ، وإنما تستعبد غيرهم ..

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا الله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال أو جاه ، أو منصب أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم ، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله ..

إنهم أغنياء أو فقراء قد تحققوا بقوله تعالى :

﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

وابن عطاء الله السكندري يقص في كتابه الجليل : «لطائف المنن» قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة فلم يمنعه ثراؤه الضخم المريض أن يكون صوفيا .

يقول ابن عطاء الله :

« قال بعض المشايخ كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه ، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ : إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان ، فاقترئه منى

السلام، وتطاب الدعاء منه لى ، فإنه ولى من أولياء الله تعالى .
قال : فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل
فدللت على دار لاتصلح إلا للملوك فتمجبت من ذلك وطلبته فقبل لى :
هو عند السلطان ، فازداد تعجبي فبعد ساعة وإذا هو آتى فى آخر
ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكبه .
قال : فازداد تعجبي أكثر من الأول .
قال : فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت : لا يمكنى .
مخالفة الشيخ .
فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من المبيد والخدم
والشارة الحسنة ، فقلت له :
أخوك فلان يسلم عليك .
قال : جئت من عنده ؟
قلت : نعم .
قال : إذا رجعت إليه قل له :
إلى كم اشتغالك بالدنيا ؟ وإلى كم إقبالك عليها ؟ وإلى متى لا تنقطع
رغبتك فيها ؟
فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت إلى الشيخ ، قال :

اجتمعمت بأخي فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذي قال لك ؟

قلت : لا شيء .

قال لا بد أن تقول لي ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكي طويلا وقال :

صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى
ظاهره ، وأنا أخذها من يدي وعندى إليها بقايا التطلع ، اه .
وفي نهاية هذه الكلمة نورد صورته لشخصية صوفية متكاملة ، وإن
كانت مشهورة نردها عن الطبقات الكبرى للشعراني في اختصار .
يقول الإمام الشعراني - عن هذه الشخصية الصوفية -
رضي الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى : الإمام الصالح الورع الزاهد
شمس الدين الديروطي ، ثم الدمياطي الواعظ .
كان في الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري ، وكان
رضي الله عنه مهابا عند الملوك والأمراء ومن دونهم ، زاهدا ورعا مجاهدا

صائما قائما ، أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر . وقد حضرت مجلس وعظه في الجامع الأزهر مرات ، فرأيت مجلسا تفيض فيه العيون ، وكان إذا تكلم أنصتوا بأجمعهم ، وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف ، فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متخشعا ، صغيرا ، ذليلا . رضى الله عنه . . وكان إذا مر في شوارع مصر يتزاحم الناس على رؤيته ، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه رضى الله عنه .

حط مرة على السلطان النورى في ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل إلى مجلسه ، قال للسلطان : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فلم يرد عليه . فقال : إن لم ترد السلام فسقت وعزلت . فقال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال :

علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها . فقال : هذلك المال الذى تعمربه . فطال بينهما الكلام . فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسبت نعم الله عليك ، وقابلتها بالمعصيان - أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أمروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ورفاك إلى أن صرت سلطانا على الخلق ؟ وعن قريب يأتيك المرض الذى لا ينجع فيه طب ، ثم تموت وتكفن ،

ويحفرون لك قبرا مظلماً ، ثم يدس أنفك هذا في التراب ، ثم تبعت
عريانا عطشاناً جوعاناً ، ثم توقف بين يدي الحكم العدل الذي لا يظلم
مثقلاً ذرة ، ثم ينادى المنادى :

من كان له حق أو مظلمة على العورى فليحضر ، فيحضر خلائق
لا يعلم عدتها إلا الله تعالى ، فتغير وجه السلطان من كلامه فقال كاتب
السرو جماعة السلطان : الفاتحة ياسيدى الشيخ خوفاً على السلطان أن
يختل عقله ؛ فلما ولى الشيخ وأفاق السلطان قال : اثبتنى بالشيخ فعرض
عليه عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء البرج الذى فى دمياط ،
فردها عليه وقال : أنا رجل ذو مال لا أحتاج إلى مساعدة أحد ولكن
إن كنت أنت محتاجاً أقرضتك وصبرت عليك ؛ فاروى أعز من الشيخ فى
ذلك المجلس ولا أذل من السلطان فيه .

هكذا كان العلماء العاملون وقد صرف على صمارة البرج بدمياط
نحو أربعين ألف دينار ولم يساعده فيها أحد إنما كان يعقد الأثرية .
ويتاجر فى الخيار شنبر ونحوه رضى الله عنه ولم يأخذ قط معلوم
وظيفة من وظائف الفقهاء ، وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس
وقبول صدقاتهم ويخبرهم أنها تسود وجه قلوبهم ، رضى الله عنه . وله
مصنفات منها : شرح منهاج النووى فى الفقه ، وشرح الستين مسألة .
وكتاب القاموس فى الفقه ، وشرح قطعة من الإرشاد لابن المقرئ .

رضى الله عنه وكان متراضعا مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ولم يصدده ما وصل إليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك ، ولقد رأيتُه مرة راكبا فنزل وقبل يد أعمى تقوده ابنته فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا أقرأني وأنا صغير حزين من القرآن رضى الله عنه ، فما أقدر قط أن أمر عليه وأثارا كب .

توفي رضى الله عنه في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وتسعمائة وله من العمر نيف وخمسون سنة رضى الله عنه ودفن بزاويته بدمياط ودفن عنده الأخ العزيز العارف بالله تعالى سيدى أبو العباس الحريشي رضى الله عنه .

وبعد : فلعلنا قد أزلنا بهذه المقدمة - التي كان من الممكن أن تستفيض فتصير كتابا - بعض الشبه التي تحوم حوم الصوفية بسبب الجهل بهم . والله الهادى إلى الصواب .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

« خاطرة » حول المنقذ من الضلال

في طبعته الأخيرة

أخي الدكتور عبد الحليم محمود، يعرف فيما بين أخوة العشيرة بكنية « أبو العارفين »، وهى تعبير عن الصورة التى يعرفه عليها هذا المحيط الروحى، فى مجال المقبلين على الله، من طلاب الحقائق والباحثين عن مشارق الأنوار، وأسرار الغيوب.

والدكتور عبد الحليم يعرف أيضاً فيما بيننا نحن المحمدين بأنه « غزالى مصر » فى هذا العصر...

والواقع، أن الدكتور عبد الحليم فى ذاته « ظاهرة صوفية »، غير مكررة، بما يفيض به من القيم، وما يقاض عليه من المواهب، وما يفسح له الله تعالى من الوقت والمدد، فيترقق إنتاجه سلسلا عذبا، مندفعاً فى رقة، زايباً متلاحقاً فى قوة، بين منطوق ومكتوب يتلاحق فيذكرنا بأعلام السلف الصالح، ويطمئنا على مستقبل الربانية المقدسة.

(٥) حيثما صدرت الطبعة الخامسة من هذا الكتاب، تفضل بكتابة هذه الخاطرة، الكاتب الكبير صاحب السلوك الصوفى المستنير، وصاحب القلم الصوفى الملمم. فضيلة الشيخ محمد زكى إبراهيم الرائد الموفق للعشيرة المحمدية: جزاه الله خير الجزاء، وشكر الله له جميل صنيعه.

ويعطى الناس مثلاً حياً فى كرامات الأولياء :

وقارىء الدكتور عبد الحليم أو سامعه ، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له ؛ أو يسمع منه ، ولكنه يحس القلب والماطفة ، والعقل والإيمان ، ويبصر الأدب والفضل ، والتواضع والثقة بلا حدود ، كل ذلك ينقدح فى ومضات ولحات ولفات وملاحظ وقواعد وأصول تهتز بالحياة ، وتنفع بالعلم والأصالة والمعرفة والصلة بالله ، والغيرة على محارمه . ويحس المرء منها ابتغاء رضوان الله .

أما أنا فأقرأ له أو أسمعه كأنما أقرأ ما كتبته ، أو أسمع ما أمتحدث به .

إن إخوانى بالدكتور عبد الحليم من نوع فريد ، فقد نلتقى بعد غياب جسدى طويل ، فلا يحدث أحداً الآخر ، بأكثر مما يحدث به زميله الذى لا يفارق ظله ظله ، وفى إيجاز قد يصل إلى الاقتضاب ، ثم يقنعنا هذا ويكفيها ونحصل منه على معان شتى ، وأغراض أكثر ، يضيق عنها النطق ، وتعيابها العبارة ، وتظل قلوبنا تتناجى فى حرارة ، وتتواصى فى لهفة ، كما كانت قبل هذا اللقاء الجسمانى ، ثم بما تحصله هذه القلوب نكتفى ونشتق ، إلى أن تجمعنا الصدفة أو القصد مرة أخرى ، وعندنا أعود فأحس كأننا لم نفترق ! !

أقول ذلك بمناسبة صدور الطبعة « الخامسة » الجديدة من كتاب
« المنقذ من الضلال للغزالي » بتقديم وتعليق وتحقيق ، ودراسة الأخ
الدكتور عبد الحليم محمود ، فقد صدرت هذه الطبعة في رجب هذا
العام ، واستغرقت « ٣٥٠ » صحيفة من اللقطع الكبير وأضاف إليها
الأستاذ كمادته في كل طبعة سابقة لهذا الكتاب أبواباً جديدة
وأولاًنا مستحدثة دقيقة ، بميدة العمق عريضة الهدف في أهم وأخطر
المباحث الموصولة بالتصوف الإسلامى على المستوى الفكرى الشرقى
والغربى معاً ، حتى أصبح هذا الكتاب الذى كان يباع في طبعته
الأولى بخمسة قروش ، يباع في هذه الطبعة الأخيرة بخمسين قرشاً
تمنحك زبدًا نقيًا ودسماً من العلم والمعرفة والتاريخ والتحقيق
والاستدلال والإيمان والإشراق ، وتمطيك التصوف الإسلامى في
مثل ضوء الشمس بهاء ونقاء وسموًا وخلوداً .

رضى الله عن الأخ الدكتور عبد الحليم محمود ، وزاده مما يحب
ويرضى ونفعنى بحبه وإخائه فيه تعالى .

القِسْمُ الْأَوَّلُ

الامام الغزالي

حياته :

كتبه :

تحميل كتاب الإحياء :

نصوص تشرح منهجه :

مبانيه :

هو : أبو حامد : محمد بن محمد بن محمد الغزالي . ولد بطوس : من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ الموافق عام ١٠٥٨ م .

وكان والده - كما يقول السبكي في طبقاته - يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى به وبأخيه : أحمد ، إلى صديق له متصوف ، وأعطاه ما ادخره من مال يسير قائلاً :

« إن لي لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، وأشتهى استدراك ما فاتني في ولدي هذين » .

وأشرف عليهما الوصي الصالح ، وعلمهما الخط ، وأدبهما ، إلى أن فنى ذلك النزر البسير الذي كان خلفه لهما أبوهما ، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما ، فقال لهما :

اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما ، وأنارجل من أهل التجريد ، بحيث لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة ، فإنكما من طلبة العلم ، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ، فملا ذلك ، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما

وكان الغزالي يحكى هذا ويقول :

طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله ^(١).

وفي عهد الصبا في طوس ، أخذ طرفاً من الفقه على أحمد الراذكاني ، ثم سافر إلى جرجان ، ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، فسمع منه وكتب عنه ثم عاد إلى طوس ، فكث بها ثلاث سنين ، يتأمل ويتدبر ، ويحفظ ما حصله بيجرجان .

وبعد ذلك « قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين ، حتى برع في المذهب ^(٢) ، والخلاف ، والجدل ، والأصول ^(٣) ، والمنطق ، وقرأ الحكمة ، والفلسفة ، وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطلهم وإبطال دعاويهم ... » ^(٤).

وكان إمام الحرمين يصفه بأنه : « بحر مغرق » .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨ هـ — ١٨٠٥ م) خرج الغزالي إلى المسكر قاصداً للوزير : « نظام الملك » ، إذ كان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه ، وقهر

(١) من كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، للعلامة محمد بن محمد الحسيني الزبيدي .

(٢) مذهب الشافعي رضي الله عنه (٣) يعني أصول الدين وأصول الفقه .

(٤) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي .

الخصوم ، وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله ؛ فتلقاه صاحب
بالتعظيم ، وطار اسمه في الآفاق ، واشتهر في الأقطار .

ولما أصبح بهذه المثابة ، اختاره نظام الملك للتوجه إلى بغداد ،
وذلك للتدريس بالمدرسة النظامية بها ، فقدمها في سنة أربع وعشرين
وأربعمائة ، وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره المبارك . واستقبل
في بغداد ، استقبالا حافلا ، فقد سبقته شهرته إليها .

وفي بغداد نال من الاحترام ، ما يشبه التقديس . لقد غلبت حشمته
الأمراء والملوك والوزراء ، على حد تعبير السبكي . وصار على حد تعبير أحد
معاصريه ، وهو عبدالغافر الفارسي - بعد إمامة خراسان إمام العراق .

— ٢ —

ثم ماذا ؟

ها هو ذا ، قد بلغ قمة المجد ، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة : أتته من
جانبا المالى .

وأتته من جانبها الذى يتصل بالشهرة ، وذئوع الاسم .

وأتته من جانبها الذى يتصل بالجاء والنفوذ ، حتى إنه ليزكر أن
من قرب من الولاة :

« كان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى والانكباب على ، وإعراضى

عنهم وعن الالتفات إلى قولهم^(١) .

واستمع الإمام بكل ذلك فترة، لعلها لم تكن طويلة الأمد . . .
ثم ماذا ؟

ثم كانت انتفاضة العارمة التي انتزعت قسراً وفي عنف، من وسط
النعم والأبهة والمجد . . . إلى حيث الانزواء والعزلة . لقد كان يتم
في الترف الدنيوي، وما هو ذا الآن ذاهب إلى الله . لقد كان يرفل
في رياض من النعيم المادي، وما هو ذا الآن فار إلى ربه، ومهاجر إليه.
ماذا حدث ؟

هل حدث هذا الانقلاب الكلي فجأة ودون مقدمات ؟

لا شك أن ذلك لم يكن انتفاضة فجائية ، كانتفاضة سيدنا عمر بن
الخطاب التي اقتلعت — في دقائق — جذور الشرك من أعماقه، وغرست —
في دقائق — أصول التوحيد في سويداء فؤاده ، فأمن في لحظة وأُناوب.
لقد كان الإمام الغزالي ، طيلة حياته طلعة يجرى وراء المجهول .
وكان ؛ كما يقول عن نفسه :

« ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ المشيخة »

(١) المنقذ من الضلال .

إلى الآن ، وقد أناف السن على الحسين — أقتحم لجة هذا البحر العميق^(١) ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الخدور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم على كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة ، كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطائه ؛

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ؛

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ،

ولا متكلمياً إلا وأجهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ؛

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ؛

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ؛

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه ، لأسباب جراته في

تعطيله وزندقته .

ويقول أيضاً :

(١) يقصد بحر المعرفة .

« قد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبى وديدنى —
 من أول أمرى وريعان عمرى — غريزة وفطرة من الله ، وضعتا فى
 جبلتى ، لا باختييارى وحيلى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد
 وانكسرت على المقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا » .
 ومن أجل ذلك يقول عنه « دى بور » .

« وقد وهب هذا الفتى عقلا متوثبا ، قوى الخيال ؛ لا يرضى بأى
 قيد يغله » .

ولكن هذا النهم فى البحث وهذا الاستقصاء فى الدراسة ، وهذه
 العقلية الجريئة الناقدة ، كل ذلك : انتهى به إلى الشك فى ما يرى
 ويسمع ويقرأ وفى ما يقول ويمتقد .

وكان هذا الشك عنيفا ، حاداً ، شاملاً ، عاماً ، طيلة شهرين هو
 فيهما : « على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .
 ولكن هذا الشك المطلق الشامل العام تبخر وزال ، لا بنظم دليل
 وترتيب كلام ؛ « بل بنور قدفه الله تعالى فى الصدر » .

زال ذلك الشك ليحل محله شك آخر هين سهل . وهذا الشك
 الثانى إنما هو شك فى طريق النجاة ، إنه الآن يؤمن بالله وبالرسالة

وبالبحث ولكن ماهى الكيفية التى يتكيف بها الإيمان ، فيما يتعلق
بهذه الجوانب الثلاثة ؟

هذه الكيفية ، إذا وضحت : تحدد النهج الذى يجب أن يسير عليه .
ودراسته المستفيضة : بينت له أن كل فريق من الباحثين — على
كثرتهم واختلافهم . « يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم
فرحون » .

أى هذه الأحزاب محق ، وأياها مبطل ؟

ذلك هو : ما أخذ الإمام الغزالى نفسه باستكشافه .

ورأى أن أوضح طريق وأسسه ، أن يحضر أصناف الطالبين للحق ،
ويدرسهم صنفاً صنفاً ، أو فرقة فرقة .

وانحصرت الفرق عنده فى أربع :

١ — « المتكلمون : وهم يدعون ؛ أنهم أهل رأى والنظر .

٢ — « الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون

بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ — « الفلاسفة : وهم يزعمون ، أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ — « الصوفية : وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل

المشاهدة والكاشفة » اهـ .

هؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، والحق إذن : لا يعدو هذه الأصناف الأربعة .

وشمر الإمام الغزالي عن مساعد الجد ، لدراستها ، وابتدأ بعلم الكلام ، فوجده لا يشفى غلته ، ذلك أن أكثر خوض المتكلمين إنما هو :

« في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً » .
وثنى بدراسة الفلسفة ، وأطلعه الله على منتهى علوم الفلاسفة في أقل من سنتين ، ثم أخذ يفكر فيما انتهى إليه قريباً من سنه : يعاوده ويردده ويتفقد غوائله ، وأغواره حتى اطلع على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتخيل .

فرأى أن مجموع ما صح ينحصر في ثلاثة أقسام :

- ١ - قسم يجب التكفير به .
 - ٢ - وقسم يجب التبديع به .
 - ٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً .
- أما هذا الذي لا يجب إنكاره : فثل :
- ١ - العلوم الرياضية .

٢ — المنطقيات .

٣ — العلوم السياسية .

٤ — العلوم الخلقية .

٥ — « أما الطبيعيات : فلا إنكار فيها إلا في مسائل معينة ، ذكرتها في كتاب « تهافت الفلاسفة » وأكثر أغاليطهم إعطاء هي في :

٦ — الإلهيات .

ومجموع ما غلطوا فيه : يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

وانصرف الإمام الغزالي عن الفلسفة ، لأن العقل :

« ليس مستقلاً بالإحاط بجميع المطالب ، ولا كافياً للغطاء عن جميع

المعضلات . »

فأخذ يدرس مذهب التعليية ، وهو مذهب يقوم على القول بـ « الحاجة إلى التعليم والمعلم » وأنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم . »

وقد نقد الإمام الغزالي مذاهبهم في قوة وفي عنف ، وألف كثيراً من الكتب في الرد عليهم .

ولما انتهى من كل ذلك ، أقبل جهده على طريق الصوفية .

وطريق الصوفية : علم وعمل ، وابتدأ بتحصيل علمهم : من مطالعة كتب أئمتهم ، مثل « قوت القلوب » ، لأبي طالب المكي ، رحمه الله ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، اهـ .

ولكن طريق الصوفية : لا يتم بالعلم فحسب ، بل إن العلم فيه : أقل جانب من جوانبه ، أما الجانب الذي يصل بالإنسان إلى النور والاشراق واليقين ، إنما هو : الجانب العملي ، وهذا النوع يحتاج إلى الأقبال لكنه الهمة على الله تعالى ، وذلك يقتضى الإعراض عن المال ، والجاه ، والشهرة ، وذبوع الصيت ، ويقتضى الخلوة فترة تطول ، أو تقصر ، يتفرغ فيها الإنسان تفرغاً كاملاً إلى الله مهاجراً إليه ، فاراً إليه .

وكان الإمام الغزالي : إذ ذاك منغمساً في المال والجاه والشهرة ؛ وبدأ الصراع في نفسه بين الشهوات والدنيا من جانب ، وبين التجاني من دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود من جانب آخر . ولم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة قريباً

من ستة أشهر ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وانتهى الأمر في هذا
التجاذب بأن اعتقل لسانه عن التدريس ، وغمر قلبه حزن أثر على
صحته ، فضعفت قواه ، ثم يحدثنا هو عما فعل حينئذ :

« ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى
الله ، تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب
المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال ،
والأولاد ، والأصحاب » اهـ .

- ٤ -

تلطف الإمام الغزالي بلطائف الخيل في الخروج من بغداد مظهرآ
عزم الخروج إلى مكة ، وهو يدبر في نفسه السفر إلى الشام . . . وسار
يحدوده الأمل العذب في المعرفة ، وينمر قلبه الرجاء القوي في الفتح :
يتفضل الله به عليه ، كما تفضل على من سلف من الأولياء والعارفين .

حتى إذا ما وصل إلى الشام ، أقام به قريباً من سنتين لا شغل له
إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ،
وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله ، تعالى ، وكان يعتكف
في منارة مسجد دمشق طول النهار ويغلق بابها على نفسه .

ثم رحل من الشام إلى بيت المقدس ، فكان يدخل ، كل يوم ،

المنصرة وينلق بابها على نفسه ، ثم سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ،
وزيارة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ثم عاد إلى وطنه ؟ ملازماً بيته ، مشغلاً بالتفكير .

ولقد كان ، في حله وترحاله مؤثراً العزلة ، حرصاً على الخلوة ،
وتصفية القلب للذكر . . . ودام ذلك كله ما يقرب من عشر سنوات ،
انكشف له في خلواته أثناءها ، أمور لا يمكن إحصائها ، وأفاض
الله عليه من النور الإلهي ، وغمرته ألطاف الله ، وترقى به الحال إلى
درجات يضيق عنها نطاق النطق ، وكتاب الإحياء من ثمار
هذه الفترة .

كتب :

ولقد ألف الإمام الغزالي عشرات الكتب ، عد منها صاحب طبقات
الشافعية ما يقرب من ستين كتاباً .

وعد منها شارح الإحياء الإمام الزبيدي ما يقرب من ثمانين
كتاباً ورسالة :

منها في الفقه : الوجيز ، والوسيط ، والبسيط .

ومنها في علم الكلام : الاقتصاد في الاعتقاد .

ومنها في الفلسفة : مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة .

ومنها في التصوف : بداية الهداية ، ومنهاج العابدين ، وكتاب الإحياء .

يبد أننا ، إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالي — سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف في أثنائها — فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه وأتجاهه ثلاثة :

وهي — فضلا عن ذلك — تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الإمام الغزالي غيرها ، لبقى هو الغزالي العملاق ، الصوفي الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئا ... ولكنه لو لم يؤلفها ، لما كان هو الإمام الغزالي صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ — أما أحدها ، فإنه : كتاب المنقذ من الضلال .

وهو كتاب لا غنى للباحث في تطور حياة الغزالي الفكرية عنه ، ففيه يقص الإمام حياته الفكرية ، في تطورها : من الدراسة المستفيضة إلى الشك ، ثم إلى اليقين .

ويحدد موقفه من علم الكلام ، ومن مذهب التعليمية ، ومن الفلسفة والفلاسفة ، ثم من التصوف .

وفيه يبين موقفه من مسألة النبوة ، ومن الشكوك التي ترد عليها ،
ويبين الطريق الصواب لإحياء الشعور الديني حينما يفتر غند بعض
الناس .

وهو من الكتب التي يندر ما يماثلها في ثقافتنا الشرقية ، إذ أن
كبار المفكرين عندنا ، لم يتجهوا إلى تسجيل تدرجهم الفكري ،
وانتفاضاتهم الذهنية .

ولم يسبق الغزالي — فيما نعلم — في هذا النهج سوى الحارث
ابن أسد المحاسبي في مقدمة كتاب الوصايا : فإنه قص فيه طرفاً من
حيرته وشكه البين السهل ، ثم يقينه الذي انتهى إليه ، وقد قرأ الإمام
الغزالي كتب الحارث وانتفع بها ، وربما كانت مقدمة كتاب الوصايا :
من العوامل التي دفعت الإمام الغزالي إلى كتابة المنقذ .

وقد كتبه الإمام الغزالي بعد أن أناف سنه على الحسين ، كما
يذكر هو .

٢ — وأما ثانيها فإنه : « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فإن الإمام الغزالي ،
حيما سمي كتابه : تهافت الفلاسفة — كما يقول « أزين بلاسيوس » —
كان يريد أن يثبث لنا : أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة ، ويريد

الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً ، يشبه نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ ، مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض .
فكان الغزالي يريد أن يقول :

إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدي .

وقد حاول « بلاسيوس » ؛ أن يجد في عبارات كتاب : التهافت ، وفي استعمال ابن رشد ، لهذه الكلمة ؛ ما يؤيد افتراضه ،^(١) .
ومما لاشك فيه ، أن كتابه هذا : محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق .

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي ، لهجومه ، هو هدم الآراء في نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين .
وإنما كان هدف الإمام الغزالي : هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء .

نخلود النفس مثلاً : رأى يقول به الإمام الغزالي ، ويقول به

(١) من كتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة .

الفلاسفة ، ولكن الإمام حمل معولا ، وأخذ يهدم بيد قوية ،
المسلك العقلي ، الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس ، فانهارت أدلتهم
وتهافت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بخلود النفس .

وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتغبير في وجوه
أدلتهم ، بما يبين تهافتهم^(١) .

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة ، وظن أن
مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .
ويقول :

« أنا لا أدخل في الإعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ،
لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا بإلزامات
مختلفة . فالزيميم ، تارة ؛ مذهب الممثلة ، وأخرى ؛ مذهب
الكرامية ، وطورا : مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابا عن مذهب
مخصوص » .

ولقد وفق الإمام الغزالي توفيقا تاما ، فيما انتدب نفسه إليه في

(١) من كتاب التهافت .

هذا الكتاب ، وهو : إثبات أن العقل - إذا لم يتخذ الوحي هادياً ومرشداً - عاجز كل العجز عن الوصول إلى المعرفة الصحيحة فيما وراء الطبيعة .

٣ - أما ثالث الكتب فإنه : « الإحياء » .

وهو أهمها ؛ وأهم كتب الإمام الغزالي عامة ، ولقد قال فيه الإمام النووي : « كاد الإحياء يكون قرآناً » .

وقد ألفه الإمام الغزالي ، في أوائل للفترة التي اصطحب فيها مع الغزلة ، ومما يؤيد ذلك ما رواه الإمام أبو بكر بن العربي في كتابه : « القواصم والعواصم » من أنه التقى بالإمام بمدرسة السلام في جمادى الآخرة سنة تسعين وأربعمائة : وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية ، من سنة ست وعشرين ، إلى ذلك الوقت : نحواً من خمسة أعوام ... فقراءت عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه : « الإحياء للعلوم الدين ... » .

أما فيما يتعلق بالبواعت التي من أجلها ألف الإمام : « كتاب الإحياء » .
وأما فيما يتعلق بالهدف الذي من أجله ألف كتاب الإحياء .
وأما فيما يتعلق بجوهر موضوعه ... فإن ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي : الإخلاص .

ولقد روى ابن الجوزي : أن بعض أصحاب أبي حامد ، سأله قبيل

الموت قائلاً : أوصني ، فقال له : « عليك بالإخلاص » ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص !! لقد تلفت أبو حامد يوماً إلى نفسه ، فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه ، إنما هو الشهرة والصيت والجاه ؛ والمنزلة عند الناس وعند الحكام . . . وانتفض أبو حامد انتفاضته التي وضع بها نفسه في محيط الإخلاص .

وتلفت أبو حامد - بعد ذلك - فيما حوله ، فوجد أن الناس - صم ، بكم ، عمى ، عن قوله تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

وعن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ -

وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدعو إلى الإخلاص في الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهي في دعوتها إلى الإخلاص ، إنما تدعو إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان : قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ؛ وأصبح الدين - في نظر علمائه فضلاً عن غيرهم - : فتوى حكومية ، أو جدلاً للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو سجماً مزخرفاً يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى أبو حامد ذلك ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح : من اتخاذ الإخلاص أساساً وشعاراً . ومامن شك في أن إخلاص الدين لله وحده هو التوحيد ، ومامن شك في أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامى وهو طابعه ، وهو هدفه وغايته .

وألف الإمام كتابه إذن ليبين فيه الإخلاص أسساً ونتائج ، وأسباباً وغايات .

ورتب الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فقرات ... كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ - قسم العبادات : يذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها وأسرار معانيها : كل ما يحتاج العالم العامل إلى معرفته : من وجوه الإخلاص فيها ، وإقامتها على الأسس التى يحبها الله ، سبحانه ، ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

٢ - قسم العادات : يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الوزع فى مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين :

٣ - قسم المهلكات : وهى الأخلاق المذمومة التى ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف بها ، ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ - قسم المنجيات : يذكر فيه كل خلق محمود ويشرح الوسائل التى بها يكتسب ، والثمار التى تجنى من التخلق به .

وهو فى كل هذه الأقسام : يتبدى كل موضوع يعالجه بذكر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وأخبار الصالحين .

٥ - تحليل كتاب الإحياء :

ويفتح كتابه : « بكتاب العلم ، فيسير فيه على حسب طريقته المحددة : « شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار ، « وشواهد الشرع والعقل » .

لقد شهد الله ، أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى ، بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفاً ، وفضلاً ، وجلالاً ونبلاً .

ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال الأحنف ، رحمه الله : « كاد العلماء يكونون أرباباً » .

والعلم الذى يريده الإمام الغزالي ، أوسع دائرة وأعم موضوعاً مما نسميه العلم الآن : إذ أن العلم الذى يريده الإمام الغزالي إنما هو : علم الدين والدنيا ، ولا يحرم الإمام الغزالي منه إلا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلاً : فإذا أدى العلم إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره كان مذموماً .

والهدف من العلم ، على كل حال : زيادة الهداية وغرس الإخلاص ، فإن من ازداد علماً ولم يزد هدى ، لم يزد من الله إلا بعداً .

ولا بد للإخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ، ولذلك يثنى الإمام الغزالي بكتاب : « قواعد العقائد » وقواعد العقائد تدور حول ثلاث مسائل :
١ — الله وصفاته ، والأساس فيه : أنه ليس كمثل شئ ، وأنه متصف بكل صفات الكمال : كالحياة والقدرة ، والعلم الشامل ، والإرادة الكاملة ، وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ — وأنه ، سبحانه : بعث محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، برسالاته إلى كافة العرب والعجم ، ففسخ بشريعته الشرائع ، إلا ما قرره منها ، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد ، وهو قول : لا إله إلا الله ، ما لم تقترن بشهادة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهو قولك : محمد رسول الله ، وألزم

الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة.

٣ — والمسألة الثالثة هي الإيمان بالآخرة : البعث والحساب والنعم أو العذاب .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده ، تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإن أول ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن في ذلك : فليس بعد بيان الله ، سبحانه بيان ، وفي ن إرشاد واستدلال واضح على كل ذلك .

ويتهيأ الإنسان للإخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهريّة وباطنيّة ، وقد أطل الإمام الغزالي في الطهارة الباطنيّة ، وسنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

أما الطهارة الظاهريّة ، فمنها الوضوء فإن : « من توضأ فأحسن الوضوء ، وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا ، خرج من ذنوبه ، كيوم ولدته أمه » .

والوضوء على الوضوء : نور على نور ، بيد أن الوضوء إنما شرع من أجل الصلاة ، والصلاة : إنما هي الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى الله ، سبحانه وتعالى : يناجيّه ، وينغمس في رحابه ، ويستنير بنوره ، وهي

من أجل ذلك عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ؛ وغرة الطاعات . وكانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، وإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب ، وهذا هو معنى الإقامة فى قوله تعالى : « أقم الصلاة » .

أما من يكن كذلك فى صلاته : فإنه يدخل تحت قوله ، صلوات الله وسلامه عليه : « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » وما أراد ، صلوات الله وسلامه عليه ، بذلك إلا الغافل ، أما إذا خشع فى صلاته ، فإنه يدخل فى دائرة قوله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾

ويقرن الله ؛ سبحانه ، الزكاة بالصلاة فى غير ما موضع : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وقد جعلها الله تركية ، وبفضلها تركى من عباد الله من تركى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بمداب أليم ﴾ ومعنى الإنفاق فى سبيل الله : إخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الإنسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ! وذلك من أجل الله :

والصوم : باب العبادة وباب الإخلاص ، فإذا ما عصام الإنسان إيماناً

واحتراساً ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه .

والصوم : ثلاث درجات : صوم العموم : وهو : كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص ، وهو : كف الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله ، عز وجل ، بالكلية . ويكفى في فضل الحج ما رواه الشيخان : البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن : كتاب الإسلام المنزل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هُدى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال ، صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ أهل القرآن أهل الله وخاصته ﴾ والقرآن : رسائل أتتنا ، من قبل ربنا ، بعموده ، تندبرها فى الصلوات ، وتقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته إذن مطلوبة : جلاء للقلوب ، وشفاء لما فى الصدور ، وغرساً للاخلاص ، وتثبيتاً للتوحيد .

والقرآن نوع من الذكر والدعاء ، وقد حث الله على الذكر فى قوله

تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ . والمخلص يذكر الله على الدوام مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان ، والقلب لاه فهو قليل الجدوى .

ولقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول : « لا إله إلا الله » على سائر الأذكار ، لأنها عنوان الإخلاص ، ودليل التوحيد .

ومن الذكر : الصلاة على سيد المرسلين : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » .

ومن الذكر : الدعاء ، والدعاء مخ العبادة ، يقول الله تعالى :

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ .

ولكن لا بد للإجابة من التوبة ، ورد المظالم ، والإقبال بكنه الهممة على الله ، عز وجل ، فذلك هو السبب القريب في الإجابة .

وبعد أن ينتهي الإمام الغزالي بذلك من ربح العبادات ، يبدأ في ربح العادات ، فيبين فيه آداب الأكل ، وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ، ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية في فضل العمل ، وفي استقامة العمال ، والتجار : فمن الذنوب ذنوب ، لا يكفرها إلا الله في طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق .

يحشر ، يوم القيامة مع الصديقين والشهداء .
ويخلص من ذلك إلى كتاب جليل نفيس هو : كتاب الحلال
والحرام ، والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض ؛ والحرام
كله خبيث ، ولكن بعضه أخبث من بعض .
ويفصل الإمام كل ذلك لينتهى إلى « كتاب آداب الألفة والأخوة
والصحبة ... » وأساسه حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذي يقول
الله له :

﴿ وإِنَّكَ لَمَلِي خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقد بعث ، صلوات الله عليه وسلامه ،
ليتم مكارم الأخلاق .

فإذا ما كان حسن الخلق كانت الأخوة ، وفائدة الأخوة ، كما
يريدها الدين ، عظيمة .

ولقد قال ، صلوات الله عليه وسلامه في الثناء على الأخوة في الدين :
« من أراد الله به خيراً رزقه خيلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر
أعانه » .

ومن أروع ما قاله ، صلوات الله عليه وسلامه في ذلك : مثل
الأخوين ، إذا التقيا مثل اليدين : تفصل إحداها الأخرى ، وما التقى
مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيراً » .

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط ، مبينا الآراء في كل منهما لينتهي
إلى أن كلام الشافعي ، رحمه الله ، في هذا الموضوع - وهو فصل الخطاب -
إذ قال « يا يونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط
إليهم : مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المتقبض والمنبسط » فلذلك يجب
الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال ، وبملاحظة
الفوائد والآفات يتبين الأفضل ، هذا هو الحق الصراح ، وكل ما ذكر
سوى هذا فهو قاصر ، وإما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو
فيها ، ولا يجوز أن يحكم على غير المخالف له في الحال .

والسفر للمعزة والاعتبار من أعظم ما يفيد الإنسان في جانبه
الروحي ، ولكن السفر قد يكون يسير القلب عن أسفل السافلين إلى
ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ، ويجمع
السفرين ويحث عليهما قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ،
وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾

وينتهي الإمام في « كتاب السماع والوجد » بالحكم الرزين المنطقي ،
وهو أن سماع الغناء قد يكون حراما ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون
مكروها ، وقد يكون مستحبا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم

شهوة الدنيا . فلا يحرك السماع منهم ، إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتغذاه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرم السماع منه إلا الصفات المحمودة .

ولا يد - لاستمرار الدين حياً في النفوس - من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) .

وبعد أن بين الإمام مواقف العلماء الرائعة ، وجهادهم في سبيل الله ، ختم الفصل بقوله :

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين ، لكنهم اتكلموا على فضل الله تعالى ، أن يحرسهم ، ورضوا بحكم الله تعالى ، أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية ، أتركلامهم في القلوب القاسية فلينها ، وأزال نساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فكتموا ، وإن

[تسكروا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا
حق العلم لأفلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد
العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه .

ويحتم الإمام الغزالي ربيع العادات بكتاب : « آداب المعيشة وأخلاق
النبوة » فيبين ما كان عليه الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، من
خلق : هو كما في القرآن ، ويشرح في استفاضة ما يوضح قول الله تعالى
لرسوله :

﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ويبتدى ربيع المهلكات : بكتاب من أنفس الكتب ، لاغنى عنه
قط ، لمن يريد أن يعالج التصوف عملياً ؛ أو أن يقتنع بحقيقته نظرياً ،
ذلك هو كتاب : « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع إلى أن القلب :
هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي
إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه .

فإذا تساءلت : ما معنى القلب الذي له هذه المنزلة ؟ فإنه :

« هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك
اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك ، العالم ، العارف ، وهو
المخاطب والمعاتب والمطالب » .

وفي النصوص التي ذكرناها فيما بعد مايفنى عن تلخيص هذا الكتاب .

ويتلو ذلك : كتاب « رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق » .

ومن هذا العنوان وحده تفهم أن الإمام الغزالي مزج بين رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق ، أو بتعبير آخر ، جعل رياضة النفس تهذيباً للأخلاق .

واخلق الحسن إنما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين . وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمره مجاهد المتقين ورياضة المتعبدين . ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن أحبكم إلى ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن .

فلا بد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الإنسان إلا حلالاً ، وألا يجعل الأكل هدفاً وغاية ، والأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بالحم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً ، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة ، والقوة على العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة . وألم الجوع أيضاً يشل القلب ويمنع منها .

ثم يبحث الإمام عن « آفات اللسان » .

وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة ، ولطائف صنعه الغريبة . ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهي كثيرة ، وما من شك في أن من أسباب النجاة : ما نصح به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله : « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية كل ذلك : من آفات اللسان . والمثل العربي يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » . والطريقة المثلى : ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله . مررت بعمل وأقلل ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال . فقال له : « لا تغضب » .

ومما يزيل الغضب الجلوس إذا كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان جالساً .

ومما يزيل الغضب الوضوء والغتسال .

ومما يزيله السجود .

« ألا إن الغضب جرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ،

(م - النقد)

وانتفاخ أوداجه ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض ،
وهذه إشارة إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجري وراءها
فى جشع وفى تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا
فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة .

وحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى بسند صحيح
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله عز وجل ، يقول : « إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة ، وإيتاء
الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثمان ،
ولو كان له الثمانى ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يعلأ جوف ابن آدم
إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

أما المقياس الصحيح فهو قوله تعالى :

« ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

وحب الجاه ، والرياء ، والكبر ، والعجب ، والنزور : كلها :
من الآفات التى يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله
نيتة وقصده .

ذكر أما إذا وصلنا إلى ربيع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج ،

وإلى النور الهادى ، وإلى صفاء الصفاء . ١١١

ويبتدىء هذا القسم ، أول ما يبتدىء به « التوبة » ، فإن التوبة من الذنوب : بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين . ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

وجوب التوبة : ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستراب فيه .

ومهما يكن من شئ ، فـ ﴿ إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ﴾ ، ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة ومعه راحلته ، عليها طمامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده لموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها زاده وشرابه ، فأنه تعالى ، أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا برا . حلتته »

والإيمان « نصفان » نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت
بذلك الآثار وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين ، وأضاف
أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى :
« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال صلوات الله وسلامه عليه :
« الصبر نصف الإيمان » وقال :

« الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الإنسان نحو المنعم بهذه
النعم هو الشكر ، والشكر نفسه : سبب في زيادة النعم ، يقول تعالى :
﴿ لنن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

والرجاء والخوف : جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ،
ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كشود .

ويقرن الإمام الغزالي الفقر بالزهد .. والزهد في الدنيا ، مقام شريف
من مقامات السالكين ، وهو تحقيق لقوله تعالى :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم ، بأن لهم الجنة ،
يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً ، في التوراة
والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي
بأيتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

والزهد إذن قوة ، لأنه : يبع النفس ، والمال لله ، وتجرد
فى سبيله .

والتوكل ، منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ،
بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد ، فمن
وحد الله حق توحيدہ توكل عليه :
« أليس الله بكاف عبده ؟ » .

أما محبة الله ، فإنها الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من
الدرجات ، ومن ثمارها : الشوق ، والأنس ، والرضا ، وليس قبل المحبة
مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها : « كالطوبى ، والصبر ، والزهد ،
وغيرها » . فهى واسطة العقد ، ودرة القلادة ،

﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ، أحب إليه مما سواهما ﴾ .
وقد انكشف لأرباب القلوب ، ببصيرة الإيمان ، وأنوار القرآن :
أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

فالناس كلهم : هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم : هلكت
إلا العاملون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون : على
خطر عظيم .

فالعمل بغير نية هباء ، والنية بغير إخلاص : رياء ، وهو للنفاق كفاء ،
ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق ونحقيق : هباء . وقد
قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً :
« وقد منا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً » . ويقول
صلوات الله عليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت
هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته
لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
ومن راقب الله فاز ؛ ومن حاسب نفسه نجح .

وقد وردت السنة : بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وكثر
في كتاب الله تعالى ، على التدبر والاعتبار ؛ والنظر والافتكار ،
ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ؛ ومبدأ الاستبصار ؛ وهو شبكة
العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع
لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
لآياتٍ لأولى الأبصار ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى

جَنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَذَا بَاطِلًا .

وقد روى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : بكى حينما نزلت
هذه الآية وقال :

﴿ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴾ .

ومما يعين — على وجه العموم — التفكير في الموت وما بعده ،
والكَيْسُ من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، يقول ، صلوات الله
وسلامه عليه :

« كفى بالموت واعظًا » .

ويختم الإمام الغزالي كتابه بقوله :

« وروى أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادى عليه — لبيمه —
فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة في خباء
القوم ، فأقبلت تشدد ، وأقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبي
وأصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على البطحاء ؛ وجعلته على
بطنها تقيه الحر ، وقالت ابني ، ابني ، فبكى الناس وتركوا ما هم فيه »

فَأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر
فسر برحمتهم ، ثم بشرهم فقال :

« أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ » قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تبارك وتعالى : أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها » .

فتفرق المسلمون على أفضل السرور ، وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردناه في : « كتاب الرجاء » يبشرنا بسعة
رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى ، ألا يعاملنا بما نستحقه ، وأن
يتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته » .

هـ — أثر الإحياء :

أما أثر هذا الكتاب في العالم الإسلامي : فقد كان ضخماً ، لقد
شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ،
وترجم الكثير منه إلى الإنجليزية ، والفرنسية ، والأسبانية ، وغير ذلك
من اللغات الحية ، شرقية وغربية .

ومخطوطاته ، التي بمكتبات العالم ، لا تكاد تحصر ، وقد طبع في
القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند ، وفي تركيا ،
وفي فارس .

ولا يزال الكتاب للآن في العالم الإسلامي مصدر إلهام ونور،
ودراسة تختلف نتائجها، لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال في القطر المصري جماعات تعقد حلقات أسبوعية، تخصصها
لقراءة الإحياء، والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

٦ — تقدير العلماء لكتاب الإحياء :

أما تقدير العلماء، لهذا الكتاب : فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبي المظفر » سبط أبي الفرج
ابن الجوزي في قوله :

« ووضعه على مذاهب الصوفية ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا
عليه ما فيه ، من الأحاديث التي لم تصح » .

وفكرة الأحاديث التي لم تصح ، أذاع بها كثيرون من أعداء
الامام الغزالي ، وتحذروا عنها مقبلين ومدبرين ، قائلين وقاعدتين ، ولكن
ها هو ذا المولى ، أبو الخير يقول .

« أما الأحاديث التي لم تصح ، فلا يفكر عليه إيرادها ، لجوازه في
الترغيب ، والترهيب » .

والواقع ، أن الامام الغزالي ، لم يأت بهذه الأحاديث التي لم تصح ،
لإثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك أنه ، يذكر الآيات القرآنية

التي يثبت بها ما تؤدي إليه من أحكام وقواعد ، وهى على هذا الوضع كافية للإثبات والاستدلال ، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث ، وبأقوال الصحابة والتابعين .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الأحياء ، فإن كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التي أتى بها الامام الغزالي في هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها من ناحية الإثبات والاستدلال . ويتبين من هذا ، أنه لا قيمة لهذا الاعتراض . لا شك ولا موضوعاً .

على أنه قد قام العالم الثبت الحجة الحافظ ^(١) العراقي الذي قال فيه :

(١) الحافظ العراقي . هو زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ولد بمصر في جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ

أما نسبه إلى العراق : فترجع إلى أن أصل أبيه من العراق وتوفي والده وهو في الثالثة من عمره ، ولكن عناية الله أحاطت به ، إذ وهبه الله فطرة ممتازة : ذكاء خارقاً ، وذهناً صافياً ، وهمة عالية في طلب العلم : ويسرته له عناية الله الجو الثقافي ، فأخذ من كل العلوم الإسلامية بحظ وافر ، ولكنه تخصص في « علم الحديث » وظهرت فيه مواهبه ، وكان من توفيق الله ؛ أن منحه ذاكرة قوية حافظة . فلقبه شيخه « بحافظ الوقت »

ومن أجل الحديث قام الحافظ العراقي بعدة رحلات ؛ سائر في ذلك على طريق الأئمة السابقين الذين كانوا يقطعون مئات الأميال في طلب الحديث الشريف .
لقد سافر العراقي إلى الشام متجلاً بين حواضرها ؛ وسافر إلى مكة والمدينة وانتهت حياته في شعبان سنة ٨٠٦ هـ وقد بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، ختم فيها الحديث خدمة جليلة .

شيخه : « إن ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة ، وأصبح الطريق أبلج .

وشئ آخر عن هذا الاعتراض له أهميته وهو أن كثيرا من الأحاديث التي قال عنها الامام العراقي « لأصل لها ، بين الامام الزيدى شارح الاحياء أصلها ، وكثيرا من الأحاديث التي قال عنها الامام العراقي إنها ضعيفة ، بين الامام الزيدى أنها ضعيفة من الوجه الذي رواها به الامام العراقي ولكنها هي نفسها حسنة أو قوية من وجه آخر ، وبين الامام الزيدى هذا الوجه الآخر .

قال الحافظ العراقي عن كتاب الاحياء :

« إنه من أجل كتب الاسلام ، في معرفة الحلال والحرام . جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الافهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيهما في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتديا بقول على كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي » .

وقال الزيدى شارح الاحياء .

« وأنا لا أعرف له نظيراً في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون
في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثار .
وقال ابن السبكي :

« وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها ، وإشاعتها .
ليتهدي بها كثير من الخلق ، وقل من ينظر فيه إلا ويتعظ به في الحال ،
وقال الشيخ عبد القادر العيديروس في كتاب « تعريف الأحياء
بفضائل الإحياء » .

اعلم أن فضائل الأحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له ، باعتبار حيثياتها
لا تستقصى .

وكان عبد الله العيديروس رضي الله عنه ، يكاد يحفظه ، وروى عنه أنه
قال : « مكنت أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه ، وأعاوده ،
وأتدبره ؛ فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ؛ ومفاهيم
غزيرة غير التي قبلها ؛ ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد » ومن كلامه .
عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة : أعنى الشريعة المشروحة
في الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ؛ وكتاب الفقر
والزهد ؛ وكتاب التوبة ؛ وكتاب رياضة النفس »

وقد ألزم الشيخ عبد الله العيدروس أخاه قراءة الإحياء ، فقرأه عليه مدة حياته خمساً وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات برأى أعتقد أنه فيصل الحق في موضوع « كتاب الإحياء » وهو رأى فضيلة العالم الجليل الأستاذ الأكرم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لايتهم بمصيبة ، والآراء مجمعة على أنه من العلماء الذين حاولوا جاهدين أن يكون كل ما يصدر عنهم ، إنما يراد به وجه الله ، يقول :

« وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء ما أخذ معدودة ، فإنه من صنع بشر ، غير معصوم من الزلل ، وكفى بكتاب الإحياء ، فضلاً . وسمو منزلة ، أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله المد ، وأن يظفر منه طلاب العلم . وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره . »
« ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً . »

النصوص التي تبين منهج الغزالي

وتشرح طريقته في الكتاب

النص الأول^(١) : الطريق^(٢) :

الطريق : تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع
العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، ومهما حصل ذلك ؛
كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .
وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ،
وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه
القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاثلت فيه حقائق الأمور
الالهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة ، وإحضار
الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتمطش التام ، والترصد بدوام الانتظار ،
لما يفتحه الله تعالى من الرحمة ، فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ،

(١) أخذنا هذه النصوص من طبعة السراوى ، وهى مرقمة بحسب صفحاتها
فى هذه الطبعة .

(٢) الإحياء ص ١٣٧٧ .

وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة ، والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفرغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله ، تعالى ، فمن كان لله كان الله له .

وزعموا أن الطريق في ذلك ، أولاً : بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفرغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى .

فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه : الله ، الله ؛ على الدوام مع حضور القلب ، حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه .

ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ، ويصادف قلبه مواظباً على الذكر .

ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه ، كأنه

لازم له ، لا يفارقه . وله اختيار إلى أن ينتهى إلى هذا الحد ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس . وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله ، تعالى ، بل هو بما فعله صار متعرضاً ، لنفحات رحمة الله .

فلا يبقى إلا الانتظار ، لما يفتح الله من الرحمة ، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق .

وعند ذلك ، إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بملاق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه .

ويكون في ابتدائه : كالبرق الخاطف ، لا يثبت ، ثم يعود ، وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفاً ، وإن ثبت فقد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحى ، وقد يقتصر على فن واحد .

ومنازل أولياء الله تعالى ، فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم ، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية ، وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط .

وأما النظر وذو الاعتبار : فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه ، وإفضاءه إلى هذا المقصد ، على الدور ، فإنه أكثر أحوال

الأنبياء والأولياء . ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطنوا
ثمرته ، واستبعدوا استجماع شروطه ، زعموا أن محور العلاقات إلى ذلك
الحد كالمتمنذر .

النص الثاني ، يـيـان :

شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف

في

اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المتعاد^(١)

اعلم : أن من انكشف له شيء ، ولو الشيء اليسير ، بطريق
الالهام والوقوع في القلب ، من حيث لا يدري ، فقد صار عارفاً بصحة
الطريق ، ومن لم يدرك بنفسه قط ، فينبغي أن يؤمن به ، فإن درجة
المعرفة فيه عزيزة جداً . ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب
والحكايات .

أما الشواهد فقوله ، تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾
فكل حكمة تظهر من القلب ، بالمواظبة على العبادة من غير تعلم ،
فهى بطريق الكشف والالهام :

وقال ، صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم

(١) الإحياء : ص ١٣٨٥ .

ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم، تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار ﴿ .

وقال الله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ من الاشكالات والشبه ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قيل : يعلمه علماً من غير تعلم ، ويفطنه من غير تجربة .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل . ويخرج به من الشبهات .
ولذلك كان ، صلى الله عليه وسلم ، يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام :

﴿ اللهم اعطني نوراً ، وزدني نوراً ، واجعل لي في قلبي نوراً ، وفي قبري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ﴾ حتى قال ﴿ في شعري وفي بشري ، وفي لحي ، ودمي ، وعظامي ﴾ .

وسئل ، صلى الله عليه وسلم ؛ عن قول الله تعالى : ﴿ أفن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه ﴾ : ما هذا الشرح ؟ فقال :

« هو التوسعة .. إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح » .

وقال ، صلى الله عليه وسلم ، لابن عباس « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

وقال علي رضي الله عنه : ما عندنا شيء ، أسره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى ، عبدا فهما في كتابه . وليس هذا بالتعلم .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ ، إنه الفهم في كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : « ففهمناها سليمان » . خص ما انكشف باسم الفهم .

وكان أبو الدرداء يقول : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق ، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ، ويجريه على ألسنتهم .

وقال بعض السلف ، ظن المؤمن كهانة .

وقال ، صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » .

وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قد بينا لقوم يوقنون ﴾ .

وروى الحسن عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

﴿ العلم علمان فعلم باطن في القلب ، فذلك ، هو العلم النافع ... ﴾ .

وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن : ما هو ؟ فقال هو : سر من أسرار الله تعالى ، يقذفه الله تعالى في قلوب أحبائه ، لم يطلع عليه مَلَكٌ ولا بشرًا .

وقد قال ، صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي محدّثين ومعلّمين ومكلمّين ، وإن عمر منهم » .

وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنهما : « وما أرسلنا من قبلك من من رسول ولا نبى » ولا محدّث : يعنى الصديقين .

والمحدّث هو الملمّم ، والملمّم : هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل ، لامن جهة المحسّات الخارجة . والقرآن مصرّح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف ، وذلك علم من غير تعلّم .

وقال الله تعالى : ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ خصصها بهم .

وقال تعالى : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

وكان أبو يزيد وغيره يقول : ليس العالم الذى يحفظ من كتاب ، فإذا نسى ما حفظه صار جاهلاً ، وإنما العالم يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء ، بلا حفظ ولا درس ، وهذا هو العلم الربانى وإليه الإشارة بقوله

تعالى ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ مع أن كل علم من لدنه ، ولكن بهضه
بوسائط تعليم الخلق ، فلا يسمى ذلك علماً لدنيا . بل اللدنى :
الذى ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج ... فهذه
شواهد النقل .

ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن
الحصر .

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب ، فذلك أيضاً خارج عن الحصر .
وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، لعائشة ، رضى الله عنها ،
عند موته : إنما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملاً فولدت
بنتاً . فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت . وقال عمر ؛ رضى الله عنه
عنه في أثناء خطبته : ياسارية الجبل . إذ انكشف له : أن العدو ؛ قد
أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من جملة
الكرامات العظيمة .

وعن أنس بن مالك ، رضى الله عنه قال ؛ دخلت على عثمان رضى الله
عنه — وكنت قد لقيت امرأة في طريقى ، فنظرت إليها شراً ،
وتأملت بحاسنها — فقال عثمان ، رضى الله عنه ، لما دخلت : يدخل على

أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه !! أما علمت أن زنا العينين النظر ؟
لتوبن أو لأعزرنك ، فقلت : أوحى بعد النبي ؟ . فقال لا ، ولكن
بصيرة وبرهان ، وفراصة صادقة .

وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيراً
عليه خرقتان ، فقلت في نفسي :

هذا وأشباهه كل على الناس ، فناداني وقال :

« والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، فاستغفرت الله في سري ،
فناداني وقال :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » . ثم غاب عني ولم أره .

وقال زكريا بن داود : دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل

المعاشي ، وهو عليل ، وكان ذا عيال ، ولم يعرف له سبب يعيش به ؛

قال : فلما قت في نفسي : من أين يأكل هذا الرجل ؟ قال فصاح بي ،

فأبأ العباس ، رد هذه الهبة الدنية . فإن لله تعالى أطاقكم خفية .

النص الثالث : دليل الكشف ^(١) .

والدليل القاطع (على الكشف) الذي لا يقدر على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب . وإذا جاز ذلك في النوم ، فلا يستحيل أيضاً في اليقظة . فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسّات ، فكم من مستيقظ غائص ، لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

الثاني : إخبار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عن الغيب ، وأمور في المستقبل ، كما اشتمل عليه القرآن . . وإذا جاز ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره : إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق ، وهذا لا يسمى نبياً ، بل يسمى ولياً .

فن آمن بالأنبياء ، وصدق بالرؤيا الصحيحة ، لزمه لا محالة ، أن يقر بأن القلب له بابان : باب إلى الخارج ، وهو الحواس ، وباب إلى الملوكوت من داخل القلب : وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي .

فإذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة ، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلاً إليه .
فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه : من عجب تردد القاب بين عالم الشهادة وعالم الملوكوت .

وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعمير ، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة ، فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب ، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة ، فلنقتصر على ما ذكرناه ؛ فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة ، وطلب الكشف منها ، فقد قال بعض المكاشفين :

ظهر لي الملك ، فسألني أن أملئ عليه شيئاً من ذكرى الخلق عن مشاهدتي من التوحيد ، وقال : ما نكتب لك عملاً ، ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل ، فقلت : ألسما تكتبان الفرائض ؟ قالوا : بلى ، قلت : فيكفيكما ذلك .

وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين ؛ لا يطلعون على أسرار القلب ، وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة .

النص الرابع : الفرق بين العلم النظري والعلم الكشفي^(١)

فهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، رأى الأشياء فيه ، وتفجر إليه العلم منه ، فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس ، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض . ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسّات ، كان ذلك حجاباً له عن مطالعة اللوح المحفوظ ، كما أن

(١) الإحياء ص ١٣٨١ .

الماء إذا اجتمع في الأنهار منع ذلك من التفجر في الأرض ، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكى صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس .

فإذن للقلب بابان : باب مفتوح إلى عالم الملكوت ، وهو اللوح المحفوظ ، وعالم الملائكة . وباب مفتوح إلى الحواس الخمس ، المتمسكة بعالم الملك والشهادة . وعالم الشهادة والملك أيضاً ، يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحاكاة .

فأما انفتاح باب القلب إلى الاقتباس من الحواس ، فلا يخفى عليك . وأما انفتاح بابه الداخل إلى عالم الملكوت ، ومطالعة اللوح المحفوظ : فتعلمه علماً يقينياً : بالتأمل في عجائب الرؤيا ، وإطلاع القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل ، أو كان في الماضي ، من غير اقتباس من جهة الحواس .

وإنما يفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى .

قال : صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون » .

قيل : ومن هم المفردون يا رسول الله ؟

قال : « المتزهدون بذكر الله تعالى ، وضع الذكرك عنهم أوزارهم ،

فوردوا القيامة خفافاً » .

ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى : ﴿ ثم أُقْبِلُ بوجهي عليهم ، أترى من واجهته بوجهي يعلم أحدٌ أىَّ شيء أريد أن أعطيه ؟ 》 .

ثم قال تعالى : أول ما أعطيهم : أن أنفذ النور في قلوبهم ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم 》 .

ومدخل هذه الأخبار هو الباب الباطن .

فإذن الفرق بين علوم الأولياء والأنبياء ، وبين علوم العلماء والحكماء هذا ، وهو أن علومهم ، تأتي من داخل القلب ، من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت ، وعلوم الحكمة تأتي من أبواب الحواس ، المفتوحة إلى عالم الملك .

النص الخامس : الجود الإلهي ^(١) .

معلومات الله - سبحانه - لا نهاية لها ، وأقصى الرتب رتبة النبي ، الذي تنكشف له الحقائق ، من غير اكتساب ولا تكلف ، بل بكشف إلهي في أسرع وقت .

وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى ، قريباً بالمعنى

والحقيقة والصفة ، لا بالمكان والمسافة .

ومراق هذه الدرجات : هي منازل السائرين إلى الله تعالى ،
ولا حصر لتلك المنازل ، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في
سلوكه ، فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل ، فأما ما بين يديه ،
فلا يحيط بحقيقته علماً ، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب ، كما
أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ، ولكن لا يعرف حقيقة
النبوة إلا النبي .

وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ، ولا الطفل حال المميز ، وما يفتح
له من العلوم الضرورية ، ولا المميز ، حال العاقل وما اكتسبه من
العلوم النظرية ، فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه من
مزايا لطفه ورحمته :

« ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها » .

وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله ، سبحانه وتعالى
غير مضمون بها على أحد ، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة ،
لنفحات رحمة الله تعالى ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم :

« إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والتعرض لها بتطهير القلب وتركيبته من الخبث والكدورة ،

الحاصلة من الأخلاق المذمومة ، كما سيأتى بيانه .

وإلى هذا الجود الإشارة ، بقوله صلى الله عليه وسلم :

« ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول هل من داع ، فأستجيب

له ؟ » وبقوله عليه الصلاة والسلام ، حكاية عن ربه عز وجل :

« لقد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقاءهم أشد شوقاً ،

وبقوله تعالى :

« من تقرب إلى شبراً ، تقربت إليه ذراعاً » .

كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب ، لبخل

ومنع من جهة المنعم ، تعالى عن البخل والمنع علواً كبيراً .

ولكن حجبت نخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب ، فإن

القلوب كالأواني ، فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب

المشغولة بنير الله ، لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى . وإليه الإشارة

بقوله ، صلى الله عليه وسلم : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب

بنى آدم لنظروا ، إلى ملكوت السماء » .

ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان : العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم : هو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، فبه كمال

الإنسان ، وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال .

النص السادس^(١) : شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى :
اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ، تعالى ، ورسوله ، صلى الله
عليه وسلم : فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب
بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد
ذلك يطيع من أحب .

ويدل على إثباته لله تعالى ، قوله عز وجل : « يحبهم ويحبونه »
وقوله تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » .

وهو دلائل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الحب لله من شرط
الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ،
ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله ، أحب إليك مما سواهما » ؛
وفى حديث آخر :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ؛

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون ، أحب إليه من أهله وماله والناس

أجمعين » وفى رواية « ومن نفسه » .

(١) الإحياء ص ٢٥٨١ .

كيف وقد قال الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم . وأموالٌ اقترَفْتُمُوهَا وتجارةٌ تَنخَسُونَ كَسَادَهَا ، ومساكن تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ، فترَبُّصُوا حتى يَأْتِيَ الله بأمره ، والله لا يهدي القومَ الفاسقين » (١) .

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالمحبة فقال .

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله إياي » .

ويروى ، أن رجلا قال يا رسول الله : إني أحبك فقال صلى الله عليه وسلم « استعد للفقير » فقال إني أحب الله تعالى . فقال : « استعد للبلاء » .

وعن عمر ، رضى الله عنه ، قال : نظر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى مُضْعَب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تمنطق به ، فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : (انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه . لقد رأيته بين أبويه يغذونه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون) .

وفي الخبر المشهور، أن إبراهيم، عليه السلام، قال لملك الموت :
إذ جاءه لقبض روحه .

(هل رأيت خليلا عيت خليله ؟ ! فأوحى الله تعالى، إليه : هل رأيت
محباً يكره لقاء حبيبته ؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض .
وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت
سبب اللقاء ، انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى
يلتفت إليه .

وقد قال نبينا ، صلى الله عليه وسلم في دعائه :

(اللهم ارزقني حبك ، وحباً من أحبك ، وحب ما يقربني إلى
حبك ، واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد) .

وجاء أعرابي إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ،
متى الساعة ؟ قال : « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير
صلاة ولا صيام . إلا أني أحب الله ورسوله . فقال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » قال أنس : فما رأيت المسلمين
فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « من ذاق من خالص
محبة الله تعالى ، شغله ذلك عن طلب الدنيا : وأوحشه عن جميع البشر » .

وقال الحسن : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ،
والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن » .

وقال أبو سليمان الدارني : إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان
وما فيها من النعيم عنه ، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟ » .

ويروى : أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر ، وقد نخلت أبدانهم ،
فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على
الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولاً
وتغيراً فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال :
حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا
هم أشد نحولاً وتغيراً كأن على وجوههم المرأى من النور ، فقال :
ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون
أنتم المقربون ، أنتم المقربون » .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت :
أما تجد البرد ؟ فقال : من شغله حب الله ، لم يجد البرد .

وعن سري السقطي قال : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها
عليهم السلام ، فيقال : يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ، ويا أمة محمد ،
غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون : يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ،
فتسكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل ، أحبه وإذا
أحبه أقبل إليه ؛ وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين
الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا
وتروحه في الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب ، فكيف رضوانه
ورضوانه يستغرق الآمال ، فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول ،
فكيف وده ؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه .

وفي بعض الكتب : « عبيد : أنا - وحقتك - لك محب ، فبحق
عليك كن لي محبا » .

وقال يحيى بن معاذ « مثقال خردلة من الحب ، أحب إلى من عبادة
سبعين سنة بلا حب » .

وقال يحيى بن معاذ أيضا : « إلهي إني مقيم بفنائك ، مشغول
بثنائك ، صغيرا أخذتني إليك وسربلتني بتمرفتك ، وأمكنني من
لطفك ونقلتي في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال : سترًا وتوبة ،
وزهدًا ، وشوقًا . ورضا ، وحبًا . . تسقيني من حياضك وثمراني في
رياضك . . ملازما لأمرك ، ومشغوفًا بقولك ، ولما طر شاربي ، ولاح
طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا ، وقد اعتدت هذا منك

صغيرا ، فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك مهمة ، لأنني
محب وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف ، وقد
ورد في حب الله تعالى ، من الأخبار والآثار ، ما لا يدخل في حصر
حاصر ، وذلك أمر ظاهر ، وإعنا للغموض في تحقيق معناه ،
فلنستقل به .

الْقِسْمُ الثَّانِي

الْمُنْفَذُ مِنَ الضَّلَالِ

لِجُتَةِ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

توطئة

الحمد لله ، الذي يفتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد
المصطفى ، صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله ، وأصحابه ، الهادين
من الضلالة

أما بعد : فقد سألتني^(١) أيها الأخ في الدين ، أن أبتدئ إليك غاية
العلوم ، وغائلة المذاهب أغوارها .

(١) كتب أحد المعاصرين للغزالي الذين اتصلوا به وصاحبوه ، وهو عبد الغافر
ابن إسماعيل الفارسي المتوفى سنة ٥٢٩ هـ مؤرخاً للإمام الغزالي فقال : قال
أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الخطيب الفارسي ، خطيب نيسابور :
محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ، حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة
الدين ، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ، ومنطقاً وخاطراً وذكاه وطبعاً ، أخذ
طريقاً في صباه بطوس ، من الفقه على الإمام أحمد الراذكافي ، ثم قدم نيسابور
مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبان من طوس ، وجد ، واجتهد
حتى تخرج في مدة قريبة ، وبز الأقران وحمل القرآن ، وصار أنظر أهل زمانه ،
وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين ، وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم
ويرشدهم ، ويجتهد في نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف ، وكان
الإمام — مع علو درجته ، وسمو عبارته وسرعة جريه في النطق والكلام —
لا يصني نظره إلى الغزالي سرّاً لإبائه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع ولا يطيّب —

= له تصديده للتصانيف ، وإن كان متخرجاً به منتسباً إليه ، وهذا لا يخفى من طبع
البشر ، ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ، مظهر اختلاف ما يضره ، ثم
بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام

فخرج من نيسابور ، وصار إلى العسكر ، واحتل من نظام الملك محل القبول
وأقبل عليه صاحب لعلو درجته ، وظهر اسمه ، وحسن مناظرته ، وجرى
عبارته . وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الأئمة والنصحاء ،
فوقعت الغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقة الخصوم اللد ،
ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق وارتفق بذلك أكل
الارتفاق ، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد ، للقيام بالتدريس في
المدرسة الميمونة النظامية بها ، فصار إليها : وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ،
وما لقي مثل نفسه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق .

ثم نظر في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصف فيه تصانيف ، ووجد
المذهب في الفقه ، فصف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضاً
تصانيف . وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكار
والأمراء ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر ظهر عليه بعد مطالعة
العلوم الدقيقة وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك
الحشمة وطرح مانال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة ، فخرج
عما كان فيه وقصد بيت الله وحج ، ثم دخل الشام ، وأقام في تلك الديار قريباً من
عشر سنين : يعطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي
لم يسبق إليها ، مثل : إحياء علوم الدين . والكتب المختصرة منه ، مثل الأربعين
وغيرها : من الرسائل التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم .

وأخذ في مجاهدة النفس ، وتدبير الأخلاق ، وتحسين الشرائع ، وتهذيب
المعاش ، فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق

الذميمة ، إلى سكون النفس ، وكرم الاخلاق والفراغ عن الرسوم والترتيبات ،
وتزيابزى الصالحين ، وقصر الامل ، ووقف الاوقات على هداية الخلق ودعائهم
إلى ما يعينهم : من أمر الآخرة ، وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ،
والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية ، والانقياد بكل من يتوسم فيه أو يشم منه
رائحة المعونة أو التيقظ بشيء من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان

ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته مشغلاً بالتفكير ، ملازماً للوقت ، مقصوداً
تقياً ، وذخراً للقلوب لكل من يقصده ويدخل عليه ، إلى أن أتى على ذلك مدة
وظهرت التماسيف وفشت الكتب ، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ،
ولا اعتراض لأحد على أمره . حتى انتهت نوبة الوزارة إلى الاجل نخر الملك
جمال الشهداء تغمدته الله برحمته ، وتزينت خراسان بحشمتة ودولته . وقد سمع
وتحقق بمكان الغزالي ودرجته ، وكال فضله وحالته ، وصفاء تقيدته ومعاشرته .
فتبرك به وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه : أن لا يبقى نفائسه وفوائده
عقيمة لا استفادة منها ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الالحاح وشدد
في الاقتراح ، إلى أن أجاب إلى الخروج ، وحمل إلى نيسابور ، وكان الليث غائباً
عن عرينه ، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه ، فأشير عليه بالتدريس
في المدرسة الميمونة النظامية ؛ عمرها الله ، فلم يجد بداً من الاذعان لمولاه ! ونوى
بإظهار ما اشتغل به : هداية الشداة وإفادة القاصدين ، دون الرجوع إلى
ما انخلع عنه وتحرر عن رقه ، من طلب الجاه وممارسة الأقران ومكابرة المعاندين
وكم قرع عصاه بالخلاف والوقوع فيه . والطعن فيما يذريه ويأتيه . والسعاية به
والتشجيع عليه ! فما تأثر به . ولا اشتغل بجواب الطاعنين . ولا أظهر استيحاشاً
بغميزة المخطئين . ولقد زرتة مراراً وما كنت أحدث نفسي ماعدته في سالف
الزمان عليه : من الزعارة . وإيحاش الناس . والنظر إليهم بعين الازدراء .
والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء . واغتررا بما رزق : من البسطة في النطق
والخاطر والعبادة . وطلب الجاه والعلو في المنزلة . لأنه صار على الصند . وتصنى =

== عن تلك الكدورات . وكنت أظن : أنه متلفع بجلباب التكلف ، متيمن بما صار إليه ، فتحققت ، بعد التروى والتنقير : أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن الرجل أفاق بعد الجنون ، وحكى لنا في ليال كيفية أحواله : من ابتداء ما ظهر له : من ساوك طريق التأله ؛ وغلبة الحال عليه ، بعد تجرعه في العلوم واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذي خصه الله به في تحصيل أنواع العلوم وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم الغريبة عن المعاملة وتفكر في العاقبة ، وما يجدى وما ينفع له في الآخرة فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد ؛ وطلباً للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات ؛ وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم ؛ وخاض في الفنون وعادود الجد والاجتهاد ، في كتب العلوم الدقيقة واقتنى تأويلها حتى انفتح له أبوابها وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة ، وأطراف المسائل ، ثم حكى . أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شئ . وحمله على الاعراض عما سواه ، حتى سهل ذلك ، وهكذا إلى أن ارتاض كل الرياسة ، وظهرت له الحقائق ، وصار ما كنا نظن به . تمرساً وتخلقاً . طبعاً وتحققاً . وإن ذلك أثر السعادة . المقدرة له من الله .

ثم سألنا عن كيفية رغبته في الخروج من بيته . والرجوع إلى مادعى إليه من أمر نيسابور ، فقال معتذراً عنه :

ما كنت أجوز في ديني إلى أن أفق عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالافادة . وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به . وأدعو إليه . وكان صادقا في ذلك . ثم ترك قبل أن يترك . وعاد إلى بيته . واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم . ==

وخانقاه للصوفية ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين : من ختم القرآن ، وبجلسة أهل القلوب ، والقيود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابته عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جوارده بعد مفاصلة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم ، والسعى به إلى الملوك ، وكفاه الله وحفظه ، وصانه من أن تنوشه أيدي المنكيات ، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات ، وكانت خاتمة أمره : إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وبجلسة أهله ، ومطالعة المسحيجين : البخارى ومسلم ، اللذين هما حجة الإسلام ، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن يسير من الأيام يستفرغه في تحصيله . ولا شك ، أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية ، واشتغل بآخر عمره بسماعها ولم تتفق له الرواية ، ولا ضرر فيما خلفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع ، وسائر الأنواع التي تخلد ذكره ، وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها : أنه لم يخلف مثله بعده .

مضى إلى رحمة الله يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الآخر ، سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قسبة طابران ، والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة في آخرته ، كما خصه الله بنون العلم في دنياه بمنه .

ولم يعقب إلا البنات ، وكان له من الأسباب إراثاً وكسباً : ما يقوم بكفايته ، نفقة أهله وأولاده ، فما كان يباسط أحداً في الأمور الدنيوية وقد عرضت عليه أموال فاقبلها وأعرض عنها ، واكتفى بالقدر الذى يصون به دينه ولا يحتاج معه إلى التعرض لسؤال ومنال من غيره .

وما كان يتعرض به عليه : وقوع خلل من جهة النحو يقع في أثناء كلامه ورجع فيه فأنصف من نفسه ، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن ، واكتفى بما يحتاج إليه في كلامه ، مع أنه كان يؤلف الخطب ، ويشرح الكتب بالعبارات التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها ، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون ==

== على خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه ، فما كان قصده إلا المعاني وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها .

وبما نقيم عليه : ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتاب كيمياء السعادة والعلوم ، وشرح بعض الصور والمسائل ، بحيث لا يوافق مراسم الشرع ، وظاهر ما عليه قواعد الإسلام . وكان الأولى به والحق أحق ما يقال : ترك ذلك التصنيف والإعراض عن الشرح به . فإن العوام ربما لا يحكمون أصول القواعد بالبراهين والحجج ، فإذا سمعوا شيئاً من ذلك تخيلوا منه ما هو المضر بعقائدهم ، وينسبون ذلك إلى مذهب الأوائل ، على أن المصنف اللبيب ، إذا رجع إلى نفسه علم أن أكثر ما ذكره : مآر من إله إشارة الشرع . وإن لم يبيح به ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرح بها متفرقة ، وليس لفظ منها إلا وكما يشعر أحد وجوهه بكلام موهم ، فإنه يشعر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة ، فلا يجب إذن حمله إلا على موافق ، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد متعلق ، إذا أمكنه أن يبين له وجهاً في الصحة يوافق الأصول . على أن هذا القدر يحتاج إلى من يظهره . ويقوم به ، وكان الأولى أن يترك الإفصاح بذلك كما تقدم ذكره ، وليس كل ما يتفرد ويتمشى لاحد تقديره ينبغي يظهره بل أكثر الأشياء ، فيما يدرى يطوى ولا يحكى . فعلى ذلك درج الاولون من السلف الصالح ، إبقاء على مراسم الشرع وصيانة الدين عن طعن الطاعنين . وغيره المارقين الجاحدين والله الموفق للصواب .

وقد ثبت أنه سمع سنن أبي داود السجستاني . عن الحاكم أبي الفتح الحاكم الطوسي . وما عثرت على سماعه . وسمع من الاحاديث المتفرقة آلافاً من الفقهاء . فما عثرت عليه ما سمعه من كتاب ، مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، من تأليف ابي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني . رواية الشيخ أبي بكر أحمد بن ==

وأحكى له ما قسمته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق
مع تباين المسالك والطرق . وما استجرات عليه من الارتفاع عن
حضيض التقليد ، إلى يفاع ^(١) الاستبصار .

وما استفدته أولاً من علم الكلام .

وما اجتوئته ^(٢) ثانياً : من طرق أهل التعليم ، القاصرين لدرك
الحق على تقليد الإمام .

= الحارث الأصهباني الإمام عن أبي محمد : عبد الله بن محمد بن جعفر : بن حيان ،
ابن المصنف ، وقد سمعه الإمام الغزالي من الشيخ : أبي عبد الله محمد بن أحمد
الخوارى : خوار طابران ، مع ابنه : الشيخين : عبد الجبار ، وعبد الحميد ،
وجماعة من الفقهاء .

ومن ذلك ما قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الله بن محمد أحمد الخوارى ، أخبرنا
أبو بكر بن الحارث الأصهباني ، أخبرنا أبو محمد بن حيان ، أخبرنا أبو بكر أحمد
ابن عمرو بن أبي عاصم بن إبراهيم بن المنذر الخوارزمي ، حدثنا عبد العزيز
ابن أبي ثابت ، حدثني الزبير بن موسى . عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك
ابن مروان . سأله قتات بن أشيم الكنانى : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكبر منى . وأنا أسن منه . ولد رسول
الله صلى الله عليه وسلم . عام الفيل . وتمام الكتاب في جزء مسموع له (نقله
الاستاذ عبد الكريم عثمان ، عن الطبقات الكبرى للسبكي ، في كتابه النفيس
« سيرة الغزالي ») .

(١) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٢) تقول : اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت في نعمة .

وما ازدريته ، ثالثاً : من طرق التفاسف .
وما ارتضيته ، آخرآ : من طريقة التصوف .
وما انجلي لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق .
وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة .
وما ردنى إلى معاودتى ، « بنيسابور » بعد طول المدة .
فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ،
وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :
اعلموا — أحسن الله ، تعالى ، إرشادكم ، وألآن للحق قيادكم — :
أن اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب مع
كثرة الفرق وتباين الطرق . بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون ، وما نجا
منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم
فرحون » . وهو الذى وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ،
وهو الصادق المصدوق ، حيث قال : « ستفترق أمتى ثلاثاً وسبعين فرقة
الناجية منها واحدة ^(١) » ؛ فقد كان ما وعد أن يكون .

(١) روى هذا الحديث على اختلاف فى متنه ، فى عدة كتب ، بعدة أسانيد .
ولكنه لم يرو فى صحيح البخارى ، ولا فى صحيح مسلم . .
وقد قال ابن حزم ، عنه : إنه لا يصح أصلاً من جهة الإسناد .

ولم أزل في عنفوان شبابي — منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين — : أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور : أتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .

لا أعادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطائنه .

ولا ظاهرية إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنهه فلسفته .

== وقال « ابن الوزير » في « العواصم والقواصم » : « إياك أن تغتر بزيادة : كلها في النار إلا واحدة : فإنها زيادة فاسدة ، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة . »

على أنه قد روى هذا الحديث بالخاتمة الآتية : « اثنتان وسبعون في الجنة . »
« واحدة في النار » ، وقال المقدسي في « أحسن التقاسيم » : « إن الحديث على هذا الوضع : أصح إسناداً : »

ومع ذلك ، فقد أخذ مؤرخو الأديان أمثال « الشهرستاني » : يعدون الفرق التي في النار ، ويتكلمون الوصول بها إلى « اثنتين وسبعين فرقة » ، مع أن تشعب الفرق واختلاف المذاهب والآراء لا ينتهي حتى تقوم الساعة .

انظر مقدمة كتاب : « التبصير في الدين » التي كتبها « الشيخ زاهد الكوثري » ،
رحمه الله تعالى .

ولا متكلمًا إلا وأجهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته .

ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا متمبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته .

ولا زنديقا معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جراته ، في

تعطيله وزندقته

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور : دأبى ، وديدنى ، من

أول أمرى ، وريعان عمرى : غريزة . وفطرة من الله ، وضعتا في جبلى

لا باختيارى وحيلى ؛ حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على

العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ؛ إذ رأيت :

صبيان النصارى : لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ؛ وصبيان اليهود ،

لأنشوء لهم إلا على اليهود ؛ وصبيان المسلمين لأنشوء لهم إلا على

الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

حيث قال :

« كل مولود يولد على الفطرة : فأبواه يهودانه ، وينصرانه ،

ويمجسانه »

فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة

بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات ، وأوائلها

تلقينيات ؛ وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات .

فقلت في نفسي : أولا ؛ إنما مطلوبى : العلم بمحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم : ماهى ؟

فظهر لى : أن العلم اليقيني : هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان النلط والوهم ، ولا يتسع التلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين ، مقارنة أو تحدى بإظهار بطلانه — مثلا — من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ، فإنى إذا علمت ، أن المشرة : أكثر من الثلاثة فلو قال لى قائل : لا بل الثلاثة أكثر ، بدليل أى أقرب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك — بسببه — فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه !

فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت : أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ؛ ولا أمان معه ؛ وكل علم لا أمان معه ؛ ظليس بعلم ياتينى .

مدخل السفسطة

وجحد العلوم

ثم فُتشت عن علومي ، فوجدت نفسي : عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات ، والضروريات ،

فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لامطمع في اقتباس المشكلات إلا من الحيات ، وهي الحسيات ، والضروريات : فلا بد من إحكامها أولا ؛ لأتيقن أن ثقتي بالمحسّات ، وأمانى من الغلط في الضروريات : من جنس أمانى الذى كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمانى أكثر الخلق في النظريات ؛ أم هو أمان محقق لا غدر فيه ؛ ولا غائلة له .

فأقبلت بجد بليغ ؛ أتأمل في المحسّات والضروريات ، وأنظر : هل يمكننى أن أشكك نفسي فيها ؟ فأنتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسّات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ؛ ويقول : من أين الثقة بالحواس ؟ وأقواها حاسة البصر ؛ وهي تنظر إلى الظل ؛ فتراه واقفا غير متحرك ؛ وتحكم بنفى الحركة ؛ ثم بالتجربة والملاحظة — بعد ساعة — تعرف : أنه متحرك ؛ وأنه . لم يتحرك دفعة بنبهة ؛ بل على التدريج ذره ذره ؛ حتى لم تكن له حالة وقوف .

وتنظر إلى الكوكب ، فتراه صغيراً في مقدار ديتار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار .

هذا ، وأمثاله ، من المحسات يحكم فيها حاكم الحس ، بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ، ويخونه ، تكذيباً لاسبيل إلى مدافعته .

فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسات أيضاً ، فلمله لائحة إلا بالعقليات ، التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً : موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .

فقلت الحواس : بم تأمن أن تكون فتتك بالعقليات : كيثقتك بالمحسات وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلمل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ، إذا تجلّى كذب العقل في حكمه ، كما تجلّى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلّى ذلك الإدراك ، لا يدل على استحالة !

فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت إشكالها بالنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتخيّل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ، واستقراراً ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم : أنه لم يكن جميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل ، وطائل ؟

فبم تأمن أن يكون جميع ماتمته قد في يقظتك ، بحس أو عقل ،
هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ
عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك : كنسبة يقظتك إلى منامك ،
وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة ، تيقنت
أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية : أنها حالتهم ، إذ يزعمون أنهم
يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم ، وغابوا عن
حواسهم ، أحوالاً لا توافق هذه المقولات .

ولعل تلك الحالة هي الموت . إذ قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :
« الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .

فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات ظهرت
له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك :
« فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

فلما خطررت لى هذه المخاطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت
لذلك علاجاً فلم يتيسر ؛ إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب
دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة ، لم يمكن
تركيب الدليل .

فأعْضَلَ هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا وفيهما على التَّسْفِطَةِ
بِحُكْمِ الحال ، لا بِحُكْمِ النطق والمقال .

حتى شفى الله تعالى ، من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة
والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقاً بها على
أمر و يقين .

ولم يكن ذلك بِنَظْمٍ دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله ، تعالى ،
في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن
الكشف : موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ؛
ولما سئل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن « الشرح » ومعناه
في قوله تعالى :

فَن يرد الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ . قال :

« هو نور ، يقذفه الله تعالى ، في القلب » .

فَقِيلَ : « وما علامته ؟ » .

قال : « للتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، وهو
الذي قال : عليه السلام ، فيه :

« إن الله تعالى : خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليه من نوره » .
فمن ذلك النور : ينبغي أن يطاب الكشف .

وذلك : النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحياء ،
ويجب التصدله ، كما قال عليه السلام : « إن لربكم في أيام دهركم
نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات : أن يعمل في كمال الجد في الطلب ،
حتى ينتهي إلى طلب ما لا يطلب . فإن الأوليات ليست مطلوبة ؛
فإنها جاضرة ، والحاضر إذا طلب نقر واختفى . ومن طلب ما لا يطلب
لا يتم بالتقصير في طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفى الله تعالى ، من هذا المرض بفضله ، وسعة جوده ،
انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

- ١ - المتكلمون : وهم يدعون أنهم : أهل الرأي ، والنظر .
- ٢ - الباطنية : وهم يزعمون أنهم : أصحاب التعليم ، والمخصوصون
بالاقتباس من الإمام المعصوم .
- ٣ - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم : أهل المنطق والبرهان .
- ٤ - والصوفية : وهم يدعون أنهم : خواص الحضرة ، وأهل
المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق ، لا يمدو هذه الأصناف الأربعة ، فهو لا
هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك
الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتة ، إذ من
شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ،
وهو شعب^(١) لا يرأب^(٢) وشعث^(٣) لا يلم بالتلفيق والتأليف ،
إلا أن يذاب بالنار ، وتستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

(١) الشعب : من الاضداد وهو هنا بمعنى الشق .

(٢) يرأب : يصلح (٣) شعث : متفرق

فابتدأت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق :

مبتدئاً بعلم الكلام ،

ومثلياً بطريق الفلسفة ،

ومثلياً بتعليم الباطنية ،

ومربحاً بطريق الصوفية .

١ — علم الكلام

مقصوده وحاصله

ثم إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته ، وعقلته ، وطالمت كتب
المحققين منهم .

ومنتفت فيه ما أردت أن أصنف .

فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودى .

وإنما مقصوده : حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش

أهل البدعة^(١) .

(١) نرى أن الإمام الغزالي — مع هدمه فى النهاية لعلم الكلام — كان بجاملاً
للبتكلمين ؛ ويسرنا أن نذكر هنا رأى السلف فى شئ من الاستقاضة .

قال ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فى كتابه جامع بيان العلم وفضله ، : =

.

= نهي السلف — رحمهم الله — عن الجدال في الله ، جل ثناؤه ؛ في صفاته ، وأسمائه . وأما الفقه ، فأجمعوا على الجدال فيه ، والتناظر لأنه علم يحتاج فيه إلى ردّ الفروع إلى الأصول : للحاجة إلى ذلك ، وليس الاعتقادات كذلك ؛ لأن الله ، عز وجل : لا يوصف عند الجماعة : — أهل السنة — إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أجمعت الأمة عليه . وليس كذلك شيء . فيدرك بقياس أو انعام نظر وقد نهينا عن التفكير في الله ؛ وأمرنا بالتفكير في خلقه الدال عليه .

وعن مصعب بن عبد الله الزبيري ، قال : كان مالك بن أنس يقول : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم ، والقدر ؛ وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل .

وقال أيضاً في الكتاب نفسه : وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل . وقال مالك ، أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم ؛ لدين جديد ؟ .

• قال أبو بكر : تناظر القوم وتجادلوا في الفقه . ونهوا عن الجدال في الاعتقاد . لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين . ألا ترى إلى مناظرة بشر . في قوله ، عز وجل : • ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، حين قال : هو بذاته ، في كل مكان . فقال له خصمه ؛ فهو في قلنسوتك ؛ وفي حشك ؛ وفي جوف حمار ؛ تعالى الله عما يقول . حكى ذلك وكيع رحمه الله ؛ وأنا والله أكره أن أحكي كلامهم . . . فن هذا وشبهه نهي العلماء .

من كتاب • التمهيد للرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، :

= وقد جاء فيه أيضاً عن شيخ الإسلام الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ :

وأخرج عن طريق عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضباً حتى وقف عليهم ، فقال : « يا قوم ! بهذا ضلت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ! وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض . ولكن نزل القرآن ، فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به . »

وأخرج عن أبي هريرة ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب ؛ حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر . عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وأخرج عن أبي الدرداء ، وأبي أمامة ، وأنس بن مالك ، وواثلة بن الأسقع قالوا : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتنازع في شيء من الدين ، فغضب غضباً شديداً ؛ لم يغضب مثله . ثم انتهرنا ، قال : يا أمة محمد ! لا تهيجوا على أنفسكم ثم قال : أبهذا . أمرتكم ؟ ؛ أو ليس عن هذا تهيتكم ؟ ! إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ثم قال : ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء ، فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان . ذروا المراء ؛ فإن المراء لا تؤمن قتلته . ذروا المراء ؛ فإن المراء يورث الشك ؛ ويحبط العمل ؛ ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء ؛ فكفى بك إثماً : ألا تزال يمارى ، ذروا المراء . فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة . ذروا المراء ؛ فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنة : في وسطها ؛ وربعها ؛ وأعلىها لمن ترك المراء ؛ وهو صادق ؛ ذروا المراء ؛ فإنه أول ما نهانى الله عنه بعد عبادة الأوثان ؛ وشرب الخمر ؛ ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد ، ولكن رضى بالتحريش ، وهو المراء في الدين ؛ ذروا المراء ، فإن بني إسرائيل : افترقوا على إحدى وسبعين فرقة ؛ والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ؛ وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم على =

فقد ألقى الله تعالى ، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي : الحق ،
على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار .
ثم ألقى الشيطان في وسوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلم يجوا
بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

فأنشأ الله تعالى ، طائفة المتكلمين ، وحرّك دواعيهم لنصرة السنة
بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثه على خلاف
السنة المأثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله^(١)

= الضلالة ؛ إلا السواد الأعظم ؛ قالوا : يا رسول الله ، ومن السواد الأعظم ؟
قال : من كان على ما أنا عليه وأصحابي ؛ ثم قال : إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود
غريباً فطوبى للغرباء ، قالوا : يا رسول الله ، ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون
إذا فسد الناس ، ولا يمارون في دين الله ، اهـ

(١) تحدث الإمام الغزالي عن علم الكلام غير مرة في كثير من كتبه ،
وتحدث في (الإحياء) عن الآراء في كونه حلالاً أم حراماً ؛ ثم قال :
ولمّا التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل
الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله : سمعت الشافعي ، رضى الله عنه ، يوم ناظر
حفصا الفرد ؛ وكان من متكلمي المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل ، العبد
بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد
سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه .

وقال أيضاً : قد اطّعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى =

== البعد بكل ما نهى الله عنه ماعدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام :
وحكى الكرايبسى : أن الشافعى رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام ،
فغضب ، وقال : سل عن هذا حفص الفرد وأصحابه أخزاهم الله .
ولما مرض الشافعى رضى الله عنه ، دخل عليه حفص الفرد : فقال له من
أنا ؟ فقال حفص الفرد : « لاحفظك الله ، ولا رعاك حتى تتوب مما أئمت فيه .
وقال أيضاً : « لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء ، لفروا منه فرارهم
من الأسد . .
وقال أيضاً : إذا سمعت الرجل يقول : « الإسم هو المسمى أو غير المسمى
فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له .
قال الزعفرانى : قال الشافعى : حكى فى أصحاب الكلام ، أن يضربوا
بالجرید ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب
والسنة ، وأخذ الكلام .
وقال أحمد بن حنبل : لا يفتح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا
نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل ، وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع
زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد على المبتدعة ، وقال له : أأنت تحكى
بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ! أأنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة ،
والتفكر فى تلك الشبهات ، فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث .
وقال أحمد ، رحمه الله : « علماء الكلام زنادقة . .
وقال مالك ، رحمه الله : أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل
يوم لدين جديد ؟ . يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت .
وقال مالك رحمه الله أيضاً : « لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . .
فقال بعض أصحابه فى تأويله : إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام ، على
أى مذهب كانوا . .

فأفقد قام طائفة منهم بما نذبهم الله تعالى إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما أُحدث من البدعة .

ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطروهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار .

= وقال أبو يوسف : « من طلب العلم بالكلام تزندق » .

وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ، ولا تجالسوهم ، ولا تسمعوا منهم .
وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا .

ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه .

وقالوا : « ماسكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصح بترتيت الالفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر ، لذلك قال النبي ، صلى الله عليه وسلم .

« هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، أي المتعمقون في البحث والاستنصاء جدلاً .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين ، لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ويعلم طريقه ، ويفنى عليه وعلى أربابه ، فقد علمهم الاستنجاء ، وندبهم إلى علم الفرائض ، وأثنى عليهم ، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال : « امسكوا عن القدر ، وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم . فالزيادة على الأستاذ طينان وظلم ، وهم الأستاذون والقدر ، ونحن الانباع ، والتلامذة .

وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ،
ومؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم
سوى الضروريات شيئاً أصلاً .

فلم يكن الكلام في حقى كافياً . ولا لدأى الذى كئت أشكوه شافياً .^(١)
نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه ، وطالت المدة
تشوق المتكلمون إلى محاولة الذبّ عن السنة بالبحث عن حقائق
الأمور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ،
لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية
القصوى ، فلم يحصل منه ما يعجو بالكلية ظلمات الحيرة ، في اختلافات
الخلق .

(١) وتحدث الإمام الغزالي في الإحياء أيضاً عن منفعة علم الكلام وفائدته
معبراً بهذا النص عن رأيه الخاص فقال :

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته ، كشف الحقائق ، ومعرفة ما على ما هي عليه ،
وهيات ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخييط والتضليل
فيه أكثر من الكشف والتعريف ؛ وهذا إذا سمعته من محدث ، أو حشوى ،
ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ؛ فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قل له .
بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك
إلى التسمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق
المعرفة من هذا الوجه مسدود .

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري ، بل لست أشك
في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوباً بالتقليد في بعض
الأمور التي ليست من الأوليات .

والفرض الآن : حكاية حالي ، لا الإنكار على من استشفى به ، فإن
أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكم من دواء ينتفع به مريض
ويستضر به آخر .

٢ - الفلسفة

أحاصيلها : ما يذم منها ، وما لا يذم . وما يكفر قائله ، ولا يكفر ،
وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ، وبيان ما سرقوه : من كلام أهل الحق ،
ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك ، وكيفية حصول نفرة
النفوس من ذلك الحق ، وكيفية استخلاص صراف الحق الخالص من
الزيف والبهرج : من جملة كلامهم .

ثم إني ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة .
وعلمت يقيناً : أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على
منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم في أصل ذلك العلم ، ثم يزيد
عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم ، من
غوره وغائله ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً .

ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك .

ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالرد
عليهم - إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن
الاغترار بها بما قل على ، فضلاً عن يدعي دقائق العلوم . فعلمت : أن
رد المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنهه : رمى في محاية .

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد

المطالعة ، من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت عل ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، وأنا مُمْنُو^(١) بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد .

فأطعننى الله سبحانه وتعالى ، بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلصة على منتهى علومهم ، فى أقل من سنتين ، ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه ، قريباً من سنة أعاوده وأردده ، وأتفقد غوائله ، وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه : من خداع ، وتلبيس ، وتحقيق ، وتخيل ، اطلعاً لم اشك فيه .

فاسمع الآن حكايته ، وحكاية حاصل علومهم : فإنى رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم — على كثرة أصنافهم — يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأفدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق ، والقرب منه .

أصناف الفلاسفة

وشمول وصمة الكفر كافتهم

إعلم : أنهم - على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون
إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون ،

والطبيعيون ،

والإلهيون ،

الصنف الأول : الدهريون^(١) وهم طائفة من الأقدمين : جحدوا

(١) بعد أن ذكر سفلانا كلام يعقوبي ، والغزالي عن الدهرية قال :
« فأنالو حاولنا استنباط الأصول التي اعتمدها يعقوبي والغزالي ؛ فيما ذكرناه
في حق الدهرية ، وجدنا أرسطو يقول ؛ في كتاب : « السماء والعالم » ، حاكيا عن
« أنبا ذو قليس » :

« إن هذا العالم لم يحدثه أحد من الآلهة ولا من البشر ، بل كان أبداً . »

ثم قال أرسطو في المقدمة الثالثة من كتاب السماء مانعه :

« أما من ذهب إلى قول (أنبا ذو قليس) ، (وديموقريطس) فإنه قال : إن
الآركان لم تحدث باستحالة بعضها في بعض ، بل لآحدوث إلا في الظاهر ؛ فإنها
موجودة على حدتها : فتفرق بعد الاجتماع . »

ثم قال في كتاب : (الفساد والتكوين) في المقالة الأولى : « وعندهم : أن

= الأركان؛ إذا اجتمعت فقد تحدث الأجسام ، وإذا افترقت فسدت الأجسام .
وعندهم أيضاً : أن الوجود لا يصير أبدياً إلى العدم . ١٠

وقال (ديوجانس) في تاريخ الحكماء : ورأيهم أن العدم لا يحدث منه شيء ،
وأن الوجود لا يصير إلى العدم . ١٠

فاذا ما قابلنا هذه النصوص بما في تاريخ يعقوبي وجدناها مطابقة ، فضلاً
فصلاً ، لما ذكره من مذهب الدهريين .

فتقرر حينئذ : أن الدهرية عند العرب : هم شبيعة (ديموقريطس)
و (أنبا ذو قليس) ؛ وأن الطبيعيين : هم بقية الأقدمين من الفلاسفة .

ومذهب (ديموقريطس) : هو الغاية القصوى في فلسفة اليونان أوآخر
العصر الأول .

اقتبس منه الأشاعرة قولهم بالجزء الذي لا يتجزأ .

ومنه أخذ النظام من متكلمي المعتزلة قوله بالكون ...

ومنه أخذ جم غفير من الملاحدة والطبيعيين قولهم في إنكار الباري
ووحدة الوجود .

فن طابق قول (ديموقريطس) بما عليه الطبيعيون من الفلاسفة في عصرنا هذا
لما وجد بين القولين تفاوتاً ؛ اللهم إلا ما نشأ عن تقدم العلوم في زماننا .

والحق : أن من افتصر على الطبيعيات ، ولم يقل بغير المحسّات : لا يسمعه
إلا الافتقار والتجلى بشعائهم . مع أن من تبصر في عواقب الأمور تحقق : أنه
مثل هذا الرأي : لا يفضي ؛ في كل زمان ، إلا لإنكار الحقائق وهدم دعائم
العقل ١٥ . (سننلانا) المذاهب الفلسفية ، مخطوط مكتبة الجامعة) .

الصانع المدبر^(١) العالم القادر ، وزعموا : أن العالم : لم يزل موجوداً ،

(١) إن الحقيقة التي لا جدال فيها هي : أن الأغلبية العظمى من الفلاسفة ومن العلماء في جانب الإيمان

والإلحاد في جو الفلاسفة ، وفي جو العلماء شذوذ .

وما لا شك فيه أن عباقرة الفلسفة : القدماء منهم والمحدثين : مؤلهون .

فسقراط . وأفلاطون ، وأرسطو . وأفلاطون . وديكارت من المؤلهين .

وإذا كان الإلحاد الفلسفي شذوذاً . فإن ذلك لا ينفى أنه حقيقة موجودة

وأن له ممثلين باستمرار ، وهم - على حد تعبير الإمام الغزالي - دجحدو الصانع المدبر ، العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلاصانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً ،

و (ديموقريطس) . في العهد اليوناني هو الذي حاول بكل جهده أن يقيم من الإلحاد مذهباً ، وكانت فكرته هي :

أن المسادة قديمة ؛ وهي مركبة من أجزاء لا تتجزأ ؛ وهذه الأجزاء . أو الذرات : دائمة التحرك في الفضاء اللانهائي . ومن اجتماعها تتكون الأجسام وبافتراقها تفتي . وهكذا استمر الأمر من الأزل ، وسيبقى إلى الأبد بدون غاية ولا هدف : إنها الآلية البحتة .

وهذه الفكرة ، وإن كانت قديمة ، فإنها فكرة كل من يتخذ الإلحاد مذهباً في العصور الحديثة وإن اختلفت كيفية التعبير عنها .

لأنها فكرة الماديين المحدثين كما كانت فكرة الماديين القدماء ولم يغير من جوهرها تحطيم الذرة أو تفتيتها ، اللهم إلا في كيفية التعبير عنها .

وقد رد القدماء في سهولة وفي قوة على هذا المذهب وكذلك فعل المحدثون وكانت حججهم ، من الدقة ومن الإحكام ، بحيث تجعل المتأمل فيها لا يتأق له أن يقول بغيرها .

== وقد تلخص حجج القدماء الأستاذ (سانتلانا) في المخطوط المعنون بعنوانه :
(المذاهب الإسلامية) .. ونحن نورد تلخيصه الرائع فيم يلي :

(١) وأما القول بالطبيعة . وأن لا شيء غيرها : فهو لا يرضى العاقل
المتبصر ! كأنه يقول

نعم . أنا لا أنزع في كون الطبيعة والحركة : من أصول الموجودات . وإنما
توقفت في كيفية صدور الفعل منها .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا
العالم هذا النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، الذي حارت فيه العقول ، وقصرت
عن إدراكه الفحول .

كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والصدفة ومجرد البخت ؟ ليت شعري ، كيف
اجتمعت تلك الأجزاء ؟ وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها
وقواها ؟ وكيف بقيت على تألفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد
المرّة بعد المرّة ؟

وقد شهدت المعاينة : بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تقضي إلا
إلى غاية الالتباس وعدم القيام !

هذا لعمرى ؛ كمثل من وضع حروف المعجم في ظروف ؛ أو صندوق ؛
ثم جعل يحركها يوماً بعد يوم ؛ طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ؛ فيتركب
منها قصيدة بليغة ؛ أو رسالة عميقة في المنطق ؛ أو كتاب في الهندسة دقيق ! !

أليس ذلك من السفه البين . فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور لما حصل
من كده إلا على حروف ! !

فكيف يتصور حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإلتقان =

== والإحكام وتضافر الأجزاء . وعجيب مناسباتها بعضها لبعض ، من حركات
اتفاقية في خلاء لا نهاية له ١١٩

قال أرسطو في كتاب : (سمع الكيان) :

(إن كل نظام يدل على وجود العقل) .

(ب) وفلا عن هذا ، فإن ما يحصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة .
ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس ، بخلاف
ما شهدت به التجربة في عالمنا من الثبوت . ولولا هذا لما أمكن إنشاء علم من
العلوم الرياضية والطبيعية .

(ح) هذا ، وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شيء سواها ، فن أين
هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ١٢٠

وهي - مع ما فيها : من العجز ، والقصور وكثرة الخطأ - من أظهر هذه
الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم .

ولا سبيل ، من المادة ، إلى الأفعال العقلية ؛ لما بينهما من المغايرة الأصلية .

فوجود هذه القوة : يستدعى وجود جوهر يجانسها ويمثلها ، ليكون
أصلاً لها ومركزاً .

هل يحتمل : أن ما نشاهده من تصور المعقولات ؛ والكشف عن الكليات
وتفريق القضايا ؛ وتركيب القياسات ، ليس هو ، في نفس الأمر ، إلا اصطلاك
جزء من المادة بجزء آخر ١٢١ .

هل يحتمل : أن ما تضمنته عقولنا : من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ؛
كالمنطق ، والرياضيات ، والإلهيات ، وما فتئت به القلوب : من الشعر الرائق ،
والمطرب من الألحان ، وسحر البيان : أصله من تلك الأجزاء ١٢٢

كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة^(١) .

== وكانت النار من اصطكاك الحجر بالحجر ، وذلك في خصوص النار ؛ إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير .

(د) إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها ، فمن باب أخرى وأولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا ، في درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع ، وهذا ما تبعده وتأنفه الفطرة السليمة .
(١) يقول سنزلانا ، أيضاً :

(من تبصر في عواقب الأمور تحقق : أن مثل هذا الرأي لا يفضي في كل زمان ، إلا إلى إنكار الحقائق وهدم دعائم العقل . كيف لا ومن قال : إنه ليس في الوجود إلا المحس ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم بالوجود ؟
وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المحصل حيث قال نقلاً عن أرسطو وغيره :

الحس إدراك فقط .

والحكم تأليف بين مدركات بالحس ، أو بغير الحس

وليس من شأن الحس التأليف الحكمي ، لأنه إدراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محس أصلاً ، فإذاً كل ما هو محس لا يمكن أن يوصف ، من حيث كونه محساً . بكونه يقينياً أو غير يقيني ، أو حقاً أو باطلاً ، أو صواباً أو غلطاً ، فإن جميع هذه الأوصاف من لواحق الأحكام . وهو واضح لمن تحقق ماهية الحس ، وأنه مقصور بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه .

على أن المدرك والمدرك لازالاً يتغيران فكيف يحكم به على غيره ، وكيف ==

والصنف الثاني : الطبيعيون : وهم قوم أكثروا بحثهم : عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات .

فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الإعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطلع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان ، لاسيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء الكثرة بحثهم عن الطبيعة — ظهر عندهم — لا اعتدال المزاج — تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم . ثم إذا انعدم ، فلا يعقل إعادة المدوم ، كما زعموا . فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود : فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة ، والنار ،

== نبى عليه حكماً عقلياً ، وكيف نبى على حقيقته ، اذ كل ذلك موقوف على ما هو غير الحس . فإني اذا تصورت مثلاً ، أنى قد سمعت الصوت فقد تجاوزت حدود الإدراك الحسى ، وأدخلت فيه حكماً عقلياً ليس له بالحس تعلق .

فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون منها حينئذ إلا الشك في الحقائق ، كما وقع في اليونان أثناء القرن الرابع قبل الميلاد .

والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنحل عنهم الأجام ، وأنهمكوا في الشهوات إنهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضا زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .
الصف الثالث : الإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل «سقراط»^(١)

(١) سقراط من أشهر فلاسفة الإغريق ، ومؤسس فلسفة الأخلاق وإلى مدارسه الأخلاقية التي شادها تلاميذه من بعده ترجع أكثر الفكر الأخلاقية التي عرفتها فلسفات العصور حتى عصرنا هذا .

عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وجاهد في سبيل الحق حتى لقي مصرعه على أيدي حاسديه من أنصار الباطل . فكان مصرعه مأساة دامية لا تزال حتى اليوم تثير أشجان أنصار الحق في كل زمان ومكان ، وتوحي إلى أنفسهم بأسمى مثل البطولة والشجاعة والثبات على الحق .

و منهجه في البحث مشهور . والحديث التالي يعطينا صورة منه ، وقد جرى بينه وبين (أرسطو ديموس) الذي كان ينكر الإله . ومنه نستبين أيضا بعض أفكاره .

قال سقراط : (أفى الناس من يعجبك براءته في الصنائع ؟ فقال :

نعم . وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أبرع من غيره .

فقال سقراط : أيهما عندك أرفع شأنًا ؟ أمن يصنع التماثيل الغارية من الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

وهو أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » ، أستاذ « أرسطاطاليس » .
و « أرسطاطاليس » هو الذى رتب لهم المنطق ، وهذب لهم العلوم ،
وحرر لهم مالم يكن محرراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجاً من
علومهم .

== فقال : من يصنع الصور الحية . اللهم الا اذا كانت تلك الصور من عمل
المصادفة والاتفاق . لا من عمل العقل .
قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة
القصص والمنفعة ، فما قولك فى تلك الأشياء ؟ ما هى التى عندك من فعل العقل ،
وما هى التى عندك من فعل الاتفاق ؟

قال : لاشك أن ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل .
قال سقراط أو لست ترى أن صانع الإنسان فى أول نشأته جعل له آلات
الحس لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ؟ : فاعطاء البصر : والأذنين :
ليبصر ويسمع ما يكون لحيثه صادقا . وما فائدة الروائح لولم تكن لنا الحياشيم
وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين المر والحلو والمز لو لم يكن لسان نذوق به .
ان بهرنا معرض للآفات : أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ؟
بجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر ، وجعلت الأهداب كالمناخل
لتفنها من أضرار الرياح . وما قولك فى آلة السمع . وهى تقبل جميع الأصوات
ولا تملأ أبداً ؟ أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت أسنانها المقدمة ؟ وأعدت
لقطع الأشياء فتلقها الى الأضراس فتدقها دقا ؟ .

فإذا تأملت فى ترتيب ذلك ، أيمكنك أن تشك : هل هى من فعل الاتفاق
أم من فعل العقل ؟

قال أرسطو ديموس : نعم اذا تفكرنا فى ذلك ، لانشك فى أنها من فعل
صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته (من مخطوط « سنطلانا »)

وهم بجملةهم ، ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد «أرسطاطاليس» على «أفلاطون»^(١) و«سقراط» ومن كان قبله من الإلهيين ، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من ردائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين «كابن سينا» و«الفارابي» وأمثالهما .

على أنه لم يقدّر بنقل علم : «أرسطاطاليس»^(٢) أحد من متفلسفة

(١) فيلسوف يوناني ولد سنة ٤٢٩ . وتوفي سنة ٣٤٧ ق م ويطلق عليه (أفلاطون الإلهي) ذلك أن الروحية : تحتل من فلسفته المركز الرئيسي . ونظريته في (المثل) وعلى رأسها (مثال الخير) مشهورة وقد ترجم من كتبه إلى العربية حديثاً بعض المحاورات وكتاب (الجمهورية) .

(٢) أرسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م) هو أعلم فلاسفة اليونان الأقدمين . ويعدده بعض الناس أعظم شخصية فلسفية وجدت حتى الآن وهو مقدوني الأصل : رحل إلى أثينا وتلمذ على (أفلاطون) ولزمه ، ويسمى أتباعه (بالمشائين) ويلقب هو بـ (المعلم الأول) لأنه أول من رتب المنطق ونظمه . وكونه عبثاً له حدوده وأهدافه وقد طلب اليه (الملك فيليبس المقدوني) تعليم ابنته (الإسكندر) فأخذ يعلمه ثلاث سنوات وقد ترجم إلى العربية حديثاً من كتبه كتاب (الأخلاق) و (الكون والفساد) و (السياسة) ترجمها الأستاذ (أحمد لطفي السيد) وترجم له الأستاذ (الاهواني) كتاب (النفس) .

الإسلاميين كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تحبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يفهم : وما لا يفهم : كيف .
يرد أو يقبل ؟ وبمجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة أقسام :

١ - قسم يجب التكفير به .

٢ - وقسم يجب التبديع به .

٣ - وقسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فأنفصله .

أقسام علومهم

إعلم : أن علومهم - بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه - ستة أقسام :
رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخرافية .

١ - أما الرياضة : فتتعلق بعلم الحساب ، والهندسة ، وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية ، لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ، ومعرفة قتها .
وقد تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها :
فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة ، فيحسب أن جميع علومهم

فى الوضوح ، وفى وثاقفة البرهان ، كذا العلم . ثم يكون قد سمع من
كفرهم ، وتعطيلهم ، ونهاونهم بالشرع ، ماتداولته الألسنة ، فيكفر
بالتقليد المحض ، ويقول : لو كان الدين حقاً ، لما اختفى على هؤلاء مع
مدقيقهم فى هذا العلم ! فإذا عرّف بالتسامع ، كفرهم وجحدهم ، فيستدل
على أن الحق : هو الجحد والإنكار للدين . وكم رأيت من يضل عن
الحق بهذا القدر ولا مستند له سواء !

وإذا قيل له : الحاذق فى صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً
فى كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق فى الفقه ، والكلام ، حاذقاً
فى الطب ، ولا أن يكون الجاهل بالمعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل
صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق ، وإن كان الحق والجهل
قد يلزمهم فى غيرها ، فكلام الأوائل فى الرياضيات برهاني ، وفى
الالهيات تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه ، فهذا إذا
قرّر على هذا الذى انخدع بالتقليد لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله
غلبة الهوى وشهوة البطالة ، وحب التكاسل على أن يصر على تحسين
الظن بهم فى العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة ، لأجلها يجب زجر كل من يخوض فى تلك
العلوم ^(١) ، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من

(١) إن الرياضيات الآن لم تعد تابعة للفلسفة أو علماً من علومها وإنما هي =

مبادئ علومهم ، يسرى إليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيها ،
إلا وينخلع من الدين ، وينحل عن رأسه لجام للتقوى .

الآفة الثانية نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينبغي
أن يُنصرَ بإنكار كل علم منسوب إليهم : فأنكر جميع علومهم
وادعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف ، والخسوف ،
وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عَرَفَ
ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام
مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حياءً ،
وللإسلام بغضاً .

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام يُنصرَ
بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي ،
والإثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الهيئية . وقوله ،
عليه السلام :

﴿إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى : لَا يَنْخَسِفَانِ

== مادة مستقلة لا غنى عنها للمجتمع الإنساني وهي حينما تدرس لا يفكر الدارس
لها في أمور الدين ولا في مبادئه ، ولعل وضعها في أيام الإمام الغزالي كان على
غير وضعها الآن ، وما من شك في أن الإمام الغزالي - وهو واسع الأفق مستبصر -
لو عاش بيننا الآن لما قال ذلك .

لَمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَفْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِلَى الصَّلَاةِ .

ليس في هذا إنكار علم الحساب، المعروف بمسير الشمس، والقمر، واجتماعهما، أو مقابلتهما على وجه مخصوص .

أما قوله، عليه السلام : « لَكِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لَشَيْءٍ خَضَعَ لَهُ » ، فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلاً .

فهذا حكم الرياضيات وأقنها .

٢ - وأما المنطقيات : فلا يتعلق شيء منها بالدين ، نفيًا وإثباتًا ، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان ، وكيفية تركيبها .

وشروط الحد الصحيح ، وكيفية ترتيبه .

وأن العلم : إما تصور ، وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق ، وسبيل معرفته البرهان .

وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون ، وأهل النظر في الأدلة ، وإعما يفارقونهم بالعبارات ، والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات ، والتشبيبات .

ومثال كلامهم فيها قولهم : إذا ثبت أن كل (أ) (ب) ، لزم أن

بعض (ب) (١) أى : إذا ثبت أن كل إنسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان إنسان ، ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية ، تنعكس موجبة جزئية . وأى تعلق لهذا بهمات الدين ، حتى يجحد وينكر فإذا أنكر لم يحصل من إنكاره - عند أهل المنطق - إلا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر ، بل فى دينه الذى يزعم أنه موقوف على هذا الإنكار .

نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم ، وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم أنها تورث اليقين ، لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ، ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل .

وربما ينظر فى المنطق أيضاً ، من يستحسنه ، ويراه واضحاً فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفریات مؤيدة بثبوت تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية .

فهذه الآفة أيضاً متطرفة إليه .

٣ - وأما علم الطبيعيات فهو بحث عن عالم السموات ، وكواكبها ، وما تحتهما من الأجسام المفردة : كالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ، ومن الأجسام المركبة : كالحيوان ، والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها ، واستحالتها ، وامتزاجها ، وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الإنسان ،

وأعضائه الرئيسية والخدمة ، وأسباب استحالة مزاجه ، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم ، إلا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب : « تهافت الفلاسفة » وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها . وأصل جهلتها : أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله ، تعالى ، لاتعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والطبائع مسخرات بأمره ، لافعل لشيء منها بذاته عن ذاته . ٤ - وأما الإلهيات : ففيها أكثر أغاليطهم ، فاقدرُوا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثير الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب « أرسطاطاليس » فيها من مذاهب الإسلاميين ، على ما نقله الفارابي ^(١)

(١) « الفارابي » : (٢٦٠ - ٥٣٣٩ هـ) ولد في (فاراب) . وهو إقليدس فارسي في تخوم بلاد (الترك) رحل إلى (بغداد) ثم استقر به المقام في كنف (سيف الدولة) يعيش عيشة الزهد ، موجه كل همه إلى الدراسة والتأمل . يقول (ابن خلكان) : « وكان مدة مقامه بـ (دمشق) لا يكون - غالباً - إلا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه . »

وكان (الفارابي) يحسن (الموسيقى) تلحيناً وتوقيفاً ، حتى ليحكي (ابن خلكان) : أن (الآلة الموسيقية) : (القانون) إنما هي من وضعه ، =

وابن سينا^(١).

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أملاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر .

ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « التهاافت »
أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك
في قولهم :

١ - إن الأجساد لا تحترق^(١) ، وإنما المثاب ، والمعاقب هي الأرواح

= وقد أطلق عليه المسلمون : (المعلم الثاني) ، كما أطلق على (أرسطو) :
(المعلم الأول) .

وتقدير المؤرخين له متفاوت ، فمنهم من يقدمه على (ابن سينا) ومنهم من يقدم
(ابن سينا) عليه .

(١) (ابن سينا) : (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) كان فيلسوفاً عظيماً من فلاسفة
الإسلام كما كان له في الطب قدم راسخة وفهم دقيق وقد ألف فيه كتاب :
(القانون) الذي كان يدرس في معاهد (أوروبا) عدة قرون .

أما كتبه الفلسفية فكثيرة ومتداولة ومن أشهرها كتاب : (الإشارات) .
وكتاب (الشفاء) وكتاب (النجاة) .

(٢) لعل من الانصاف ، الذي يدعو إليه دائماً الإمام الغزالي ، أن نذكر
رأى ابن رشد في المسائل الثلاث التي كفر بها الإمام الغزالي الفلاسفة .

نذكر رأى ابن رشد ، مختصراً عن كتابي : (فصل المقال) و : (الكشف
عن مناهج الأدلة) .

=

== يقول ابن رشد :

والمعاد : مما اتفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده ، ولم تختلف في الحقيقة في وجوده ؛ وإنما اختلفت في الشهادات التي مثلت بها للجمهور تلك الحال الغائبة : وذلك أن من الشرائع من جعله روحانياً ؛ أعني للنفوس . ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً ، والاتفاق في هذه المسألة مبني على اتفاق الوحي في ذلك . واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع في ذلك . أعني : أنه قد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين : أخراوية وديناوية وانبنى ذلك عند الجميع على أصول يعترف بها عند الكل .

ثم أخذ ابن رشد في بيان هذه الأصول ، من العقل والنقل ، ثم قال : فالشرائع كلها . كما قلنا : متفقة على أن للنفس من بعد الموت أحوالاً : من السعادة . أو الشقاء . ولكنها مختلفة في تمثيل هذه الأحوال . وتفهم وجودها للناس . ويشبه أن يكون التمثيل الذي في شريعتنا هذه أتم لفهاماً لا أكثر الناس ؛ وأكثر تحريكاً لنفوسهم إلى ما هنا لك . ولا أكثر من هم المقصود الأول بالشرائع .

وأما التمثيل الروحاني فيشبه أن يسكون أقل تحريكاً لنفوس الجمهور إلى ما هنا لك . والجمهور : أقل رغبة فيه ، وخوفاً له ، منهم في التمثيل الجسماني . ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني : أشد تحريكاً إلى ما هنا لك من الروحاني . والروحاني أشد قبولاً عند المتكلمين المجادلين من الناس ، وهم الأقل .

ولهذا المعنى . نجد أهل الإسلام — في فهم التمثيل الذي جاء في ملتنا في أحوال المعاد — ثلاث فرق :

فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذي ههنا من النعيم واللذة . أعني أنهم رأوا أنه واحد بالجنس . وأنه إنما يختلف الوجودان بالدوام والانقطاع . أعني أن ذلك دائم وهذا منقطع .

.

= وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين : طائفة رأت أن الموجود الممثل بهذه المحسات : هو روحاني ، وأنه إنما مثل به إرادة البيان . ولهذا حجج كثيرة من الشريعة مشهورة ، فلا معنى لتعديدها .

وطائفة رأت أنه جسماني ، لكن اعتقد أن تلك الجسمانية - الموجودة هناك - مخالفة لهذه الجسمانية لكون هذه بالية وتلك باقية . ولهذا أيضاً حجج من الشرع .

ويشبه أن ابن عباس يكون ممن يرى هذا الرأي لأنه روى عنه أنه قال : ليس في الدنيا من الآخرة إلا أسماء .

ويشبه أن يكون هذا الرأي هو أليق بالخواص .

وذلك أن إمكان هذا الرأي : يبنى على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع . أحدها : أن النفس باقية .

والثاني : أنه يلحق عن عودة النفس إلى أجسام آخر المحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها .

وذلك : أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ، ومتقلة من جسم إلى جسم ، أعني : أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة ، في أوقات مختلفة ، وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ، لأن مادتها هي واحدة .

مثال ذلك أن إنساناً مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاعتدى لإنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه منى حين تولد منه إنسان آخر .

وأما إذا فرضت أجسام آخر ، فليس تلحق هذه الحال .

والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها وهو ما أدى إليه نظره فيها ، =

المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشرعية فيما نطقوا به .

٢ - ومن ذلك قولهم : إن الله تعالى يعلم الكلديات دون الجزئيات^(١)

وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يغزُبُ عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض »

= بعد أن يكون نظراً لا يفضى إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة ، فإن هذا النحو من الاعتقاد ، يوجب تكفير صاحبه لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس ، بالشرائع ، والعقول . .

(١) يذكر ابن رشد عن الإمام الغزالي قوله : إن الفلاسفة : يرون : أنه . سبحانه ، لا يعلم الجزئيات ثم يقول : « وليس الأمر كما توهم عليهم ، بل يرون : (الفلاسفة) : أنه لا يعلم الجزئيات بالعلم المحدث الذي من شرطه الحدوث بحدوثها إذا كان (علم الله) علة لها ، لا معلول عنها ، كالحال في العلم المحدث .

وهذا هو غاية التنزيه الذي يجب أن يعترف به ، فإنه قد اضطر البرهان إلى أنه : عالم بالاشياء ، لأن صدورها عنه إنما هو من جهة أنه عالم ، لا من جهة أنه موجود فقط ، أو موجود بصفة كذا ، بل من جهة أنه عالم ، كما قال تعالى : « ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير » . وقد اضطر البرهان إلى أنه غير عالم بها بعلم هو على صفة العلم المحدث ، فواجب أن يكون هناك للوجودات علم آخر ، لا يكيف ، وهو علم القديم سبحانه . وكيف يمكن أن يتصور أن المشائين من الحكماء ، يرون أن العلم القديم لا يحيط بالجزئيات وهم يرون أنه سبب الإنذرات في المنامات ، والوحى ، وغير ذلك أنواع الإلهامات ،

٣- ومن ذلك قولهم بقدوم العالم وأزليته^(١) فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

(١) يقول ابن رشد : وأما مسألة قدم العالم ، أو حدوثه ، فإن الاختلاف فيها — عندى — بين المتكلمين من الأشعرية ، وبين الحكماء المتقدمين : يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية ، وبخاصة عند بعض القدماء . وذلك أنهم اتفقوا على أن هنا ثلاثة أصناف من الموجودات : طرفان ، وواسطة بين الطرفين فاتفقوا فى تسمية الطرفين ، واختلفوا فى الواسطة .

فأما الطرف الواحد ، فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء : أعنى عن سبب فاعل ، ومن مادة ، والزمان متقدم عليه — أعنى على وجوده — وهذه هى حال الأجسام التى يدرك تكوينها بالحوس ، مثل تكون : الماء ، والهواء ، والأرض ، والحيوان ، والنبات ، وغير ذلك . فهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء ، والأشعرية ، على تسميتها محدثة .

وأما الطرف المقابل لهذا : فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا عن شيء ، ولا تقدمه زمان . وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً . وهذا الموجود مدرك بالبرهان ، وهو الله تبارك وتعالى ، الذى هو فاعل الكل ، وموجده ، والحافظ له ، سبحانه وتعالى قدره .

وأما الصنف من الموجود ، الذى بين هذين الطرفين ، فهو موجود لم يكن من شيء ، ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شيء — أعنى عن فاعل — وهذا هو العالم بأسره . والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فإن المتكلمين يسلون أن الزمان غير متقدم عليه ، أو يلزمهم ذلك ؛ إذ الزمان عندهم شيء . مقارن للحركات والأجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الزمان الماضى ، والوجود الماضى :

=

== فالمتكالبون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب (أفلاطون) وشيعته .

و (أرسطو) وفرقته يرون أنه : غير متناه ، كالحال في المستقبل . فهذا الوجود الآخر ، الأمر فيه بين أنه قد أخذ شياً من الوجود الكائن المحدث ، ومن الوجود القديم . فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم ، على ما فيه من شبه المحدث ، سماء قديماً ، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث ، سماء محدثاً . وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ، ولا قديماً حقيقياً ؛ فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة ، والقديم الحقيقي ليس له علة .

ومنهم من سماء محدثاً أزلياً ، وهو (أفلاطون) وشيعته ، ليكون الزمان متناهما عندهم من الماضي . فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر ؛ فإن الآراء التي شأنها هذا ، يجب أن تكون في الغاية من التباعد . أعني أن تكون متقابلة ، كما ظن المتكالبون في هذه المسألة ، أعني أن اسم القدم والحدوث في العالم بأسره هو من المتقابلة ، وقد تبين من قولنا : إن الأمر ليس كذلك .

وهذا كله ، مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع ، فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة ، في الإنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة ، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين — أعني غير منقطع — وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) يقتضى بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود — وهو العرش والماء — وزماناً قبل هذا الزمان : أعني المقترن بصورة هذا الوجود ، الذي ==

وأما ما وراء ذلك : من نفهم الصفات ، وقولهم : إنه عليم بالذات لا يعلم زائد على الذات ، وما يجري مجراه ، فذهبههم فيها : قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

وقد ذكرنا في كتاب : « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ما يتبين فيه فساد رأى من يسارع إلى التفكير في كل ما يخالف مذهبه .

= هو عدد حركات الفلك ، وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) يقتضى بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود ، وقوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) يقتضى بظاهره أن السماوات والأرض خلقت من شئ .

والمتكلمون : ليسوا في قولهم أيضاً في العالم ، على ظاهر الشرع ، بل متأولون ، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا في نص أبداً ، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات : أن الإجماع انعقد عليه ؟ والظاهر الذى قلناه عن الشرع في وجود العالم ، قد قال به فرقة من الحكماء ، ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين . وإما مخطين معذروين : فإن التصديق بالشئ قبل الدليل القائم في النفس ، هو شئ اضطرارى ، لا اختياري ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق ، أو لا نصدق كما لنا أن نقوم ، أو لا نقوم ، وإذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له ، إذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر) .

وأى حاكم أعظم من الذى يحكم على الوجود بأنه كذا ، أو ليس بكذا ؟ وهؤلاء الحكماء هم العلماء ، خصهم الله بالتأويل .

٥ - وأما السياسات : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكيم المصلحية ، المتعلقة بالأمور الدنيوية ، والإيالة السلطانية . وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ، ومن الحكم الماثورة عن سلف الأنبياء .

٦ - وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها ، وأنواعها ، وكيفية معالجتها ، ومجاهدتها .

وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتأهلون ، المتأبرون على ذكر الله ، تعالى ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق إلى الله ، تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم .

ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألمين ، لا ينجلى الله ، سبحانه العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الأرض ، ببركاتهم تنزل الرحمة إلى أهل الأرض ، كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام : بهم تُنظرون ، وبهم تُرزقون ، ومنهم كان أصحاب الكهف .

وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن .

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية ، بكتبهم آفتان :

١ — آفة في حق القابل .

٢ — آفة في حق الراد .

٣ — أما الآفة التي في حق الراد فمظيمة ، إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدوناً في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ينبغي أن يهجر ولا يذكر ، بل ينسكركر على كل من يذكره ، إذ لم يسمعه أولاً إلا منهم ، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل ، لأن قائله مبطل ، كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » فينكره ويقول : « هذا كلام النصراني ، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني : كافر ، باعتبار هذا القول ، أو باعتبار إنكاره نبوة — محمد عليه السلام — فإن لم يكن كافراً إلا باعتبار إنكاره ، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر ، مما هو حق نفسه ، وإن كان أيضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول : يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

والعاقل يقتدى بقول أمير المؤمنين « على بن أبي طالب » رضي الله عنه ، حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق ، تعرف أهله . »

والعاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول ، فإن كان حقاً قبله ، سواء كان قائله مبطلاً ، أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزع الحق من أوتائل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب : الرغام^(١) . ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلب ، وانتزع الإبريز الخالص ، من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقاً ببصيرته . وإنما يزجر عن معاملة القلب القروى ، دون الصير في البصير ، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق . ويصد عن مس الحية الصبي ، دون المعزم البارع .

ولعمري ، لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحذافة والبراعة ، وكال العقول ، في تمييز الحق عن الباطل ، والهدى عن الضلالة ، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ؛ إذ لا يسمون من الآفة الثانية التي سندكرها ، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المثبوتة في تصانيفنا ، في أسرار علوم الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرأثرهم ، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم .

(١) الرغام : التراب .

وزعمت : أن تلك الكلمات من كلام « الأوائل »^(١) ، ، مع أن بعضها من مُولّدات الخواطر ، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .
وبعضها يوجد في الكتب الشرعية .

وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية .

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه ، مؤيدا بالبرهان ؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغي أن يهجر ، أو ينكر ؟

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء ، والصوفية : لأن صاحب كتاب « إخوان الصفا » أوردها في كتابه ، مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحقى بواسطتها إلى باطله . ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بإيداعهم إياهم في كتبهم .

وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامى الغمر^(٢) ، فلا يعاف .

(١) يقصد به (الأوائل) : الفلاسفة القدماء .

(٢) رجل غمر : لم يجرب الأمور .

العسل وإن وجدته في محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل ، فإن نفرة الطبع منه ، مبنية على جهل عامي ، منشؤه أن للمحجمة إغما صنعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ، فإذا عذمت هذه الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه ، لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار .

وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . فيها نسبت الكلام ، وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه ، وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ؛ ردّوه ، وإن كان حقا . فأبدأ يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية

الضلال ۱۱۱

هذه آفة الرد .

٢ — آفة القبول : فإن من نظر في كتبهم : كإخوان الصفا ، وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم ، من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسناها ، وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها : فيسارع إلى قبول باطلهم المزوج به ، لحسن ظن حصل فيما رآه ، واستحسنه . وذلك نوع استدراج إلى الباطل .

ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم ، لما فيها من
القدر ، والخطر .

وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزلق الشطوط ، يجب
صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب .

وكما يجب صون الصبيان على مس الحيات ، يجب صون الأسماع
عن مختلط تلك الكلمات .

وكما يجب على المعزم ألا يمس الحية بين يدي ولده الطفل ، إذا
علم أنه سيقتردى به ، ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره : بأن
يحذر هو نفسه ، ولا يمسه بين يديه ، فكذلك يجب على العالم
الراسخ مثله .

وكما أن المعزم الحاذق إذا أخذ الحية ، وميز بين الترياق والسم ،
فاستخرج منه الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشع بالترياق على
المحتاج إليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير : إذا أدخل يده فى كيس
القلاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، وأطرح الزيف والبهرج ،
فليس له أن يشع بالجيد المرضى على من يحتاج إليه : كذلك العالم .

وكما أن المحتاج إلى الترياق ، إذا شمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه
مستخرج من الحية ، التى هى مركز السم : وجب تعريفه .

والفقير المضطر إلى المال ، إذا نفر عن قبول الذهب المستخرج

من كيس القلاب : وجب تنبيهه على أن نُفَرَّتَه : جهل محض ، هو
سبب حرمانه من الفائدة التي هي مطلبه ، وتَحْتَمُّ تعريفه أن قرب
الجوار بين الزيف والجيد : لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الحق
باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً .

فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائتها .

٣ - مذهب التعليم وغائلته

ثم إنى لما فرغت من علم الفلسفة ، وتحصيله ، وتفهمه ، وتزيف
ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض ، وأن
العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن
جميع المعضلات .

وكانت قد نبغت نابذة التعليمية ، وشاع بين الخلق ، تجدهم
بمعرفة معنى الأمور ، من جهة الإمام المعصوم ، القائم بالحق ، عنّلى :
أن أبحث عن مقالاتهم : لأطلع على ما فى كتبهم .

ثم اتفق : أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف
كتاب ، يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته ، وصار
ذلك مستحاً من خارج ، ضمية للبائع الأسمى من الباطن .

فابتدأت بطلب كتبهم ، وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغنى بعض
كلماتهم المستحدثة ، التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج
المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً بحكماً ،
مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل
الحق مبالغى فى تقرير حجّتهم ، وقال : « هذا سعى لهم ، إنهم كانوا

يمعزون عن نصره مذهبهم لثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقك لها ،
وترتيبك إياها . وهذا الإنكار من وجهة : حق ؛ فلقد أنكر أحمد
ابن حنبل على الحارث المحاسبي^(١) ، رحمهما الله ، تصنيفه في الرد على
المعتزلة ، فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا ، ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن

(١) يقول عنه القشيري : (عديم النظر في زمانة : علما ، وورعا ومعاملة
وحالا ؛ بصرى الأصل . مات بدو بغداد ، سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال
(أبو عبد الله بن خنيف) : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقيون سلخوا لهم حالهم :
(الحارث بن أسد المحاسبي) و (الجنيد بن محمد) و (أبو محمد رويم)
و (أبو العباس بن عطاء) و (عمر بن عثمان المكي) ، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق
وبما يروى عنه : قوله (من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص ، زين الله
ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة) .

وقد ألف كتباً كثيرة ؛ يوجد بعضها مخطوطها في (دار الكتب المصرية)
وفي (مكتبة الجامعة) .

وأنفس ما نعرف من كتبه : (كتاب الرعاية لحقوق الله) وقد طبعته الآنسة
(مرجريت سميث) وطبعنا ، في القاهرة طبعة متقنة . وقد طبع له كتاب (التوهم)
بالقاهرة .

يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟ .

وما ذكره أحمد : حق ، ولكن في شبهه لم تنتشر ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية ؛ نعم .. ينبغي ألا يتكلف لهم شبهة ، ولم أتكلف أنا ذلك ، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إلى ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم ، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين ، في الرد عليهم ، فإنهم لم يفهموا بعد حجبتهم . وذكر تلك الحجة ، وحكاها عنهم ، فلم أرض لنفسى أن يظن بي الغفلة عن أصل حجبتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بي أئى ، وإن سمعتها فلم أفهمها ، فلذلك قررتها .

والمقصود أئى قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم .

ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل ، لما انتهت البدعة - مع ضعفها -

إلى هذه الدرجة .

ولكن شدة التعصب ، دعت الدايين عن الحق إلى تطويل النزاع

معيهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به . فجادوهم

بقى دعواهم « الحاجة إلى التعليم ، والمعلم » ودعواهم أنه : « لا يصلح كل معلم ، بل لابد من معلم معصوم » . وظهرت حجبتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم ، والمعلم . وضعف قول المنكرين في مقابلته : فاعتز بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق ، وجهله بطريقة ، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم ، وأنه لابد وأن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو : محمد ، عليه الصلاة والسلام .

فإذا قالوا : « هو ميت » .

فنقول : « فعلمكم غائب » ،

فإذا قالوا : معلمنا علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر صراجعتهم إن اختلفوا ، أو أشكل عليهم مُشكل » .

فنقول : « ومعلمنا قد علم الدعاة ، وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ؛ إذ قال الله تعالى . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » وبعد كمال التعليم ، لا يضر موت المعلم ، كما لا تضر غيبته .

فبقى قولهم : « كيف تحكمون فيما لم تسمعه » ؟ أبالنص ، ولم تسمعه ؟ أم بالاجتهاد والرأى ، وهو مظنة الخلاف ؟

فنقول : نفعل ما فعله مُعَاذ ؛ إذ بعثه رسول الله ، عليه الصلاة

والسلام ، إلى اليمين^(١) . أن نحكم بالنص ، عند وجود النص ، وبالاجتهد ، عند عدمه ؛ بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى البلاد ، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص ؛ فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام ، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتى قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع .

فمن أشكلت عليه القبلة ، ليس له طريق إلا أن يصلى بالاجتهاد ، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، لفات وقت الصلاة ، فإذن جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد ، وللمصيب أجران » فكذلك فى جميع المجتهدين .

(١) حينما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث (معاذاً) قاضياً
ب(اليمين) ، قال له

بم تقضى يا (معاذ) ؟

فقال : بما فى كتاب الله

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بما فى سنة رسول الله

قال : فإن لم تجد ؟

قال : اجتهد رأى

فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يحب رسول الله .

وكذلك أمر صرف الزكاة إلى الفقير ، وربما يظنه فقيراً باجتهاده ، وهو غنى باطنياً ، بإخفاء ماله ، ولا يكون مؤاخذاً به وإن أخطأ ؛ لأنه لم يؤخذ إلا بموجب ظنه .

فإن قال : « ظن مخالفه كظنه » .

فنقول : « هو مأثور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة ، يتبع ظن نفسه ، وإن خالفه غيره » .

وإن قال : فالمقلد يتبع أبا حنيفة ، والشافعي - رحمهما الله - أم غيرهما ؟ .

فأقول : « فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، إذ اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ »

فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الأفضل الأعم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ، فكذلك في المذاهب » .

فردّ الخلق إلى الاجتهاد - ضرورة - الأنبياء والأئمة مع العلم أنهم قد يخطئون ، بل قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أنا أحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » . أي ، أنا أحكم بنائب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه ، ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات فكيف نظم في ذلك ؟

ولهم ها هنا سؤالان .

أحدهما : قولهم : هذا وإن صح في المجتهّدات ، فلا يصح في قواعد
العقائد ، إذ المخطئ غير معذور ، فكيف السبيل إليه ؟

فأقول : قواعد العقائد ، يشتمل عليها الكتاب والسنة ، وما وراء
ذلك من التّفصيل ، والمتنازع فيه يُعرّف الحق فيه بالوزن بالقسطاس
المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، وهي خمسة ،
ذكرتها في كتاب « القسطاس المستقيم » .

فإن قال : خصومك يخالفون في ذلك الميزان :

فأقول : لا يتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه أهل التعليم ،
لأنني استخرجته من القرآن وتعلّمته منه .

ولا يخالف فيه أهل المنطق : لأنه موافق لما شرطوه في المنطق ،
غير مخالف له .

ولا يخالف فيه المتكلم : لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات ،
وبه يعرف الحق في الكلاميات .

فإن قال : فإن كان في يدك مثل هذا الميزان ، فلم لا ترفع الخلاف
بين الخلق ؟

فأقول : لو أصغوا إلي ، لرفعت الخلاف بينهم .

وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب «القسطاس المستقيم»
فتأمله ، لتعلم أنه : حق ، وأنه يرفع الخلاف قطعا لو أصنوا ، ولا يصفون
بأجمعهم !!

بل قد أصفى إلى طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم ، وإمامك يريد رفع
الخلاف بينهم مع عدم إصغائهم ، فلم يرفع إلى الآن ؟

ولم لم يرفع «على» ، رضى الله عنه ، وهو برأس الأئمة ؟ . أو يدعى
أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلم لم يحملهم إلى الآن ؟

ولأى يوم أجله ؟ وهل حصل بين الخلق ، بسبب دعوته إلا زيادة
خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر
لا ينتهى إلى سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وأيتام الأولاد ، وقطع
الطرق ، والإغارة على الأموال ، وقد حدث فى العالم من بركات
رفعكم الخلاف ما لم يكن بمثله عهد .

فإن قال : ادعيت : أنك ترفع الخلاف بين الخلق ، ولكن المتحير
بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء إليك
دون خصمك وأكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم ؟
وهذا هو سؤالهم الثانى :

فأقول : هذا أولا : ينقلب عليك ، فإنك إذا دعوت هذا المتحير

إلى نفسك فيقول التحير : ثم صرت أولى من مخالفتك ، وأكثرا أهل العلم يخالفونك ؟ ظليت شرى ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامي متصوص عليه ، فمن صدقت في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وإنما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك .

ثم هب أنه سلم لك النص ، فإن كان متحيراً في أصل النبوة ، فقال : هب أن إمامك يدلي بمعجزة عيسى فيقول : الدليل على صدقي ، أني أحيا أباك فأحياء ، فناطقني بأنه محق . فبماذا أعلم صدقه ؟ ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة ، بل عليه من الأسئلة المشكلة ما لا يدفع إلا بدقيق النظر العقلي ، والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . وسؤال الإضلال وعسر تحرير الجواب عنه مشهور . فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكون إمامك أولى بالمتابعة من مخالفه ؟ فيرجع إلى الأدلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بتلك الأدلة ، وأوضح منها ، وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، ولو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً ، لم يقدرُوا عليه .

وإنما نشأ الفساد من جماعة من الضممة ، ناظروهم ، فلم يشتغلوا

بالقلب بل بالجواب ، وذلك مما يطول فيه الكلام ، ولا يسبق سريعا
إلى الأفهام ، فلا يصلح للإفحام .

فإن قال قائل : فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟

فأقول : نعم ! جوابه : أن المتحير لو قال : أنا متحير ، ولم يعين
المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : أنت كريض يقول : أنا مريض :
ولا يذكر عين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له : ليس في الوجود
علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع ، أو إسهال ، أو
غيرهما ، فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه . فإن عين
المسألة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التي لا يفهمها أحد إلا
ويعترف بأنه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به ، يفهم الميزان ،
ويفهم أيضا صحة الوزن ، كما يفهم متعلم الحساب نفس الحساب ، وكون
المحاسب المعلم عالما بالحساب ، وضادقا فيه .

وقد أوضحت ذلك في كتاب : القسطاس المستقيم ، في مقدار
عشرين ورقة ، فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك
في كتاب : « المستظهير » أولا .

وفي كتاب « حجة البيان » ثانيا ، وهو جواب كلام لهم عرض
على « ببغداد » .

وفي كتاب : « مفصل الخلاف » الذي هو إثنا عشر فصلا ، ثالثا
وهو جواب كلام عرض على بهمدان .

وفي كتاب « الدرج » المرقوم « بالجداول » رابعا ، وهو من
ركيك كلامهم الذي عرض على « بطوس » .

وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامسا ، وهو كتاب مستقل
بنفسه ، مقصوده : بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام
المعصوم ، لمن أحاط به .

بل المقصود : أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من
ظلمات الآراء ، بل هم من عجزهم عن إقامة البرهان على تعين الإمام ،
طلما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى العلم المعصوم ،
وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم ،
وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ! فلما عجزوا
أحالوا عن الإمام الغائب ، وقالوا : إنه لا بد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم ، وفي التبجح بالظفر به ،
ولم يتعلموا منه شيئا أصلا ، كالتضخم بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء
حتى إذا وجدده لم يستعمله ، ووجد متضمخا بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئا من هلمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئا من

ركيك فلسفة « فيثاغورس » وهو رجل من قدماء الأوائل ، ومذهبه
أرك مذاهب « الفلاسفة » ، وقد رد عليه « أرسطاطاليس » بل استرك
كلامه ، واسترذله ، وهو المحكى فى كتاب « إخوان الصفا » وهو
على التحقيق حشو الفلسفة .

فالعجب ممن يتعب طول العمر ، فى طلب العلم ، ثم يقنع بمثل ذلك .
العلم الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم !
فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهريهم ، وباطنيهم ، فرجع
حاصلهم إلى استدراج العوام ، وضعفاء العقول : بيان الحاجة إلى المعلم ،
ومجادتهم فى إنكارهم الحاجة إلى التعليم ، بكلام قوى ، مفهم ، حتى
إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد وقال : هات علمه ، وأفدنا من
تعليمه ، وقف : وقال : الآن إذا سامت لى هذا فاطلبه ، فإنما غرضى
هذا القدر فقط ، إذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ، ولمجز عن حل
أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلا عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم ، فأخبرهم تقلهم^(١) فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم .

(١) تبغضهم .

٤ — طرق الصوفية

ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس، والتزهد عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم، من مطالعة كتبهم، مثل: «قوت القلوب» «لأبى طالب المكي» رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبى «والمفرقات المأثورة عن «الجنيد»^(١)

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج. فلذلك يقال له: القواريرى. وكان فقيها على مذهب أبى ثور وكان يفتى فى حلقته بمحضرة وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧.

قال (الروذبارى): سمعت (الجنيد) يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة. والذي يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى: أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال فى دونها.

وقال (الجنيد): الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من افتنى أثر الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

و «الشبلي»^(١)، و «أبي يزيد البسطامي»^(٢)، قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم؛ حتى اطلعت على كنه مقاصد علمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع، فظهر لي أن

== وقال: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة وعلنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن الرسالة القشيرية).

(١) بغدادى المولد والمنشأ وأصله من (أسروشنه). صاحب (الجنيد) ومن في عصره وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً مالكي المذهب عاش سبعا وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة وقبره بـ (بغداد).

وكان (الشبلي) إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمة ربى فأنا أول من يعظمه.

(٢) كان من كبار الزهادين العابدين: قيل: إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين. وقيل أربع وثلاثين ومائتين.

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصافة تجاه القبلة فأنصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه.

ومن كلامه: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجددونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة (انظر الرسالة القشيرية).

أخص خواصهم : مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال
وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما
وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعان : وبين أن يعرف حد السكر ،
وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على
معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد
السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف
حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض ، يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها
وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين
أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلمت يقيناً : أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال . وأن
ما يمكن تحصيله بطريق العلم ، فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه
بالسمع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي
سلكتها في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية ، والعقلية - إيمان يقيني .

بالله تعالى وبالنبوة ، وباليوم الآخر :

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان : كانت قد رسخت في نفسى لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لاتدخل تحت الحصر تفصيلها .

وكان قد ظهر عندى : أنه لامطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله : قطع علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنهه المهمة على الله تعالى ، وأن ذلك : لا يتم بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى : فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدثت بى من الجوانب :

ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس : فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ؛ وانتشار الصيت . فتيقنت : أنى : على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال .

فلم أزل أفكر فيه مدة ؛ وأنا بعد على مقام الاختيار ، أصمم العزم

على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً. وأقدم فيه رجلاً وأوخر عنه أخرى لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفتريها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخيل . فإن لم تستعد الآن للآخرة ، متى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق متى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعت الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار !!

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ؛ فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنقيص ، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة^(١) . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار : إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً

(١) فى نسخة أخرى : ست وثمانين وأربعمائة .

تطبيياً للقلوب المختلفة إلى ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ،
ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان ، حزناً في
القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراة الطعام والشراب ، فكان
لا ينساع لي ثريد ، ولا تنضم لي لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى حتى
قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه
بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم :

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلىة اختياري التجأت الى
الله ، تعالى ، التجاء المضطر ، الذي لاحيلة له . فأجابني الذي يجيب
المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه ، والمال
والأولاد والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر في نفسى سفر الشام ،
حذراً أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمى في المقام بالشام ،
فتلطفت باطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها
أبداً ، واستهدفت الأئمة أهل العراق كافة ؛ إذ لم يسكن فيهم من يجوز
أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ؛ إذ ظنوا أن ذلك هو
المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق، أن ذلك كان، لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة، وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي، والانكباب على، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: هذا أمر سماوى، وليس له سبب، إلا عين أصابت أهل الإسلام، وزمرة العلم.

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال؛ ولم أذكر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح؛ لكونه وقفاً على المسلمين، فلم أرفى العالم مالا يأخذه العالم لعياله؛ أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين، لاشغل لى إلا العزلة؛ والخلوة والرياضة، والمجاهدة: اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب: لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسى:

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسى.

ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة،

والمدينة وزيارة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأبطال إلى الوطن ، فعادته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه .

فآثرت العزلة به أيضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة ، لكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ؛ وأعود إليها .

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين .

وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها .

والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقيناً أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى ، خاصة ، وأن سيرتهم : أحسن السير ، وطريقهم : أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من (١٢٠ - المند)

العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ،
لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظواهرهم
وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه
الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة : فإذا يقول القائلون في طريقة طهارتها — وهى أول
شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها — الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة — استغراق
القلب بالكلية بذكر الله .

وأخرها الفناء بالكلية فى الله !

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار
والكسب : من أوائلها ، وهى ، على التحقيق : أول الطريقة ، وما قبل
ذلك : كالدلهيز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم
فى يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم
أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق
عنها ، نطاق النطق ، فلا يحاول مبدئياً أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه .

على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .
وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب ، يكاد أن يتخيل منه طائفة
الحلول .

وطائفة الاتحاد ،

وطائفة الوصول ،

وكل ذلك خطأ .

وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب : « المقصد الأسنى » ، بل الذى
لا يسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد : على أن يقول :
وكان ما كان ، مما است أذكره

فظن خيراً ، ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيء بالدوق ، فليس يدرك من حقيقة
النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء — على التحقيق — هى بدايات
الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله — عليه الصلاة والسلام —
حيث تبتل ، حين أقبل إلى جبل « حراء » ، حين كان يخلو فيه بربه ،
ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » .

وهذه حالة يتحققها بالدوق من سلك سبيلها .

فمن لم يرزق الدوق : فيتيقنها بالتجربة والتسامع إن أكثر معهم

الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً ، ومن جالسهم ،
استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم ، لا يشقى جلسهم .
ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم إمكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ،
على ما ذكرناه في « كتاب عجائب القلب » من كتب إحياء علوم الدين .
والتحقيق بالبرهان علم ؛ وملازمة عين تلك الحالة ذوق .
والقبول من التسماع ، والتجربة ؛ بحسن الظن ؛ إيمان .
فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا
العلم درجات » .

ووراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك المتعجبون من
هذا الكلام يستمعون ، ويسخرون ، ويقولون : العجب ! إنهم كيف
يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك ؛ حتى إذا
خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك
الذين طبع الله على قلوبهم ؛ واتبعوا أهواءهم » ^(١) ... « فاصصمهم ؛ وأعمى
أبصارهم » ^(٢)

ومما بان لي ؛ بالضرورة من ممارسة طريقهم : حقيقة النبوة ،
وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة إليها .

(٢) محمد آية : ٢٣

(١) محمد آية : ١٦

حقيقة النبوة

واضطرار كافة الخلق إليها

اعلم أن جوهر الإنسان — في أصل الفطرة : خلق خالياً ، ساذجاً ،
لاخبر معه من عوالم الله تعالى ، العوالم كثيرة ، لا يحصيها إلا الله
تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك إلا هو »

وإنما خبره في العالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات :
خلق ليضطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ،
أجناس الموجودات ، فأول ما يخلق في الإنسان حاسة اللمس ، فيدرك
بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ،
واليبوسة ، واللين ، والخشونة وغيرها . واللمس قاصر عن الألوان
والأصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له حاسة البصر ، فيدرك بها الألوان ، والأشكال ، وهو
أوسع عوالم المحسّات .

ثم ينفخ فيه السمع ، فيسمع الأصوات ، والنفمات .

ثم يخلق له الذوق .

وكذلك ، إلى أن يجاوز عالم المحسات : فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده ، فيدرك فيه أموراً زائدة على المحسات لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى إلى طور آخر ، فيخلق له العقل : فيدرك الواجبات ، والجنائزات ، والمستحيلات ، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله .

ووارء العقل طور آخر ، تنفتح فيه عين أخرى ، يبصر بها الغيب ، وما سيكون في المستقبل ، وأموراً أخرى ، العقل معزول عنها ، كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز .

وكما أن المميز : لو عرضت عليه مدركات العقل لأبأها ، واستبعدوها ، فكذلك بعض العقلاء : أبوا مدركات النبوة ، واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ، ولم يوجد في حقه ، فيظن أنه غير موجود في نفسه . والأكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الألوان ، والأشكال ، وحكى له ذلك ابتداء ، لم يفهمها ، ولم يقر بها .

وقد قرَّب الله تعالى ، ذلك على خلقه : بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم ؛ إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ،

إما صريحاً، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه - وقيل له : من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول عنه إحساسه ، وسمعه ، وبصره ، فيدرك الغيب - لأنكره ، وأقام البرهان على استحالاته ، وقال : القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود ، والملاحظة . فكما أن العقل طور من أطوار الآدى يحصل فيه عين يبصر بها أنواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور ، يظهر في نورها الغيب ؛ وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة إما أن يقع :

في إمكانها ،

أو في وجودها ووقوعها .

أو في حصولها لشخص معين .

ودليل إمكانها وجودها .

ودليل وجودها : وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال

بالعقل : كعلم الطب ، والنجوم ^(١) ، فإن من بحث عنها ، علم - بالضرورة - أنها : لا تدرك إلا بإلهام إلهي ؛ وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة ، فمن الأحكام النجومية : ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ، وكذلك خواص الأدوية .

فتبين بهذا البرهان : أن في الإمكان : وجود طريق لإدراك هذه الأمور ، التي لا يدركها العقل ، وهو المراد بالنبوة ، لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل : إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرنا فقطرة من بحرها . إنما ذكرناها لأن معك أنموذجا منها : وهو مدركاتك في النوم ، ومعك علوم من جنسها ، في الطب ، والنجوم ، وهى : معجزات الأنبياء ، ولا سبيل إليها للعقل ببيضاء العقل أصلا .

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة : إنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق التصوف ، لأن هذا إنما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلا : فكيف تصدق بها ؟ وإنما التصديق بعد الفهم .

وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ، فيحصل به

(١) لعل الإمام رحمه الله يريد أن يقول الإنسان في ابتداء وجوده وخلقته ألهمه الله الاسس التي يبني عليها تجاربه في عالم الطب وملاحظاته في علم الفلك .

نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل
بالقياس إليه .

فهذه الخاصية الواحدة ، تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل
اليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر والتسامع . فإنك
إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء ،
بمشاهدة أحوالهم ؛ وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم .

ولا تمجز أيضاً عن معرفة كون « الشافعي » - رحمه الله - فقيهاً ،
وكون « جالينوس » طبيباً ؛ معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ؛ بل بأن
تتعلم شيئاً من الفقه والطب ؛ وتطالع كتبهما ، وتصانيفهما ؛ فيحصل
لك علم ضروري بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثر النظر في القرآن ،
والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ؛ صلى الله عليه وسلم ، على
أعلى درجات النبوة . وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها
في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله : « من عمل بما علم ؛ ورثه
الله علم ما لم يعلم » .

وكيف صدق في قوله : « من أمان ظالماً ، سخطه الله عليه » .

وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهمومه هم واحد (هو
التقوى ^(١)) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة ^(٢) » .

فإذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ؛ وآلاف ؛ حصل لك علم
ضرورى لا تمارى فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ؛ لامن قلب العصاة ثعبانا ؛
وشق القمر ؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرآن
الكثيرة الخارجة عن الحصر ، ربما ظننت أنه سحر ، وتخيل ؛ وأنه
من الله إضلال ، فإنه « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

وترد عليك أسئلة المعجزات : فإن كان مُسْتَنَدًا إيمانك إلى كلام
منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فَيَنْجَزُ إيمانك بكلام مرتب في وجه
الإشكال والشبهة عليها .

فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرآن في مجلة نظرك ،
حتى يحصل لك علم ضرورى ؛ لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ؛
كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر ، لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير وضعناها لبيان المعنى .

(٢) وفي سنن ابن ماجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ومن جعل
الهموم هما واحدا ، هم المعاد كفاه الله هم دنياه . ومن تشعبت به الهموم
في أحوال الدنيا لم يبال الله في أى أوديته هلك)

من قول واحد معين ؛ بل من حيث لا يدري ؛ ولا يخرج من جملة ذلك ، ولا بتميين الآحاد ، فهذا هو الإيمان القوى العلمى .
وأما اللوق فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية .

فهذا القدر من حقيقة النبوة كافٍ فى الغرض ، الذى أقصده الآن ، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سبب نشر العلم

بعد الإعراض عنه

ثم إنى واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين ، وبان
لى فى - أثناء ذلك على الضرورة ، من أسباب لأحصيها : مرة بالذوق ؛
ومرة بالعلم البرهانى ؛ ومرة بالقبول الإيمانى - . أن الإنسان خلق
من بدن وقلب ؛ وأعنى بالقلب حقيقة روحه ، التى هى محل معرفة الله ،
دون اللحم والدم الذى يشارك فيه الميت والبهيمة ، وأن البدن ، له صحة
بها سعادته ، ومرض فيه هلاكه ، وأن القلب كذلك ، له صحة وسلامة ،
ولا ينجو « إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم » وله مرض فيه هلاكه
الأبدى الأخرى ، كما قال تعالى « فى قلوبهم مَرَضٌ » وأن الجهل
بالله : سُمٌّ مُهلك ، وأن معصية الله ، بمتابعة الهوى : داؤه الممرض ،
وأن معرفة الله تعالى : تريافه المحيى ، وطاعته ، بمخالفة الهوى : دواؤه
الشافى ، وأنه لاسبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته إلا بأدوية :
كما لاسبيل إلى معالجة البدن ، إلا بذلك ، وكما أن أدوية البدن تؤثر
فى كسب الصحة ، بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل
يجب فيها تقليد الأطباء ، الذين أخذوها من الأنبياء ، الذين اطمأوا ،
بخاصية النبوة ، على خواص الأشياء ، فكذلك بان لى - على الضرورة -

أن أدوية العبادات - بمحدودها ، ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء - لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك الخواص ، بنور النبوة لا ببضاعة العقل .

وكما أن الأدوية : تركب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار ، وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر ، هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب : مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ، ولا يخلو عن سر من الأسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يُطْلَعُ عليها إلا بنور النبوة .

ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط - بطريق العقل - لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها يقتضيها بطريق الخاصية .

وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن : متمات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : الأنبياء : أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل

وتصرفه أن عَرَفْنَا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز
عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا ، وسلمنا إليها تسليم
العميان إلى القائدين وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين .
وإلى هاهنا مجرى العقل ، ونخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، إلا عن
تفهم ما يلقيه الطبيب إليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة
الخلوة والعزلة .

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ،

ثم في حقيقة النبوة ،

ثم في العمل بما شرحته النبوة .

وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق ،
وضمف إيمانهم ، فإذا هي أربعة :

١ — سبب من الخائضين في علم الفلسفة .

٢ — وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ — وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم .

٤ — وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فإني تتبعته ، مدة آحاد الخلق ، أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ؛ وأسأله عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له ؛ مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ، واست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبع الاثنين بواحد ، فكيف تبع ما لانهاية له بأيام معدودة ؟ وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر فدير نفسك في طلب الإيمان ؛ وانظر ما سبب كفرك الخفي ، الذي هو : مذهبك باطنًا ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وإن كنت لاتصرح به ، تجملًا بالإيمان ، وتشرفاً بذكر الشرع ! .

فقائل يقول : « هذا أمر ، لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ، وفلان من المشاهير ، بين الفضلاء ، لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار الساطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ، وهم جرا ، إلى أمثاله . . .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغاً ترقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقائل ثالث يتعامل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة :

وهؤلاء هم الذين صلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة المقول متعارضة » ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ، والداعى إلى التعليم متحكم لاحجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة : وأن حاصلها : يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع ، والاسترسال ، فى الشهوات ، فما أنا من العوام الجاهل ، حتى أدخل فى حجر التكليف ، وإنما أنا من الحكماء : أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغن فيها عن التقليد .

هذا : منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم ، وتعلم ذلك من كتب « ابن سينا » و « أبى نصر الفارابى » .

وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك : لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ، وإذا قيل له :

« إن كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلى ؟ » فربما يقول :
« لرياضة الجسد ، ولعمادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد وربما
تقال : « الشريعة صحيحة والنبوة حق » فقال :

فلم تشرب الخمر ؟ فيقول :

« إيمانى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وأنا بحكمتى
محترز عن ذلك ، وإنى أقصد به تشحيذ خاطرى » .

حتى أن « ابن سينا » فى وصية له كتب فيها أنه عاهد الله ، تعالى ،
على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوصاع الشرعية ولا يقصر فى العبادات
الدينية ، ولا يشرب تلهياً ، بل تداوياً وتشافياً ، فكان متمهئ حالته
فى صفاء الإيمان ، والتزام العبادات : أن استثنى شرب الخمر لفرض
التشافى .

فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم
ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذا عترضوا بمجاهدة علم الهندسة
والمنطق ، وغير ذلك ، مما هو ضرورى لهم ، على ما بينا علته من قبل .
فلما رأيت أصناف الخلق : من ضعف إيمانهم إلى هذا الحد ، بهذه
الأسباب ، ورأيت نفسى ملبة^(١) بكشف هذه الشبهة ، حتى كان فضح

(١) ألب بالمكان : أقام به ولزمه .

هؤلاء : أيسر عندي من شربة ماء ، لكثير خوضي في علومهم ،
وطرقهم ، أعنى طرق « الصوفية » و « الفلاسفة » و « التعليمية » ،
والمؤمنين من العلماء : اتقدح في نفسى أن ذلك : متعين ، في هذا
الوقت ، محتوم .

فما تفنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف
الخلق على الهلاك ؟

ثم قلت في نفسى : متى تشتغل أنت بكشف هذه النعمة ، ومصادمة
هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ؟ ولو اشتغلت
بدعوة الخلق ، عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ،
وأنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ؟ ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ،
وسلطان متدين قاهر ؟ .

فترخصت ، بينى وبين الله ، تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تعللاً
بالمعجز عن إظهار الحق بالحجة ، فقدر الله ، تعالى : أن حرك داعية
سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام
بالنحوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كاد
ينتهى — لو أصررت على الخلاف — إلى حد الوحشة .

نخطر لي : أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون .

باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس
وصونها عن أذى الخلق ولم تُرخص نفسك بعسر معافاة الخلق ؟ والله
تعالى يقول :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا:
آمَنَّا ، وهم لَا يُفْتَنُونَ ؟

ولقد فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَالْيَعْمَأْمَنِ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ﴾ .

ويقول عز وجل ، لرسوله وهو أعز خلقه :

ولقد كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ : فَصَبْرُوا ، على ما كَذَّبُوا ، وأَوْذُوا ،
حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ولقد جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ
الْمُرْسَلِينَ﴾ .

ويقول ، عز وجل :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : يس والقرآن الحكيم .. إنك لمن المرسلين .

على صراطٍ مُسْتَقِيمٍ .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ .

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .
إنا جعلنا في أغنا قِيمَ أَغْلَا فهِى إِلَى الْأَذْقَانِ فِهِم مُّقْمَحُونَ .
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَا فِهِم
لَا يُبْصِرُونَ .

وسواء عليهم مَا نَذَرْتَهُمْ ، أَمْ لَمْ تَنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .
إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ .

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب ، والمشاهدات ، فاتفقوا
على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية .

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة ، متوارة تشهد
بأن هذه الحركة : مبدأ خير ، ورشد ، قدرها الله ، سبحانه ، على رأس
هذه المائة^(١) . وقد وعد الله ، سبحانه ، بإحياء دينه ، على رأس كل مائة .

فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر
الله تعالى ، الحركة إلى « نيسابور » للقيام بهذا المهم ، في ذى القعدة ،
سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان الخروج من « بغداد » في ذى القعدة

(١) روى أبو داود ، والحاكم ، والبيهقي : (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة
على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) .

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ؛ وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة.

وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وبهى من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انتقذاح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من «بغداد» والنزوع عن تلك الأحوال ، مما خطر إمكانه أصلا بالبال ، والله تعالى ، مقلب القلوب والأحوال ، و « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

وأنا أعلم : أني ، وإن رجعت إلى نشر العلم ، فارجعت ! فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت في الزمان ، أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملی ، وكان ذلك قصدي ، ونيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي ، وأمنيتي : يعلم الله ذلك مني .

وأنا أبغى أن أصالح نفسي ، وغيري ؛ ولست أدري ، أأصل إلى مرادى ، أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنى لم أتمرك لكنه حركني ، وأنى لم أعمل ، لكنه استعملني ، فأسأله : أن يصلحني أولا ،

ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني
اتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن إلى ما ذكرناه ، من أسباب ضعف الإيمان ، فيمن
ذكر، بذكر طريق إرشادهم ، وإيقاظهم من مهالكهم .

أما الذين ادعوا الحيرة ؛ بما سمعوه من أهل التعليم ، فعلاجه :
ما ذكرناه في كتاب : القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره في
هذه الرسالة .

وأما ما توهمه أهل الإباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع ،
وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة ، حتى أنكر أصل النبوة ،
فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود علم
خواص الأدوية والنجوم ، وغيرها ، وإما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك :
وإما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ؛ لأنه من نفس
علمهم ، ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم : كالنجوم ، والطب ،
والطبيعة ، والسحر ، والطلسمات ، مثلاً من نفس علمه برهان النبوة .

وأما من أثبت النبوة بلسانه ، وسوى أوضاع الشرع على الحكمة ،
فهو ، على التحقيق : كافر بالنبوة ، وإما هو : مؤمن بحكيم ، له طالع
مخصوص يقتضى طالعاه أن يكون متبوعا .

وليس هذا من النبوة فى شيء .

بل الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تتفتح فيه
حين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع
عن إدراك الألوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وجميع الحواس
عن إدراك المعقولات .

فإن لم يجوز هذا ، فقد أثبتنا البرهان على إمكانه ، بل على وجوده .
وإن جوز هذا ، فقد أثبت أن هاهنا أموراً تسمى خواصا لا يدور
تصرف العقل حوالها أصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ، ويقضى باستحالتها
فإن وزن دائق^(١) من الأفيون : ضم قاتل ؛ لأنه يجمد الدم فى العروق ،
لفرط برودته . والذى يدعى علم الطبيعة ، يزعم أن ما يبرد من المركبات ،
إما يبرد بعنصرى الماء والتراب ، فهما العنصران الباردان ومعلوم أن
أرطالا من الماء والتراب ، لا يبلغ تبريدهم فى الباطن إلى هذا الحد :
فلو أخبر طبيعى بهذا ، ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على

(١) الدائق بفتح النون وكسرهما : سدس الدرهم .

استحالته أن فيه نارية، وهوائية، والهوائية والنارية لا تزيد بها برودة،
فنقدر الكل ماء وتراباً، فلا يوجد هذا الإفراط بالتبريد، فإن انضم
إليه حاران فبأن لا يوجب أولى». ويقدر هذا برهاناً!

وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات: مبنى على هذا
الجنس؛ فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه، ومالم
يألفوه قدروا استحالته.

ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة، وادعى مدع: أنه عند ركود
الحواس؛ يعلم الغيب، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول.

ولو قيل لواحد: «هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء هو بمقدار
حبة، يوضع في بلدة، ليأكل تلك البلدة بجملتها، ثم يأكل نفسه،
فلا يبقى شيئاً من البلدة وما فيها، ولا يبقى هو في نفسه؟» لقال:
هذا محال، وهو من جملة الخرافات، وهذه حالة النار: ينكرها من
لم ير النار، إذا سمعها.

وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل.

فنعقول للطبيعي: قد اضطرت إلى أن تقول: في الأفيون خاصية
في التبريد، ليس على قياس المعقول بالطبيعة، فلم لا يجوز أن يكون
في الأوضاع الشرعية من الخواص، في مداواة القلوب، وتصفيتها،

مالا يدرك بالحكمة العقلية ، بل لا يبصر ذلك إلا بعين النبوة ؟ بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا ، فيما أوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة ، المجرية في معالجة الحامل ، التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

يكتب على خزقتين ، لم يصبهما ماء ، وتنظر إليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال إلى الخروج ، وقد أقروا بإمكان ذلك : وأوردوه في كتاب (عجائب الخواص) ، وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد : خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل ، أو في عرضه أو على التآريب .

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هي : لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها : اختلاف هذه الأوقات .

وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة .

والعجب : أنا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الأوقات فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع : بأن تكون الشمس في وسط السماء ، أو في الطالع ، أو في الغارب ، حتى يَبْتَئُوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الأعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديقه سبيل ؟ إلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم ، جرب كذبه مائة مرة ، ولا يزال يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم له : إذا كانت الشمس في وسط السماء ؛ ونظر إليها الكوكب الفلاني ؛ والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! ، فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسى فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم ، وقد عرف كذبه مرات .

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص : معرفتها معجزة لبعض الأنبياء - كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق . مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد

الركعات ، ورمى الجمار وعدد أركان الحج ، وسأر تعبداً الشرع ؛
لم يحد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقاً أصلاً .

فإن قال : قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت
بعضه صادقاً ، فانقذ في نفسى تصديقه ، وسقط من قلبى استبعاده ،
ونفرت ، وهذا لم أجربه ، فبم أعلم وجوده وتحقيقه ؟
وإن أقررت بإمكانه فأقول :

إنك لا تقتصر على تصديق ما جربته ، بل سمعت أخبار المجربين
وقلدتهم ، فاسمع أقوال الأنبياء ، فقد جربوا ، وشاهدوا الحق في جميع
ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم ، تدرك بالمشاهد بعض ذلك .

على أنى أقول : « وإن لم تجرب به فيقضى عقلك بوجوب التصديق
والاتباع قطعاً فإننا لو فرضنا رجلاً بلغ ، وعقل ، ولم يجرب المرض ،
فرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب
منذ عقل ، فعجن له والد دواء ، فقال : « هذا يصلح لمرضك ، ويشفيك
من سقمك » . فماذا يقتضيه عقله ، وإن كان الدواء مرّاً كريه المذاق ؟
أيتناوله ؟ أو يكذب ويقول « أنا لأعقل مناسبة هذا الدواء ، لتحصيل
الشفاء ، ولم أجربه ؟ » فلا شك أنك : تستحمة إن فعل ذلك !

وكذلك يستحتملك أهل البصائر في توقفك !

فإن قلت : « فبم أعرف شفقة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومعرفة بهذا الطب ؟ » فأقول :

« وبم عرفت شفقة أبيك ، وليس ذلك أمراً محسناً ؟ بل عرفتها بقرائن أحواله ، وشواهد أعماله في مصادره ، وموارده علماً ضرورياً لا تمارى فيه . »

ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما ورد من الأخبار : في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق ، واللطف ، إلى تحسين الأخلاق ، وإصلاح ذات البين ؛ وبالجملة إلى ما لا يصلح إلا به دينهم ، ودنياهم ؛ حصل له على علم ضروري ، بأن شفقته على أمته : أعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال وإلى عجائب الغيب ، الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار ، وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره : علم - علماً ضرورياً - أنه بلغ الطور الذي وراء العقل وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب ، الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمر التي لا يدركها العقل .

فهذا هو : منها تحصيل العلم الضروري ، بتصديق النبي ، عليه الصلاة .

والسلام ، فـجـرّب ، وتأمّل ، القرآن وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر : يكفي في تنبيه المتفلسفة . ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان .

وأما السبب الرابع - وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء - فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

أحدها : أن تقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ، معرفته بتحريم ذلك الحرام - كعرفتك بتحريم الخمر ، ولحم الخنزير ، والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب ، والنميمة ، وأنت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم إيمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحذور المعين ، وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وإن زجره الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، أو على أن الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا يحمل هفوات العلماء .

الثاني أن يقال للعامي : « ينبغي أن تعتقد : أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ؛ ويظن أن علمه ينجيّه ؛ ويكون له شفيماً .

حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه ، وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن ، فهو ، وإن ترك العمل ؛ يدلى بالعلم . أما أنت أيها العاصي ، إفا نظرت إليه ، وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عمالك ، ولا شفيع لك ! .

الثالث ؛ وهو : الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة . ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً : إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية : سم مهلك ، وأن الآخرة : خير من الدنيا ، ومن عرف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس ؛ فلذلك لا يزيد ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى .

وأما العلم الحقيقي . فيزيد صاحبه خشية ، وخوفاً ، ورجاءاً ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي ، إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في العثرات ، وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، ، فالؤمن مفتن تواب . وهو بعيد عن الإصرار ، والإكباب .

هذاما أردت أن أذكره في ذم الفلسفة ، والتعليم ، وآفاتهما
وآفات من أنكر عليهما ، لا بطريقة .

ونسأل الله العظيم : أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى
الحق وهداه وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى
لا يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه .

القسم الثالث
أبحاث في التصوف

بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود

الفصل الأول

التصوف

لفظاً

وتمريفاً

وموضوعاً

ونشأه

ومصادره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين

- ١ -

حول كلمة : « تصوف »

١ - يروى عن أحد الصالحين: أنه كان يتمتع عن التحدث فيما يتعلق
بشخصه ، ولو أمكنه أن يلغى سيرته الشخصية من أذهان الناس ،
ولو أمكنه أن يلغى اسمه ، لفعل ، راضياً مغتبطاً ، ذلك أن التسمية
والجانب الشخصى الفردى فى الإنسان لا قيمة لهما ، إذا نظرنا إلى
الآفاق العليا من الروحانية .

ومما يتلاءم مع هذا الاتجاه ، قول بعض الصوفية ما معناه :

إن طائفة الصوفية : لو تنزهت عن الفردية والشخصية ، لنزههم
الله عن التسمية تنزيها مطلقاً ، ولكن لما شابته الفردية أعمال بعضهم
وُضِعَ لهم اسم واندرجوا تحت عنوان : الصوفية .

وسئل الشبلى رضى الله عنه : لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟ فقال :

هذا الإسم الذى أطلق عليهم اختلف فى أصله وفى مصدر اشتقاقه :

ولم ينته رأى فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء التي قيلت ، وأطرفها : ما ذكره البيروني : من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف لكلمة : «سوف» اليونانية ، التي تعني الحكمة . يقول البيروني :

إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعملة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه ، وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالتخيل غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط ، وهذا رأي السوفية ، وهم الحكماء ، فإن «سوف» باليونانية الحكمة ، وبها سمي «الفيلسوف» بيلاسويا أي محب الحكمة .

ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ؛ سمو باسمهم . ويرى البيروني أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك ، فقال : مفسراً ومعللاً : ولم يعرف اللقب بعضهم ، فنسبهم — ناتوكل إلى الصفة ، وأنهم أصحابها في عصر النبي ، صلى الله عليه وسلم . ثم صحف بعد ذلك فصير : من صوف التيوس ...

ورأى البيروني هذا ، على طرافته ، لا يستقيم لسبب بسيط ، وهو أن التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية ، إلى اللغة العربية .

فالبيروني يقول في صراحة :

« ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سمو باسمهم » .
ورأى البيروني . إذن : لا يستقيم ، إلا على أن هذا اللفظ : نشأ
في الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، وعرف معناها ، وتداولتها
الأسنة ، ولا كتبها الأفواه . وألفت معناها العقول ، أي حوالى
منتصف القرن الثالث الهجري ، على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت
قبل ذلك بكثير ، بل لقد عرفت في المهد الجاهلي ، على ما يرى صاحب
« اللمع » .

ولكن إذا كان رأى البيروني لا يستقيم ، فالإم توجه في اشتقاق
هذه الكلمة .

إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان ،
وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأياً ، رأياً ، وينقضها جميعاً .

١ - فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس
الصوف كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، فذلك وجه .

ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

٢ - ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم :

فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

٣ - ومن قال : إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة .

٤ - وقول من قال : إنه مشتق من الصف . فكأنهم في الصف الأول يخلو بهم من حيث المحاضرة من الله تعالى : المعنى صحيح .

ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف .

وإذا كان صاحب الرسالة القشيرية : ينتقد كل هذه الآراء ، فإنه إذن ، لا يرى الاشتقاق ، ويقول : هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال : رجل صوفي . وللجماعة صوفية ؛ ومن يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد للإسم - من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب :

لقد استعرضنا الآراء التي قيلت في هذا الموضوع قديماً ، فهل ياترى هناك من جديد ؟

٢ - ما رأى الباحثين الحديثين في أصل كلمة (تصوف) ،

يقول الشيخ عبد الواحد يحى :

أما أصل هذه الكلمة . « صوفى » : فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها أولى من بعض ، وكلها غير مقبولة :

إنها في الحقيقة تسمية رمزية ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ : أن القيمة العددية لحروف « صوفى » تماثل القيمة العددية لحروف : « الحكيم الإلهى » فيكون الصوفى الحقيقى إذن ، هو الرجل الذى وصل إلى الحكمة الإلهية . إنه : (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به .

وتلك هى الدرجة العظمى (السكينة) فيما يتعلق بعرفة الحقيقة .

وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحى ، فيما نعلم ، بهذا رأى ، وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه لا يمكن أيضاً أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، يستسيغه قوم دون برهان ، وينفر منه آخرون من غير حاجة .

وإذا تركنا الشيخ عبد الواحد لننظر إلى الباحثين فى هذه اللفظة فإننا نجدهم ينقسمون إلى فريقين لا ثالث لهما .

يجارى فريق منهم أبا الريحان البيرونى ، فى أنها مأخوذة عن أصل يونانى هو كلمة (سوفيا) اليونانية .

وقد قال بهذا رأى (فون هامر) من المستشرقين ،

واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين ،

وأيده فى حرارة محمد لطفى جمعه .

أما السبب الذى جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف ، فهو : أنهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف : يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية ، وينسبها إلى الظاهر والشكل ، وعلى حد تعبير محمد لطفى جمعه : (يجرّد هذه الفرقة المنتمية إلى الإسلام ، من صفة الحكمة والفضيلة) .

وقد بينا رأينا فى هذا الموضوع فيما مضى ونقول الآن : إن أصحاب هذا رأى يعطون قوة وتأيداً لمن يزعم أن التصوف الإسلامى وليد الفلسفة الأفلاطونية ، وهو رأى باطل .

ولقد هاجم الدكتور زكى مبارك هذا رأى ، فى قوة وفى منطق سليم . لقد كان العرب — حسبما يرى — مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية ، ولو كان (التصوف) من (سوفيا) لنصوا عليه فى كثير من المؤلفات .

ثم إن كلمة (سوفيا) اليونانية ، معناها الحكمة . وكانت (الفلسفة) عند اليونان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية ، وكان كثير من فلاسفتهم أطباء ، وقد ترجمتها العرب : فسموا الطب : « الحكمة » وكلمة « حكيم » لا تزال تؤدى معنى كلمة : « طبيب » والفلسفة نفسها سماها العرب « الحكمة » وقالوا : تاريخ الحكماء .

فهم عرفوا من سوفيا : « الفلسفة والطب » . أما الحكمة الروحانية ، فمن البعيد أن يكونوا المحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونان من عبدة الأوثان .

نم يقول الدكتور زكي مبارك : في ظرف ظريف ، وفي صورة من الجد هي تعبير ، أبلغ التعبير ، عن التهمك والسخرية : على أنه ما الذي يمنع أن تكون « سوفيا » بمعنى الحكمة الروحانية ، جاءت من كلمة : « صوف » ، وهي قديمة في العربية ؟

إن التصوف ، قديم جداً عند العرب ، وهو أساس المسيحية ، ولبس الصوف : كان علامة التقشف ، فليس من المستبعد أن ترحل كلمة : « صوف » إلى معابد اليونان .

ولم يبق بمذلك إلا أن يكون هذا الرأي ، على حد تعبير الدكتور زكي مبارك : « ليس إلا ضرباً من الإغراب » .

أما الفريق الثاني من الباحثين الحديثين — وهم أكثرية — فإنه يرى أن كلمة « تصوف » مأخوذة من « الصوف » .

(٣) إنني أرى — كما ترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين — أن لفظة « التصوف » تنسب إلى الصوف ، وكما أنه يقال : تقمص إذا لبس القميص — كذلك يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، ومن أبرز القائلين بهذا الرأي : المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والرحوم الدكتور زكي مبارك ، والمستشرق مرجليوث . وإذا كانت هذه الكلمة تنسب إلى اللبس — وهو مظهر

وشكل ورسم — فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر وأشكال .
وليس من المحتم دائماً أن يكون المعنى الأصلي للإسم : هو المراد
مما وضع الاسم له ، إذ المعنى الأصلي : قد يتطور ويتغير ويختلف ،
وقد يقصد عكسه ، ومن أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين
لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف بحجة أن انتسابه إلى
المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة أن الباحثين ، كثيراً ما يجدون صلة وثيقة بين المعنى الأصلي
للإسم وما وضع الإسم له ، أو بين الإسم والمسمى ، ولكن ذلك
ليس مطرداً .

والواقع ، أن التصوف ، معنى معروف لا شأن له بالمظاهر
والأشكال .

وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته
فإنهم لا يتخذون التسمية تسكأة لهذه الممارسة ، ولو فرضنا أنهم
اتخذوها تسكأة لخرجوا عن سميت الباحثين ، ولأصبحوا سخرية
للساخرين .

على أنني أرى — كما يرى كثير غيري ، وكما يشهد التاريخ — :
أن هذه الكلمة : « تصوف » : لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه .

العادي الذي نفهمه الآن ، وإنما وضعت في المبدأ ، لتدل على نخط من العزوف عن الدنيا : إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين ، فسمى بها هؤلاء الذين انصرفوا عن الدنيا .

إن العزوف عن الدنيا : عادة قديمة جداً ، يتمسك بها بعض الناس ، تمسكاً مع فكرة دينية ، وإرضاء لشعور تنسكي .

وقد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين يرهبون ابتغاء رضوان الله .

ويتمذهب بها بعض الناس إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعاً لمذهب عقلي يرى أن السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات والبعاد عن الشهوات وذلك هو الزهد .

وسواء أكان العزوف عن الدنيا ديناً أم كان منطقاً ، فإنه موجود منذ أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها .

والمنطق صاحب الإنسان منذ وجوده .

ولقد رأى هؤلاء الزهاد — من ناحية الملبس — في الصوف : ما يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف والشطف والخشونة ، فهومتين رخيص خشن لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ، ولا يحتاج إلى تنبيره كثيراً ، ذلك أنه لا يبلى بسرعة ، فتصوفوا : أي لبسوا الصوف .

وكان لابد من اسم يطلق على هؤلاء، وكان من السهولة بمكان ،
أن يطلق عليهم : صوفية ، أو أطلق الاسم مصادفة ، أو تعمداً فذاغ وشاع !
وأصبح الزهاد يعرفوه - في البيئات العربية - باسم ! « الصوفية » .

هؤلاء الزهاد ! كانوا موجودين في العصر الجاهلي تديناً أو منطقياً !
وكانوا موجودين في صدر الإسلام تديناً أو منطقياً ! حتى إذا كانت
رابعة ، وكان الجنيد ، وكان ذو النون .. حتى إذا ذاع التصوف وانتشر
ممثلوه عازفين عن الدنيا لابسين الصوف ، أطلقت الكلمة عليهم .

ولم يميز الناس بين حالتين مختلفين كل الاختلاف هما : حالة الزهد
البحث وحالة التصوف ، ولم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، ومن
لم يرض منهم نسبتها إلى الصوف ذهب في نسبتها مذاهب أخرى .

وإذا كانت الكلمة تنسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق ،
ولعل عناية المقادير : هي التي هيأت لها الجو للظهور والشيوع ، إذ أنها
تمت بصلة حرفية نغمية جرسية ، إلى كثير من الكلمات التي تدل على
معان وثيقة الصلة بالتصوف : كالصفاء « وصلته بالتصوف ظاهرة » .

والصف « الصف الأول في الجهاد : جهاد العدو وجهاد النفس » .

والصفة « صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان
يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد » .

والصفة « الصفة الجميلة » .

« ليس التصوف رسماً ، ولا علماً ، ولكنه « خلق » ثم يعمل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسماً ، لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً ، لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم . »

ويحدد أبو الحسين النورى — فى تعريف آخر — الأخلاق التى يتكون منها التصوف فىقول :

(التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء) .

هذا الاتجاه الأخلاقى فى تعريف التصوف ، شائع فى الشرق وفى الغرب ، وهو — أيضاً — شائع فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ... ومع ذلك ، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً .

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف ، ذكروا ، هم أنفسهم ، تعاريف أخرى ، وذلك — على الأقل — يدل دلالة لا لبس فيها ، على أنهم لم يروا كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف وتعريفه ...

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو ، فى الجانب الأخلاقى الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشماراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين فى المحيط الأخلاقى ، وفى المجتمع .

ولكن ليس معنى ذلك أنهم ، لا محالة ، من الصوفية .

ولو نظرنا فى البيئة اليونانية ، لوجدنا داعية إلى الفضيلة ، وامتدحاً بها ، ومحاولاً نشرها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية ، أو بالمنطق الجدلى ، أو بالأبسوة الكريمة ، ذلك هو سقراط ؛ ومع ذلك ، فإن سقراط هذا لم يكن صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة : (صوفى) .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية ، فإننا نجد الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، من أروع وأجل الشخصيات الأخلاقية العالمية ، لقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقى ، فى طهره وصفائه ، وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثالى ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة (صوفى) .

على أنه من الطبيعى : أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف ، وأن تكون الأخلاق فى أسمى صورة من صورها ، ثمرة للتصوف .

ومن الطبيعى أيضاً ، أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفى ، فيما بين الأساس والثمرة ؛ فهى إذن ملازمة للتصوف وللصوفى ملازمة تامة لا تتخلى عنه ؛ ولا يتخلل عنها ؛ ولكن ليس معنى ذلك أنها هى التصوف .

وهناك اتجاه أكثر شيوعاً من الاتجاه السابق : هو تعريف
التصوف بـ « الزهد » .

، وحينما يسمع كثير من الناس كلمة : « التصوف » ، يفهم منها معنى
« الزهد » ولا يفهم من كلمة « صوفي » إلا الزاهد في الدنيا .

وما من شك في أن الصوفي : لا يتعلق قلبه بالدنيا ، ولو كان عنده
الآلاف والملايين ، بيد أن الزهد في الدنيا شيء ، والتصوف شيء آخر ،
ولا يلزم من كون الصوفي زاهداً ، أن يكون التصوف : هو
« الزهد » .

ويخلط كثير من الناس بين الصوفي والعابد ، فإذا ما رأوا أو سمعوا
عن شخص كثير العبادة ، قالوا عنه إنه : « صوفي » .

ولا ريب أن « الصوفي » كثير العبادة ، ولكنك قد تجد أشخاصاً
كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ، ويكثرون من النوافل ، ويدأومون
على العبادة ، ولا يكون معنى ذلك أنهم من « الصوفية » .

وخلط الناس بين الزاهد ، والعابد ، والصوفي ؛ حاول ابن سينا أن يفرق بينهم ، وبين أهداف كل منهم ، يقول في كتابه «الإشارات» :

١ - المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم « الزاهد » .

٢ - المواظب على فعل العبادات ، من القيام والصيام ونحوهما ، يخص باسم « العابد » .

٣ - المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً اشروق نور الحق في صره ، يخص باسم « العارف » .

و « العارف » عند ابن سينا ، هو « الصوفي » .

ويتحدث ابن سينا - كما يذكر غيره - أن الزاهد قد يكون عابداً ، والعابد قد يكون زاهداً ، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد ، ولا يكون بعبادته وزهده معاً : « صوفياً » .

ولكن « الصوفي » لا بحالة ، زاهد عابد .

على أن هناك تفرقة حاسمة ، بين زهد الصوفي وعبادته ، وبين زهد غير الصوفي وعبادته .

وهذه التفرقة : إنما هي في الهدف ، أكثر منها في الأسلوب والمنهج .

ولقد تحدثت السيدة رابعة المدوية ، رضى الله عنها ، عن هذا

بأسلوب مؤثر ، وتحدث غيرها ، والكل يتفق على أن زهد غير الصوفي ، إنما هدفه الإستمتاع فى الآخرة ، فهو نوع من المعاملة : « كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة » .

أما الصوفي : فإنه يزهد فى الدنيا ، لأنه يتنزه عن أن يشغله شئ . عن الله .

وعبادة غير الصوفي ، هدفها ، دخوله الجنة . . كأنه يعمل فى الدنيا لأجرة يأخذها فى الآخرة : هى الأجر والثواب « فمثله : كمثل الأجير : يعمل طيلة النهار ليأخذ أجره فى المساء .

أما عبادة الصوفي ، فإنها استدامة لصلته بالله ، تعالى ، إنه يعبد الله : « لأنه مستحق للعبادة ، ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة » .

وتقول السيدة رابعة ، رضوان الله عليها ، مامعناه : « اللهم إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فألقني فيها ، وإن كنت أعبدك طمعاً فى جنتك فأحرمنيها ، وإن كنت أعبدك لوجهك الكريم ، فلا تحرمنى من رؤيته » .

هذه المعانى الخاصة بأهداف الزهد والعبادة - من حيث كونها لوجه الله - إنما معان عادية عند الصوفية ، وكأنها بدهية فى محيطهم وفى جوفهم : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

والتصوف إذن : ليس خلقاً فحسب ، ولا زهداً فقط ، ولا عبادة
للاغير ، وهو ، وإن كان متضمناً للخلق الكريم ، والزهد الرفيع ،
والعبادة المتجردة ، فإنه مع كل ذلك ، شيء آخر .

وكلمة أخيرة قبل أن نفرغ إلى تعريف التصوف : إن الذين يربطون
بين التصوف من جانب ، والكرامات وخوارق العادات من جانب
آخر كثيرون ، ولكن التصوف ليس كرامات ، ولا خوارق العادات ،
إنه شيء يتجاوز الكرامات ، ويتجاوز خوارق العادات .

إن هذه الكرامات مسألة لا يأبه بها الصوفية كثيراً ، بل يعتبرونها
من الأشياء البسيطة ، التي تبعث السرور في قلب من يجربها الله على
يديه ، ولكنه إذا فرح بها واكتفى ، تدل على أنه لم يبلغ بعد في التصوف
قدماً ثابتاً ، ولا درجات ممتازة .

ما هو إذن التعريف الصحيح للتصوف ؟

نذكر الآن بعض التعريفات التي تتجه الوجهة الصحيحة فيما يتعلق
بالمعنى الحقيقي لهذا الموضوع :

١ - أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٣٦٨ هـ .

سئل عن الصوفي فقال :

« من صني ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن دخل في عين
اللذة بذكر الله ، .

٢ - الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

التصوف : هو : أن يمتك الحق عنك ، ويحييك به .

٣ - أبو بكر الكتاني المتوفى سنة ٣٢٢ هـ

التصوف : صفاء ومشاهدة .

٤ - جعفر الخليدي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

التصوف : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ،
والنظر إلى الحق بالكلية .

وسئل الشبلي عن التصوف ، فقال :

بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده

وإذا نظرنا إلى تعريف الكتاني ، فإننا نجد أن عبارته المختصرة قد
جمعت بين جانبين هما اللذان - فيما نرى - يكونان - في وحدة متكاملة -
تعريف التصوف .

أحدهما : « وسيلة » .

والثاني : « غاية » .

أما الوسيلة : فهي « الصفاء » .

وأما الغاية : فهي « المشاهدة » .

والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية .

وطريقه يتضمن نواح كثيرة تشير إليها تسميته نفسها، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية، واتخاذها عنواناً على هذه الطائفة.

لقد قال جماعة: إنما سميت «صوفية»: لصفاء أسرارها، وتقائها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي: من صَفَّ قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي: من صَفَّتْ لله معاملته؛ وصفت له من الله عز وجل كرامته.

وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة: «الصوفية» إنما تشير إلى الصفاء، وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة، وما دامت «إشارة» فإنه من التمسك أن يجادل إنسان في أمر إنسجامها مع اللغة وعدم انسجامها. ويقول قوم إنهم إنما سموا: «صوفية» لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسر أترهم بين يديه.

وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصَّف: أي إلى الصف الأول في العمل على الوصول إلى الله والجهاد في سبيله.

أما إشارة الكلمة إلى «أهل الصفة»، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة،

والتجهد، وعدم الطمع في الدنيا، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله.
وتشير الكلمة للصفة : أى الصفة الكريمة ، التى لا يتعلق فيها
القلب بالمادة وإعما يتعلق بالله تعالى .

وكل ذلك إنما هو حديث عز الوسائل .

على أن هذه الوسائل التى تشير إليها الكلمة لها وسائل أخرى .
هذه الوسائل الأخرى منها ما يمبرون عنه بقولهم : «لَا يَمْلِكُ وَلَا يَمْلِكُ»
ويعنون بذلك أنه «لا يسترقه الطمع» .

وهذه الكلمة لها مدلول واسع ، هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا
حتى ولو ملكها عريضة طويلة ، يتحرر من الجاه ، من الانغماس
في الملمات ، من الجرى وراء المال ، من حب السلطان ، من حب
الترف ، من الصفات التى تتنافى مع الفضيلة .

وخاتمة المطاف فى هذه الوسائل : أنها تؤدى إلى الصفاء ، فإذا
ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة ، فيجود الله
عليه بها ، إن شاء .

هذه المشاهدة هى أسمى درجات المعرفة ، وهى الغاية النهائية التى
يسمى وراءها ذروا الشمور المرفف، والفطر الملائكية، والشخصيات
الربانية .

فالتصوف إذن معرفة - أسمى درجات المعرفة بعد النبوة - إنه مشاهدة وهو طريقة إلى المشاهدة .

وإذا أردنا أن نلجأ إلى الإمام الغزالي في تلخيص الطريق والغاية ، فإننا نجد يقول في كتابه الخالد : إحياء علوم الدين .

« الطريق تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاذت فيه حقائق الأمور الإلهية ، .

فإذا ما حصل ذلك كانت المشاهدة .

ومن القصص اللطيفة التي تصور الوسيلة إلى المشاهدة في سهولة ويسر القصة التالية :

قال ذو النون :

رأيت امرأة يبعض سواحل الشام .

فقلت لها :

من أين أقبلت رحمك الله ؟

قالت :

من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً .

قلت :

وأيّن تريدین ؟

قالت :

إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

قلت :

صفهم لى ، فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت	فألهم هم تسمو إلى أحد
فطلب القوم مولاهم وسيدهم	ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف	من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إثر منزلة	قد قارب الخطوفها بأعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية	وفي الشوامخ الملقاهم مع العدد

والمشاهدة التي هي الغاية « للصوفية » هي أيضاً تحقيق واقى للتعبير،

الذى ننطق به في كل آونة حينما نقول :

(أشهد أن لا إله إلا الله)

فالشهادة هي غاية الصوفي وهو إنما يسعى جاهداً إليها بشتى الوسائل
ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولاً ، أو ما يقوله حروفاً .

وما من شك في أن تعاريف التصوف الكثيرة التي نجد هامشورة
هنا ، وهناك ، والتي تكاد تبلغ الألف ، إنما تعبر في أغلب الأحيان
عن زاوية من زوايا التصوف ، تتصل بالوسيلة ، أو تتصل بالغاية ، فلا
يمكن أن يقال عنها : إذا ما كانت كذلك ؛ إنها خطأ تام ، ولكن الخطأ
إنما هو في أخذها على أنها تعبر عن الحقيقة الكاملة . أما ما يعبر عن
الحقيقة الكاملة ، فإنما هو تعريف الـكتانى .

التصوف : (صفاء ومشاهدة)

حول مصادر التصوف الإسلامى

يحاول المستشرقون ، وغيرهم من الذين يكتبون فى التصوف الإسلامى ، رد الحياة الروحية الصوفية فى الإسلام إلى مصدر أجنبى بحث ، هندى ، أو يونانى . . الخ ، أو إلى عدة مصادر ، منها القرآن ، أو حياة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويحاول بعضهم أن يظهر بمظهر الاعتدال ، فىرى أن العامل الأول فى نشأة التصوف ، إنما كان القرآن وحياة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه -- ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ثم كانت الثقافة الأجنبية — هندية ، أو يونانية ، أو فارسية ، أو مسيحية — هى التى أثرت فيه وجملته يتطور ، وهى التى أمدته من الآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته .

ورغم أن الأستاذ « لويس ماسينيون » يقول فى صراحة : « أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة » ، فإن المستشرقين ، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامى ، أو لا يشترك .

للتصوف الإسلامى حاسمة ، فقد اعتبر فى فترة حياته الثانية أن أدلته
وأسانيده فى المصدر الإسلامى للتصوف حاسمة أيضاً .

وإذا كان الأمر فيما يتعلق « بثولك » يمكن الاعتذار عنه بأنه
وجد فى فترة لم تكن الكتب الصوفية مبسورة كل اليسر ، فإن
ما حدث لثولك ، هو نفسه ما حدث للاستشرق « نيكولسون » ، إنه
يتحدث عن التصوف ، فيرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام ،
عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجرى .

وأعم هذه العوامل وأبرزها فى نظره ، هو الأفلاطونية الحديثة
المتأخرة والتي كانت شائعة فى : مصر ، والشام ، إلى عهد ذى النون
المصرى ، ومعروف الكرخى .

وإذا أردنا تصوير رأى نيكلسون بقلمه فى هذه الفترة فإننا نراه
يقول : « ولكنى على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية
التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله
إلى عامل هندي ، أو فارسى ، ولزم أن نعتبره وليدا لاتحاد الفكر
اليونانى ، والديانات الشرقية أو بعبارة أدق ، وليد الاتحاد الفلسفة
الأفلاطونية الحديثة ، والديانة المسيحية والمذهب الغنوصى » .

ثم يتحول نيكلسون عن هذا الرأي ، حينما يكتب مادة التصوف في دائرة معارف الدين والأخلاق ، فيقول : « وقد عولجت مسألة نشأة التصوف الإسلامى ، حتى الآن معالجة خاطئة ، فذهب كثير من أوائل الباحثين إلى القول بأن هذه الحركة العظيمة التى استمدت حياتها وقوتها من جميع الطبقات والشعوب التى تألفت منها الامبرطورية الإسلامية ، يمكن تفسير نشأتها تفسيراً علمياً دقيقاً بإرجاعها إلى أصل واحد : كالفيداننا الهندية ، أو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، أو بوضع فروض تفسر جانباً من الحقيقة ، لا الحقيقة كلها » .

ويشرح الأستاذ « لويس ماسينيون » فكرة « نيكلسون » الأخيرة فيقول : « وقد بين نيكلسون : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسامحين : نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها ، أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ؛ وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويتابع الأستاذ ماسينون ، شرح فكرة نيكلسون ، فيقول : « على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة ، فما لا يخلو من

فائدة ، أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التي أدخلت عليه ، ونمت في كنفه » .

وفكرة نيكلسون هذه ، هي تقريبا نفس فكرة الأستاذ ماسينيون ، فامينيون يرى ، أن التصوف لا يرجع إلى مصدر واحد ، وإنما يرجع أولا إلى القرآن ، وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته .

والمصدر الثاني ، هو : الحديث ، والفقه ، وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية .

أما المصدر الأخير ، فهو : الثقافة العلمية الأجنبية العامة التي وجدت في البيئة الإسلامية ، في عهدها الأول .

— ٢ —

هذه الاختلافات الكثيرة ، التي استفاض فيها الكتاتبون ، وكونوا فيها الفصول الطوال ، واستنفدوا فيها الجهد ، والتي لا تزال مع كل ذلك مستمرة لا تنتهى — ولا تريد أن تنتهى — إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن وضع المشكلة بهذا الوضع إنما هو خطأ من أساسه ، وهذا الخطأ في وضع المشكلة مفهوم السبب والعلّة .

لقد وقف الكتاتبون من التصوف موقفهم من الثقافة الكسبية ،

والثقافة الكسبية يتأق فيها التأثير ، والتطور ، والتقليد ، فالكاتب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ، الذى يستمد ثقافته من البيئة الخارجية ، يتلون ويتشكل بما يقرأ ، وبما يدور حوله ، وبما يتشرب به من بيئته ، ونتاجه ، إذن : هو أثر للبيئة الخارجية ، اللهم إلا إذا كانت له أصالته التى تسمو به عن أن يكون صدى للوسط الذى يعيش فيه .

ولكن التصوف والصوفية ليسا من هذا الوادى .

وإذا أردنا أن نتحدث فى تحديد ودقة ، فإننا نرى أن المشكلة التى نحن بصددھا تتفرع إلى أمرين :

١ - الاتجاه إلى الحياة الصوفية ، أو النزعة إلى سلوك الطريق الصوفى .

٢ - الشعور الصوفى .

أما فيما يتعلق بالاتجاه نحو السلوك الصوفى ، فله مؤثراته الداخلية البحتة ، وهى مؤثرات تتصل بالفرد من الناحية الداخلية أكثر من أن تتصل بعامل خارجى ؛ لابد إذن من أن يكون الاستعداد الشخصى الفردى الفطرى موجوداً مهيباً ، ويكفى لأن يسلك عملياً هذا الطريق : كلمة ، أو فكرة ، أو إشارة ، أو حادثة من الحوادث ، فياخذ فعلاً فى سيره نحو الله - تعالى - إلى ذاهب إلى ربى .

هذا العزم المصمم ، الذى يتمثل فى هذه الكلمة الكريمة ؛ لا بد له من الاستعداد الفطرى ، الذى لا يغنى عنه فلسفة أفلاطونية ، ولا فيدائنا هندية ، ولا زرادشتية فارسية ..

وقد يكون المتجه إلى التصوف قارئاً للأفلاطونية الحديثة ، أو لا يكون ، وقد يكون على علم بعقائد الهند ، أو لا يكون ، فالتخصص فى الأفلاطونية الحديثة لا يفيد تخصصه هذا — لا ولا قلامة ظفر — فى أن يكون صوفياً . وكذلك الأمر فى التخصص فى عقائد الهند ..

وقد قرأ الإمام الغزالى كتب الصوفية أنفسهم ، ومحدثنا بذلك ، فيقول :

« فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل : « قوت القلوب » ، لأبى طالب المكي — رحمه الله — وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى — قدس الله أرواحهم — وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل عن طريقهم بالتعليم والسماع » .

واسكن ذلك لم يجعل منه صوفياً ، ولم يكن الإمام الغزالى بهذه الكتب ولا بمطالعة لفلسفة اليونان ودراسته لها دراسة عميقة صوفياً .

ولكنه تبين أن أخص خواصهم — على حد تعبيره — ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وليس التصوف إذن ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك ، وإنما هو ذوق ومشاهدة ، يصل الإنسان إليهما عن طريق الخلوة ، والرياضة والمجاهدة ، والاشتياق ، بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله — تعالى

وهذا هو جوهر الشعور الصوفي .

أخص خصائص التصوف : شعور لا يمكن التعبير عنه ، فإن الإنسان يصل فيه ، إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه .
والذي لا يسته تلك الحالة — على حد تعبير الإمام الغزالي — لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما استأذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

المشاهد الصوفية إذن ، ليست ثقافة كسبية ، وإذن لا يتأتى التحدث عن مصادرها الخارجية — أيا كانت هذه المصادر —

ووضع المسألة — مسألة مصادر التصوف — إذن موضع البحث ، والنظر ،

والدراسة : إنما هو وضع خطأ ، لا يفعله ، ولا يقوم به إلا من لا يفهم
التصوف ، ولم يسهم في تذوقه بقليل ولا بكثير .

والنتيجة التي نريد أن ننتهي إليها إذن هي أن الاتجاه نحو التصوف
والنزوع إليه إنما هو فطرة واستعداد .

أما الذوق الصوفي ، والشعور ، الصوفي ، والمعرفة الصوفية فإنها
استعداد من مصدر النور والهداية .

نشأة التصوف

إن التصوف باعتباره فكرة ، وباعتباره حالة نشأ مع نشأة الإنسان .
والاستدلال على هذا لا يتأتى أن يستند إلى نصوص ، لأن نشأة
الإنسان كانت قبل الكتابة والتسجيل .

ولكنه من البديهي : أن الإنسان منذ نشأته يتطلع إلى معرفة
الغيب ، وإلى استشراف عالم ما وراء الطبيعة ، بل وإلى الاتصال بذلك
العالم عن طريق الوسيلة الصحيحة لهذا الاتصال .

وهذه الفكرة على هذا الوضع تقرها الأديان على وجه العموم .
ذلك أن الأديان تعترف بنبوة آدم ، وبأن الله قد اجتباها ، إنها
تعترف بصلاته بالله ، وبأن الله قد علمه الأسماء كلها : والنبوة أعلى درجة
من التصوف ، إنها تتضمنه وتزيد عليه ، إن النبوة تتضمن الولاية ،
ولكنها أعلى درجة ومنزلة منها ، لأنها اصطفاء من الله :

« إن الله اصطفى آدم ونوحاً ... »

والأديان — على وجه العموم — لا تنتهج نهج التطوريين أو
النشويين ، الذين يرون أن المثل الإنساني درجات مختلفة ، وأن تطوره
المعرفة الاشرافية ، إنما نشأ متأخراً : أي عندما نضج وتهذب :

والحق : أنه ليس هناك دليل واحد على أن العقل درجات، تتابعت
رقيا وإعما كل الأدلة تثبت أن العقل — باعتباره عقلا « لا باعتباره
معرفة مكتسبة » — : هو ، هو ، في بني البشر ، باديهم ومتحضرهم .
ولو أخذنا طفلا من البدائيين ، من مجاهل أفريقيا ، ووضعناه منذ
نشأته في أرقى الأوساط الأوربية تحضرا ، لنشأ نشأة أوربية بحتم .
وكذلك الأمر ، لو أخذنا طفلا من أرقى الأوساط الأوربية
تحضرا ووضعناه مع البدائيين منذ الميلاد لنشأ نشأة بدائية .
العقل الإنساني : هو ، هو ، منذ أن وجدت الإنسانية إلى الآن ،
والذى يختلف ، إنما هو المعارف المكتسبة ، وهذه المعارف المكتسبة
هى وحدها التى تميز المتحضر عن البدائي ، والتى تميز رجل القرن العشرين
بعد الميلاد ، عن الإنسان فيما قبل الميلاد .
ومما هو جدير بالذكر : أن التصوف — فى وجوده وتحققه — :
غير محتاج إلى معارف مكتسبة ، طبيعية ، أو كيمياوية ، أو فلكية ، أو
غير ذلك : إنه محتاج إلى أساس من العقيدة الصحيحة .
والعقيدة الصحيحة وجدت مع الإنسان منذ أن سواه الله ، ونفخ
فيه من روحه .

هذه النفخة الإلهية ، أو هذا السر الإلهي فى الإنسان ، أو هذه الروح

التي بين جنبيه ، أو هذا القلب الذي منحه الله إياه : إذا ارتكز على أساس صحيح من الدين ، ثم جاهد في طريق التزكية والتصفية ، واتخذ الوسائل التي تؤدي إلى الاتصال بالملأ الأعلى ، فإنه ينتهي — بتوفيق الله — إلى ما يريد من هذا الاتصال ، وإلى ما يطمح إليه من ثمار الاتصال ، أعني : المعرفة .

معرفة ما وراء الطبيعة ... إنها الأمل العذب الذي يراود الكثير من النفوس التي تريد أن تتنزه عن المادة وأن تسمو على الحسن ، وأن تصبح ربانية .

وهذا النمط من الناس موجود في كل زمان ومكان ، ولكنه من الطبيعي أنه من النادرة بمكان ، « وجل جناب الحق على أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يصل إليه إلا الواحد بعد الواحد » ، على حد تعبير ابن سينا .

ومن المعقول : أن هذا النمط وجد مع وجود الإنسانية مادام الطموح ، وحب الاستطلاع ، والتشوف إلى عالم الغيب ، مادام كل ذلك فطرة في بعض الطبائع .

وجد التصوف ، إذن ، منذ أن وجد الإنسان .

وفيما قبل الحضارة اليونانية ، كانت المسائل — فيما يتعلق بالمعرفة —

تسير سيراً طبيعياً ، فقد كان هناك ميدان للحس يحول فيه كيفما شاء ،
وهناك ميدان للعقل يبحث فيه كيفما يريد ، ولكن كان من المعروف
في الحكمة الهندية مثلاً ، والحكمة المصرية القديمة : أن عالم ما وراء
الطبيعة إنما هو من اختصاص البصيرة ، وما كان يسمح قط في تلك
الخطارات : أن تختلط الأمور ، وأن تتعدى كل أداة من أدوات المعرفة
اختصاصها .

وكانت ميادين المعرفة محددة تحديداً كاملاً ، لا لبس فيه ولا غموض .
كانت محددة فيما يتعلق بالوسائل ، وكانت محددة فيما يتعلق بالموضوعات .

وكان لمعرفة الغيب رجال ، هيأت لهم فطرهم وظروفهم أن ينتهجوا
سبيله ، بل حدث في بعض الأحيان : أن حدد هؤلاء الرجال ، من بين
طبقة معينة ، هي الطبقة التي يظن أنها ورثت نوعاً من الشفافية عن
أسلافها .

وطبقة البراهمة عن الهندو طبقة محددة ، وما كان كل شخص
يمكن أن يكون كاهناً عند قدماء المصريين .

ولا تزال هذه الفكرة للآن — فكرة تحديد ميادين المعرفة ،
وتحديد وسائلها : — موجودة في الهندو المحافظين على تراثهم القديم .

أما حينما نشأت الحضارة اليونانية ، ولم تكن هذه الحضارة مرتكزة على دين صحيح ، ولم تكن مستقرة على دعائم من النصوص المقدسة الثابتة ، فإن الأمور بدأت تختلط ، وبدأت الحدود تزول ، نوعاً ما ، بين ميادين المعرفة . وبدأت ، بالتالى ، تضرب الأمور فيما يتعلق بأدوات المعرفة .

ومع ذلك فإن هذه الحضارة اليونانية القديمة نفسها - فى بعض صورها - كانت تسير على نهج الحضارات الصحيحة : هندية كانت ، أو مصرية .

فهذا مثلاً ، فيثاغورث ومدرسته : كانوا يسرون فى المعرفة على أسس صحيحة ، ولكن وجد بجوار فيثاغورث من انتهجوا النهج العقل فى معرفة ما وراء الطبيعة ، وبدأ الأمر يختلط ، حتى كان أرسطو ، فذهب بهذا الخلط إلى أقصى مداه واضطرب الأمر بسببه اضطراباً لا يزال العالم يعاني الكثير من آثار انحرافه إلى الآن .

إن إدخال العقل فى مسائل ما وراء الطبيعة : انحراف يؤرخ بالعصر اليونانى ، ولكن هذا الانحراف لم يكن خفياً أمره - فى العصر اليونانى ، وفيما تلاه من العصور - على كثير من ذوى البصائر النافذة ، الذين اتخذوا من الآثار المقدسة ملجأً وعصاة ، والذين اتخذوها دثاراً وشعاراً ،

والذين عملوا بها ونشربتها أرواحهم حتى أصبحت ، وكأنها فطرة
فيهم . . . فقادتهم إلى أن يكونوا ربانيين : لقد قادتهم إلى الأمل المنشود :
شهود ما وراء الطبيعة أو شهود التوحيد ، فانضوا تحت لواء الآية
الكريمة :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة ، وأولوا العلم . . . »

إنهم أولياء الله ، إنهم الصوفية .

لمحة عامة عن التصوف^(١)

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموروثة ، هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما « الظاهر »

(١) هذه البهجة كتبها بالفرنسية الحكيم الصوفي رينيه جينو الذي أسلم وسمى نفسه عبد الواحد يحيى وقد ترجمناها عن الفرنسية وعلقنا عليها بنصوص من شتى المصادر توضيحاً للبحث واستكمالاً له . أما الشيخ عبد الواحد فقد كتبنا عنه ما يلي :

أما الذي كان لإسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقصدوا به : واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه ، تعبد الله على يقين في معازل الكاثوليكية في فرنسا ، وفي سويسرا . . . فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفي : رينيه ، الذي يدوى اسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا ، والذي يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا ، أو في أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد — بعد دراسة عميقة — سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفساني في رحاب الفرقان .

== ومؤلفاته كثيرة مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » ، بين فيه الانحراف الهائل الذي تسير فيه أوروبا الآن ، والضلال المبين الذي أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » ، فهو من الكتب الخالدة ، التي تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبينا أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهرا في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم وفهمهم للأمور فهما يتفق مع الفضيلة ومع أسس المبادئ الإنسانية . . .

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، نشره فيما يلي :
« رينيه جينو : من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالي وأمثاله ؛ ويضعه غير المسلمين بجوار أفلاطون ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ؛ وأمثاله .

ولإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته ؛ فقد كان حسن حظ : « رينيه جينو » ، أنه قدر أثناء حياته ، وقد بعد وفاته . أما في أثناء حياته : فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في « رينيه جينو » ، خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى الحديث عنه .

ولإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي ، الذي لا يقل في أهميته ، عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا للدعوة : ==

== «رينيه جينو» ، فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص ؛ في سويسرا ، وفي فرنسا ؛ والمكونون لهذه الجمعيات ، احتذوا حذو «رينيه جينو» ، فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعاراً وديناً ، ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه ، رغم تحريم الكنيسة لقراءتها ؛ قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ؛ وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ؛ ما عدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية ؛ ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا «الدالاي لاما» . ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بأراء «رينيه جينو» .

كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ؛ لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ؛ ومنها بعض الصحف المصرية العربية ؛ ك«مصور» مثلاً ؛ الذي كتب عنه ؛ في استفاضة ؛ والصحف الإفريقية أيضاً ؛ كمجلة «إيجيبت نوفل» . التي أخذت تكتب عنه ؛ عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته .

وقد خصصت له مجلة : «فرنسا آسيا» ، وهي مجلة محترمة ؛ عددا ضخما ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير شاعر فرنسا الأكبر . «أندريه جيد» لـ (رينيه جينو) وقوله ؛ في صراحة لا لبس فيها : «إن آراء (رينيه جينو) لا تنقض :

وخصصت مجلة : (ايتودترا ديسونيل) ؛ وهي المجلة التي تعتبر في الغرب ==

= كله : لسان التصوف الصحيح ؛ عددا ضخما من أعدادها ؛ كتب فيه أيضا :-
كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير ؛ (پول سيران) كتابا ضخما يتحدث فيه عن حياته وعن آرائه ؛ ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ؛ في المكان اللائق به ؛ بجوار الإمام الغزالي أو الحكيم أفلوطين .

نشأ (رينيه جينو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ؛ ثرية محافظة ، نشأ مرفه .
الحس ؛ مرفه الشعور ؛ مرفه الوجدان ؛ متجها بطبيعته ؛ إلى التفكير العميق .
والأبحاث الدقيقة . وهاله ؛ حينما نضج تفكيره ؛ ما عليه قومه من ضلال ؛ فأخذ يبحث ؛ في جد عن الحقيقة ؛ ولكن أين هي ؟ أفي الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أم في الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه ؛ كما وجهه من قبل إلى نفسه : الإمام المحاسبي ؛ والإمام الغزالي ، والإمام محي الدين بن عربي ؛ وكما وجهه ، من قبلهم ؛ عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستقيموا للتقليد الأعمى .
وتأتى فترة الشك والحيرة والالام الممض ؛ ثم يتأتى عون الله ؛ وكان عون الله ، بالنسبة لـ (رينيه جينو) : أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة وغمره ضياؤه الباهر ؛ فاعتنقه وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد محي ؛ وأصبح جندياً من جنوده ؛ يدافع عنه ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك : ما كتبه في كتابه : (رمزية الصليب) تنفيذاً للفرية التي تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . ومن أمثلة ؛ ذلك . أيضاً ما كتبه ؛ في العدد الخاص ؛ الذي أصدرته مجلة : (كاييه دي سود) ؛ في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعاً عن الروحانية الإسلامية . لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام ؛ أو قللوا من شأنها وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا =

و«الباطن» أعنى «الشريعة»، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع، و«الحقيقة» ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكيمية، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء، ذلك أن استعداد الناس متفاوت وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة.

= من شأنها. ووضعوا التصوف المسيحى فى أسنى مكانة، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى.

كتب الشيخ عبد الواحد يحى، مبينا سمو التصوف الإسلامى وروعته، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى، أو «الميسيتيسيم»، وانتهى بأن هذا الميسيتيسيم لا يمكنه أن يبلغ ولا عن بعد، ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ومن جلال.

على أن الشيخ عبد الواحد يحى لم يشد بالإسلام غسب، وإنما أشاد فى جميع كتبه، وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر، بالشرق، ثم خصص كتابا ضخما بعنوان: «الشرق والغرب»، تزيل قراءته من نفس كل شرقى مركب النقص الذى غرسه الاستعمار فى نفوس الشرقيين فى هذه السنوات الأخيرة.

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين: أنهم أقل حضارة، بل أقل إنسانية من الغربيين... وأتى الشيخ عبد الواحد: فقلب الأوضاع رأسا على عقب، وبين للشرقيين قيمتهم، وأنها منبع النور والهداية، ومشرق الوحى والإلهام.

لأن كل شرقى يفخر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب، وهو ليس كتابا يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى، أو على الطريقة الإنشائية، وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم، وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد، اعترافا منهم بالجليل، والله الموفق.

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن - فضلاً عن الناحية الاعتقادية - الناحية التشريعية ، والناحية الاجتماعية ، وهما جزآن لا يتجزآن عن الدين الإسلامي : إنها أولاً وقبل كل شيء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة ^(١) فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى للشريعة معناها السامى العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة ، إنها في الحقيقة — وإن لم يشعر بذلك المؤمنون — المركز الأساسى : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

يبد أن (الباطن) لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها ، أعنى : الطرق التى تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة . وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط

(١) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ؛ فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ؛ فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة لإنباء عن تصريف الحق ؛ فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ؛ والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وأظهر . سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول : قوله إياك نعبد حفظ للشريعة ، وإياك ، نستعين لإقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أياً متناً وجبت بأمره .
« عن الرسالة القشيرية »

«الدائر» هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهى - كلها - إلى المركز .

إنها « الطرق » وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية . ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ نزول شيئاً فشيئاً مع زوال الإنية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا نزول فيها « صفات العبد » التى ليست إلا سجناء : « الفناء » ، فلا تبقى إلا الصفات الربانية وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف ، وهو ليس مذهباً خاصاً : لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة : لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » . ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلاً محضاً ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى : وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفى الحقيقى وبين ربه ، ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه : إنه متصوف ؛ وهو عنوان يطلق على « السالك » فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى (م ١٧ - المنقذ)

بمعناه الحقيقي لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا .

أما أصل هذه الكلمة : صوفي ^(١) ، فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها في الحقيقة تسمية « رمزية » وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة المددية لحروفها ، وإن لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة المددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة المددية لحروف : (الحكيم الإلهي) ، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه (العارف بالله) . إذ أن الله لا يعرف إلا به . . . وتلك هي الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

(١) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف وللجماعة المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه كاللقب . فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف . كما يقال تقمص إذا لبس القميص : فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي . ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال إنه مشتق من الصفاء ، فكأنهم في الصف الأول بقاوتهم من حيث المحاضرة . من الله تعالى ، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصفاء ، ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تمييزهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق .
و عن الرسالة الشيرازية .

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين الإسلامى ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فالصق بالإسلام ، وإنما هى ، بالمعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين ^(١) . إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسى ، لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى أو هندى أو فارسى : وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى

(١) قال الأستاذ ماسينيون فى دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية ، مادة (تصوف) : أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة الحالى ، ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام مأخوذ إما من رهبانية الشام (وهو رأى مركس) وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهندود (وهو رأى جرنس) وقد بين نيكولسون : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئهما ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ومآحل بالأفراد من نوازل ، على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ونمت فى كنفه .

فتفسير هذا طبيعي لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لا نعطي عناية كبيرة - حينما نتحدث عن أصل التصوف - لتلك المناقشات التي لا تنهى بين مؤرخي التصوف خاصة بتحديد الفترة الزمنية التي وجدت فيها لفظة صوفي .

فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجدت تحت اسم آخر ، أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته^(١) . وعلى كل حال ففيصل الحق في مسألة أصل التصوف هو ما يأتي :

(١) اشتهر هذا الإسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين (ابن خلدون) .

ويقول بعض العلماء : إن هذا الإسم معروف في الملة الإسلامية من قبل ذلك بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلي عرفته العرب قبل ظهور الإسلام . قال أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في كتابه "اللمع" ، في التصوف : " وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فحال ، لأنه في وقت الحسن البصري كان يعرف هذا الاسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي عنهم ، وقد روى عنه أنه قال : (رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي) .

وروى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء . وقد ذكر في الكتاب الذي جمع أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن =

إن السنة ترشد في صراحة لالابس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة ،
كليهما ينبغي أن يبعثا مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله وسلامه عليه .
والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على (سلسلة) تصل دائماً إلى
الرسول . وإذا كانت بعض الطرق ، فيما بعد ، (استعارت) أو بتعبير
أصح (تبنت) بعض التفاصيل في الطريق (وإن كان التشابه هنا
أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل في المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق
(بعلم المقاطع والأوزان في مختلف فروعها) فإن أهمية ذلك لا تعدو أن
تكون أهمية ثانوية لا تمس الجوهر من قرب أو من بعد . والحق أن
التصوف عربي إسلامي كما أن القرآن — الذي يستمد التصوف أصوله

= يسار وعن غيره يذكر فيه حديثاً : إن قبل الإسلام قد خلت مكة في رقت من
الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد . وكان يحج من بلد بعيد رجل صوفي
فيطوف بالبيت وينصرف ، فإن صح ذلك يدل على أن قبل الإسلام كان يعرف
هذا الاسم . وكان ينسب إلى أهل الفضل والصلاح والله أعلم .

ويعقب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فيقول :

فاستعمال لفظ صوفي ومتصوف لم ينشر في الإسلام إلا في القرن الثاني وما بعده ،
سواء أكان هذا التعبير عن هذا ، بالصوفي ، حدث في أثناء المائة الثانية كما هو
رأى ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦ م) في مقدمته ، أم كان لفظاً جامعياً
على ما ذكره صاحب اللامع الذي يحاول أن يبري الصوفية من انتحال اسم
مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

(عن دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية)

منه مباشرة — عربى إسلامى . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تتفجر عنه ينابيع (الحقائق) التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولاً لغوياً ومنطقياً ، وكلامياً ، ولكن تفسيره صوفياً اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معاً فلا يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ؟

التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى — خلافاً للفكرة الشائعة حالياً عند الغربيين — لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحى: أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه (المستيسيسم). أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهى :

١ — يبدو واضحاً أن المستيسيسم شىء خاص بالمسيحية. وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندون إليه فى ادعاء وجود ما يماثل المستيسيسم فى الأوساط التى لا تعتنق المسيحية .

ولاشك فى أن هذا الفهم الخاطىء يتركز على شىء من التشابه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يبرر قط دعوى التشابه ، وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولا تدع للتماثل مجالا : المستيسيسم خاص بالمسيحية إذن .

٢ — ثم إنه جزء من الشريعة ، إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة بينما التصوف على خلاف ذلك .

٣ — ثم إن المسيحى الذى اتخذ المستيسيسم سبيلاً فى الحياة يتهج فى سلوكه منهجاً سليماً . إنه يقتصر على تلقى ما يأتیه دون أن يكون له

أثر شخصي ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها هادفاً من وراء سلوكها ، إلى بلوغ غاية معينة .

ومن أجل هذا لم يكن في المسيحية طرق صوفية . ولذلك لا يتخذ المسيحي (شينخاً) وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد الذي بواسطته يصل إليه التأثير الروحي الذي لا بد منه في التصوف .

٤ - والاختلاف في الهدف أيضاً واضح : فهدف التصوف المعرفة ، وهدف الميسيتيسم الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ماسبق هي أن التصوف والميسيتيسم مختلفان كل الاختلاف :

بل إن اللغة العربية لا تشتمل على أية كلمة تترجم - ولو تقريباً - كلمة ميسيتيسم : ذلك أن الفكرة التي تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنة الإسلامية .

علوم التصوف

إن التصوف في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة ، على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا فإن بعض العلوم يتصل به اتصالاً وثيقاً بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا ، مما يميزه أيضاً عن الميسيسيسم : من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيمياً » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعرق . وكذلك الأمر في الكيمياء القديمة : إنها ليست استخراج الذهب الحقيقي من المعادن الحقيقية ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لا صلة لها بالمادة وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علوماً أخرى لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

من شروط التصوف

ولا بد في التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى »
أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ »^(١) ومن
هنا كانت « الطرق » ، ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا
بركات تنتقل من شيخ إلى مرید يوشك أن يصبح شيخاً ، فيؤثر بدوره
فى مرید أو مریدين ؟

(١) يجب على المرید أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً .
هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ
أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ؛ لكن
لا تثمر ، كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً ،
فهو عابدهواه لا يجد نفاذاً ، « الرسالة القشيرية » ، ص ١٩٩

ويشترط الإمام الرازى فى الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً قد انتهج الصراط
المستقيم ، وأن يكون سالكا (أما السالك فلائى الوصول تارة بالجدبة على ما قال
عليه السلام : « جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين » ، وأخرى بالسلوك .
والأول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنياً ؛ فإنه وإن كان
ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال ، فلا ينفع به التلبذ الطالب لتعلم
كيفية الاكتساب ، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المرید لأن من سلك الطريق ،
وعرف مراحلها ومنازلها ، واطلع على متاليفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى
سواء السبيل والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل . .

(شرح الإرشادات ١١٢)

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهي : أن التصوف ليس عملاً ، علمياً ، ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب ^(١) على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار

(١) من كلام الإمام الغزالي في المنقذ من الضلال :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلت أن طريقهم إنما تم بعلم وعمل . »

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتزهد عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ؛ حتى يتوصل بها إل تحلية القلب عن غير الله تعالى ؛ وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل عنهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » ، لأن طالب المسكى — رحمه الله — وكتب الحارث المحاسبى ؛ والمتفرقات الماثورة عن الجنيد ؛ والشبلى ؛ وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنهه : مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع .

فظهر لى أن أخص خواصهم ؛ ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم ؛ بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً ؛ وبين أن يعرف حد السكر ؛ وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على الفكر وبين أن يكون سكراناً .

بل السكران لا يعرف حد السكر ؛ وعليه وهو سكران ؛ وما معه من عليه شىء .

والصاحي يعرف حد السكر ؛ وأركانه ؛ وما معه من السكر شىء .

مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته، متصوفاً، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه . ولأجل أن يسير الإنسان في طريق التصوف لا بد له من :

١ — إستمعاد فطرى خاص^(١) لا يفتنى عنه اجتهد أو كسب .

٢ — الإنتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذ أن « البركة » التى تحصل

= والطبيب فى حالة المرض يعرف حدد الصحة ؛ وأسبابها؛ وأدويتها وهو فافد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ؛ وأسبابها ؛ وبين أن يكون حالك الزهد ؛ وعزوف النفس عن الدنيا ؛ فعدلت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ؛ لا أصحاب الأقوال ؛ وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ؛ ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسمع والتعلم ؛ بل بالذوق والساوك .

(المنتقد من الضلال)

(١) يرى الإمام الرازى أنه لا بد — لتكون الرياضة نافعة — أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا الحديث . ملائمة له : إذ لو لم يكن كذلك ما نجحت فيه الرياضة أصلاً : لأن تأثير الرياضة ليس إلا فى إزالة العوائق ؛ ورفع الحجب والأستار . وزوال العائق لا يكفى فى حصول المطلوب ؛ بل لابد معه من القابل المستعد ؛ فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تفد الرياضة سعادة أصلاً ؛ لكنها تفيد السلامة) . (شرح الإشارات ص ١١٢) .

من الإنتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل
الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

٣ — ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه : فى
الجهاد الأكبر : التأمل الروحى ، وفى الذكر : أى استحضار الله فى
كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملاء الأعلى فيصل موقفاً من
درجة إلى درجة ، حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على
حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانياً . ذلك هو الصوفى الحقيقى .

مقامات الوصول

وحينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية .

والولى إما أن يمكث ولياً فقط فتكون معرفته خاصة به، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً، أو يكون رسولا .

والرسول نبى ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية . « الرحمن » فى جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى « القرب » من الله بينما النبى متجه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ولكن ذلك خطأ محض ، فإن النبوة تتضمن الولاية ، فهى متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية وعلى ذلك فإن حالة الولى « نائصة » بالنسبة لحالة النبى ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم . وهذا العموم يصل

إلى أعلى درجات ازدهاره في الرسالة : إذ هي عالمية ، والرسول —
لا غيره — هو حقيقة « الإنسان العالمى » .
والرسول كما للنبي اتجاهان .

١ — اتجاه داخلى : إنه الاتجاه نحو الحق .

٢ — اتجاه خارجى : إنه الاتجاه نحو الخلق .

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحددة ، ودرجة النبى .
المحدودة . أسمى من درجة الولى الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

الفصل الثاني

التصوف والشريعة

- التصوف والدين الإسلامى .
- التصوف والتحلل من الشريعة .
- وحدة الوجود .
- السجود للأوامر الإلهية كظاهر للتدين السليم والتصوف المصحح .

التصوف والدين الإسلامى

أالتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائماً روحية : رضا الملائ الأعلى ، حب الله ، الاتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه . تلك هى الأغراض التى يسمى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى .

لذلك لا يتأتى لشخص ليس بمؤمن أن يسمى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسمى وراء هذا الكمال :

وإذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات ، حتى يصل الإنسان إلى الغايات التى وضعناها سابقاً ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا . ولكن التخلق بأخلاق الله ، لا يتأتى إلا عن طريق الوحى المعصوم ، فلا بد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعاً سليماً . وبالتالي فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط مالم يكن اتباعاً كاملاً لشريعة صادقة وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية باقتداء تاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد أحبه واتبعوه وحققوا

بذلك قول الله تعالى :

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيرا»

ويمكننا أن نقول في صراحة أكثر : إنه لا يوجد الآن تصوف
إلا في المحيط الإسلامي ، وذلك أنه لا يوجد الآن نص مقدس لم يدخله
التحريف إلا في النصوص الإسلامية ، إن القرآن كلام الله وهو الآن
كما كان أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف ذلك بعض
الغريبين الذين استنارت بصائرهم فاعتنقوا الإسلام مستمسكين بوحية
سائرين على نسق رسوله مستجيبين إلى أوامره مجتنبين نواهيه وساروا
في الطريق فوصلوا إلى روضات القرب من الله سبحانه وكل من لم ينطلق
من الشريعة الصادقة والاتباع الدقيق فإنه لا يصل إلى شيء من درجات
الصوفية . إن الصوفية لا تتأني إلا بالافتداء ، والقدة المعروف
الآن سيرتها في صدق ويقين هو رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ،
إنه الأسوة الوحيدة الآن لكل من يحب القرب من الله في صدق .
لقد تناقش الناس كثيرا في كون محمد صلى الله عليه وسلم هو القدة ،
لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمدا صلى
الله عليه وسلم ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .
والواقع : أن التصوف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ،

ليصل الإنسان إلى السمو، أو إلى الكمال الروحي : ليكون عارفاً بالله .

وليس من عناصره فكرة الاتحاد، أو الوحدة، أو الحلول : بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية، وهم بميدون عنها كل البعد، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم . وما اتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

هذا هو، المحاسبي، الذي لا يشك في أنه : من زعماء الصوفية، ليست عنده فكرة الاتحاد، أو الحلول أو ما شاكل ذلك من حالات السكر التي يشعر بها بعض الصوفية حينما تسيطر عليهم فكرة الله، فتأخذ بنفوسهم وحواسهم، وتأخذ بكل ما فيهم من تفكير، فيرون، في النهاية، أنه :

« أينما تولوا فثم وجه الله » .

و « إن الله معنا » .

وإذا كان : — الاتحاد، والحلول، ووحدة الوجود — : ليس من عناصر التصوف، وأن عنصره الأساسي — كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية : المحاسبي، أو الغزالي، أو رابعة العدوية، أو كثير غيرهم — : ليس إلا الجهاد لرضاء الله، وتزكية النفس حتى تعرف الله به .. إذا كان

الأمر كذلك فإننا نعتقد - ولسنا في ذلك الرأي من المجددين - أن
محمدا صلى الله عليه وسلم، كان أول قدوة لصوفية الإسلام .

* * *

بقى الحديث عن القرآن ، وقد كثرت الكلام فيه أيضاً ، ومحط النزاع
هو أن القرآن ، كتاب دنيا وآخره ، يدعو إلى هذه وتلك ، ويقول ،
في صراحة وإيجاز : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

أما التصوف ، فهو : توكل وزهد ، وليس له من هذه الحياة الدنيا
قليل ولا كثير .

والحقيقة : أن كلام هذين الرأيين يحتاج إلى تحديد ، فالقرآن
ليس كتاب دين ودنياً على الإطلاق : انه لا يسوى بين الدنيا والآخرة ،
والصوفي : ليس رجل آخره ، فقط لأنه يصارع في الحياة صاعداً بها
نحو الكمال .

أجل : إن القرآن يدعو إلى ألا تنسى نصيبنا من الدنيا ، وإلى أن
نكون أقوياء ، وإلى أن السن بالسن ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ،
والجروح قصاص ، وإلى أن الجهاد واجب على كل مسلم ، وأسس القرآن
تشريعا لكثير من المشاكل الدنيوية .

كل هذا صحيح .

ولكننا لو نظرنا بتأمل ، لوجدنا أن الحياة الآخرة - في نظر القرآن -
خير وأبقى ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأن الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر ، وأنها لا تسارى
عند الله جناح بعوضة .

ثم هو بعد ذلك يذكر أن عباد الرحمن : « هم الذين يمشون على
الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا سلاماً ، والذين يبيتون
لربهم سجداً وقياماً » إلى آخر ما في القرآن من آيات ، ترشد إلى أن
الحياة في هذا العالم هي - حقاً - : الحياة « الدنيا » وأن الآخرة خير وأبقى .
والجهاد يدعو إليه الإسلام من أجل الآخرة وهو جهاد في سبيل
الله وقد رفع الصوفية رأيته خفاقة في كل الصور .

أما أن الصوفي : رجل آخرة فقط ، فهذا أيضاً فيه كثير من الوهم ،
أو على الأقل . عدم التحديد ، فهذا الصوفي يتزوج ، ويدعو هو
الآخر ، إلى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن المؤمن القوي ،
خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب
خلال طيب : خير من أن يتكفف الإنسان الناس : أعطوه ، أو منعوه
ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن :

« والآخرة خير لك من الأولى » .

فمعنى إشارته للآخرة إذن ، إنما : هو أن يريد بكل عمل من أعماله وجه الله تعالى .

وما من شك في أن القرآن الكريم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، يطويان جميع المسائل ، ويضعانها تحت لواء الله سبحانه ، إنهما يصبغان كل عمل من أعمال الإنسان بصبغة الله : يريدان أن يكون كل عمل إنما يراد به وجه الله سبحانه ، فتكون الأعمال بهذا عبادة ، وتكون الدنيا ديناً ، ويكون الإنسان إلهياً يتخلق بأخلاق الله .

التصوف والتحليل من الشريعة الإسلامية

(١)

في كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم في الميدان الديني ،
وفي الميدان السياسي ، وفي الميدان العلمي ، ونجدهم كذلك في ميدان
التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة المادية من أقصر
الطرق .

وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيّفون :
فكذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف .

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدوداً من
شأنها أن تظهر زيف المزيّفين وباطل المبطلين ، فكذلك الأمر في
الجانب الصوفي .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثاً عن بدعة ضالة ، أخذت تتسرب
إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً ، ولا في الجانب
الصوفي خصوصاً .

هذه البدعة ترى : أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون !

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت في العصر الحاضر - بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا يجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التي وصاتهم ، فسترى عجايبا ؛ ستعلم أن مصدر هذه المعرفة إنما هو الأرواح التي يستحضرونها ، فتلبس - فيما يزعمون - جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزل إلى أبده ، ومن بدايته إلى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه !!

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح في وسطهم ، يتحدثون عنها مصبحين وممسين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذي لا يدينون بغيره ، ولا يتلقون الوحي عن سواه ، وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، محل القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، يزعمون .

أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملمين ..
وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم ، في فترة من الفترات ، أنه من
كبار الأولياء ، ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز
ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمداً ، صلى الله عليه
وسلم ، ثم تخلص من البشرية جملة ، فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت
فيه ، والأرواح التي يستحضرها تؤيده في كل ما يزعم ، ولا ترى هذه
الأرواح ، كما لا يرى هو ، في ذلك شذوذاً ولا تناقضاً ، وصدق الله
تعالى ، إذ يقول فيه وفي أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن
سواء السبيل :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا﴾ .

ولعلك تسأل : هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟
وجواب رجال التصوف في ذلك حاسم قاطع ؛
ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا
إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .
إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها

تعامل مع الجن والشياطين !! ويتذكرون في هذه المناسبات قول الله تعالى :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾
وقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَغشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ،
وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعه ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيغ ، والضلal والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه ، وليس من همنا ، أن نبين نشأتها التاريخية فى العرب بين الأوساط اليهودية التى روجت لها ، وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة : لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن : إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط

التكاليف الشرعية » ، وهى مسألة لم يبتدعها من يزعمون التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتساباً باطلاً ، وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم اثنان نجدهم - سواء فى ذلك القداماء منهم والمحدثون - ينكرون الفكرة إنكاراً تاماً ، ويرونها زيفاً وضلالاً وانسلاخاً عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القداماء فى هذا الموضوع ، ثم نفصل ، نواماً ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم علم من زعماء الصوفية فى العصر الحديث .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلاً مشهوراً بالزهد - فضيئنا إليه ، فلما خرج من بيته .

ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟ » .

ومن كلام أبي يزيد :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرقى في الهواء فلا تغفروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التستري معبراً عن أصول التصوف . « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والافتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد - سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تمييز القشيري :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ، لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من انتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته . »

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال :

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل . »

فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمه ، والذي يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا . »

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالي ، فإننا نجده يقول ، فى شيء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى ، قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له :

وذلك : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً ، وإقداماً واحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واطب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟

فان قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ، وإن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهويتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » ، وهو الحق .

فإذا ما انتهينا أخيراً إلى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، فإننا نجد يقول :

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة » .

والصوفية يتبعون فى كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون — لاشك — البدييات التاريخية من أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء ، وخير ما نختمه به إنما هو الحديث النبوي
الكريم .

« سئل النبي صلى الله عليه وسلم ، عن قوم تركوا العمل بالدين
وأحسنوا الظن في الله فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا
العمل » .

التصوف والتجمل من الشريعة الإسلامية

(٢)

« رأى المرحوم الشيخ عبد الواحد يحى »^(١)

يبدو أن كثيراً من الناس يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، وهذا في الواقع استعداد نفسى لا يوجد إلا في الغرب الحديث .

ولا شك في أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسؤولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم ، الذين يعملون

(١) الشيخ عبد الواحد يحى من كبار المفكرين العالمين ، نشأ في فرنسا كاثوليكياً ، وانتهى به البحث إلى اعتناق الإسلام والاخذ بالتصوف ، ومارس التصوف نظرياً وعملياً حتى ليعد من أكبر الحكماء في العصر الحديث .

وقد توفى بالقاهرة منذ سنوات .

وترجمت كتبه إلى اللغات الحية .

وأثره في الغرب كبير ، إلى درجة أن كثيراً من الجمعيات في أوروبا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه .

وهو في هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية غمب .

إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

يبد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية؛ ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن يرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ؛ ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجل التصوف ميدان الشريعة، ولو من جانبها العملي ، ذلك أن الأكثر ، وهو : « التصوف » يتضمن بالضرورة الأقل، وهو : « الشريعة » .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له ... هذه النظرة تتضمن ، ولو نظريا ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه . وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده هذه الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي .

إن تقليل شأن الشريعة : إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالى بما أنزل الله . وإعادة تكون الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين .

وتجاهل الناحية العملية : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . على الخصوص ؛ ومن الطبيعي أن يقوم الجوالديوى الذى يعيش فيه الغريون عقبة فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجوالديوى ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا ، وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعنى التزام الشريعة . قلنا : إن الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا : إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث ، وفى الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه فى الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجى ، والآخر داخلى ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن . لذلك كان ما يوجد فى الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفى ، وهى مع ذلك لا تركز على أية شريعة إلهية ، مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات - ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة - ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء، إنه لا يشيده على غير أساس، وكل فكرة لا ترتكز على أساس من السنة الصحيحة : إنما هي بناء في الهواء، إنها بناء على غير أساس .

والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يرتكز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والإرتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه لكل سالك، وكالأساس تماماً، لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه واستغرق فيه ، بدت له ضرورة الشريعة ، واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها ، دون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي ، ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويمحيها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن

أن يحيا الحياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغريبيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لاشك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان من الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية ، وإنما يتأتى لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤدي به شخصان فيوصف عند أحدهما بأنه ديني وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « الله » فالعمل ديني وإن كان القصد شيئاً

آخر فالعمل دنيوى ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح :

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى من هاجر إليه ^(١) . »
ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وأن مسألة الهجرة فيه : تطبيق جزئى لقضية عامة .

وفى العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وهما نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ؛ ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا نؤكد - ونحن على يقين من الأمر - لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفى بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً . وبالله التوفيق .

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

التصوف والتحلال من الشريعة الإسلامية

(٣)

فتوى للإمام الغزالي^(١)

كتب له بعض الزائدين :

ما قوله ، متع الله المسلمين ببقائه ، ومتع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل ما منح أفضل خاصته من أصفياه وأوليائه ، في قلب خصه الحق بأنواع من الطرف والمهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك في جميع الأوقات والأحوال ، متزايدة مع عدم العوائق والآفات .

مع كون ظاهره معموراً ، بأحكام الشرع وأدائه ، منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ، ويحمد في الباطن مكاشفات وأنواراً عجيبة .

ثم إنه انكشف له نوع يعرفه ، أن المقصود من التكليف الشرعية ، والرياضات الدينية : هو الفطام عما سوى الحق ، كما قيل لـ « موسى » صلى الله عليه وسلم :

(١) هذه الفتوى ذكرها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه وطبقات الشافعية ، وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي » ، للأستاذ عبد الكريم العثماني وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب (فيصل التفرقة) ١

[أخل قلبك : أريد أن أنزل فيه] .

فإذا تم الفطام ، وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة ، حتى إنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره ، انتقطع عن حفظ الباطن ، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية ، إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا ينزع يده من التكليف الظاهر ، ولا يقصر في أحكام الشريعة ، لكن الاعتقاد الذي كان له في الظواهر والتكاليف ، تناقص وتقاصر عما كان في الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ، ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة ، لأجل الخلق ، وحفظ نظرم ومراقبة الله ، بل صارت إلفاله ، وإن نقص اعتقاده فيها ، فهو يعظمها .

ما حكمها ؟

ثم إن عرضت له شبهة :

« أن المقصود من الداعى والدعوة ، حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الداعى ، والواسطه » .

كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً ، بل تقبل الزيادة أبداً ، فلا يستغنى عن الداعى أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعى قد بين ما احتيج إلى بيانه، وشرح معالم الطريق .
وذهب .

فلو احتاج السالك إلى مراجعته في زوائد وإيرادات ، لم تمكن .
المراجعته في هذه الحالة .
فيقول :

ما هو طبيب علتى في هذه الحالة ؛ لأنه غاب عن إمكان المراجعته ،
فما علاجه ؟

نعم : فالجواب مسوق حسبما عود من شافى بيانه :
الجواب : وبالله التوفيق : ينبغي أن يتحقق المرید هنا أن من ظن
أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض : الفطام عما سوى الله ،
والتجرد له ، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود ، ومخطىء في ظنه أنه
كل المقصود ، ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى في الفرائض التى استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام ،
تقتصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن ، مثل رجل بنى له أبوه ،
قصرًا على رأس جبل ووضع فيه شجرة من خشب طيب الرائحة ، وأكد
الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، أن لا يخلى هذا القصر عن هذا
الخشب طول عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه .

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب في البر والبحر أو تاداً من العود والعنبر والمسك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانعمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال : لاشك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته ، فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض تقب القصر حية هائلة ، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك فتنبه حيث لم ينفعه التنبه إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحياة المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان .

أحدهما : انتفاع الولد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثاني اندفاع الحيات المهلكات برائحته وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم ، وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى :

﴿ ذَلِكْ مَبْلَغُهُمْ إِيْمَنْ الْعِلْمِ ﴾

وقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ .

والمغرور من اغتر بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه ، فهو منتف في نفسه .

ولقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمي : كذلك القصر : وأنه معشش حيات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة : المكتوبات والمشروعات .

بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ :

وقوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

فكما أن الكلمات المفووضة والمكتوبة في الرقية تؤثر بالخاصة في استخراج الحيات ، بل في استسخار الجن والشياطين .

وبعض الأدعية المنظومة المأثورة تؤثر في استمالة الملائكة إلى السعي في إجابة الداعي ويقصر العقل عن إدراك كيفيته وخاصيته ، وإنما

يدرك ذلك ، بقوة النبوة ، إذا كوشف السربها من اللوح المحفوظ .

فكذلك صورة الصلاة المشتملة على ركوع واحد ، وسجودين ، وعدد مخصوص ، وألفاظ معينة من القرآن ، متلوة مختلفة المقادير : عند طلوع الشمس وعند الزوال ، والغروب ، تؤثر بالخاصة في تسكين التنين المستكن في قلب الآدمي الذي يتشعب منه حيات كبيرة الرءوس بعدد أخلاق الآدمي ، يلدغه وينهشه في القبر ، متمكنا من جوهر الروح وذاته أشد إيلا ما من لدغ مكن من القالب أولا ثم يمرى أثره إلى الروح .

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم :

[يساط الله على الكافر في قبره تنين ، له تسعة وتسعون رأساً صفته كذا وكذا ...] الحديث .

ويكثر مثل هذا التنين في خلق الآدمي ، ولا يقيمه إلا الفرائض المكتوبة فهي المنجية من المهلكات ، وهي أنواع كثيرة بعدد الأخلاق المذمومة .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

* * *

فإذن في التكليف غرضان :

أدرك [هذا المغرور] أحدهما ، وغفل عن الآخر .
وقد وقع لـ « أبي حنيفة » مثل هذا الظن في الفقيهات ، فقال :
« أوجب الله في أربعين شاة ، شاة ، وقصد به إزالة الفقر ، والشاة
آله في الإزالة ، فإذا حصل بمال آخر ، فقد حصل تمام المقصود » .
فقال « الشافعي » رضى الله عنه :

« صدقت في قولك : إن هذا مقصود ، وركب متن الخطر في
حكمك بأنه لا مقصود سواء ، فبم تأمره : إذا يقال له يوم القيامة :
كان لنا سر في إشرارك الغير الفقير ، مع نفسه في جنس ماله ؟ كما كان
من يرمى سبعة أحجار في الحج يؤدي بدلها خمس لآل ، أو خمس
أكبر إذ لم يقبله .

وإذا جاز أن يتمحض التقييد في الحج ، وأن يتمحض المعنى
المعقول معاملات الخلق فلم يستحيل أن يجمع المعقول والتقييد جميعاً
في الزكاة ، فتكون إزالة الفقر معقولة ، والسر الآخر غير معقول » .
وزاد « أبو حنيفة » على هذا فقال :

« المقصود من « كلمة التكبير » الثناء على الله بالكبرياء ،
فلا فرق بينه وبين ترجمته بكل لسان ، وبين قوله « الله أعظم » .

فقال : الشافعي :

ومم علمت: أنه لا فرق في صفات الله بين «العظمة» و«الكبرياء»
مع أنه تعالى يقول :

«العظمة» إزارى و«الكبرياء» ردأى ، و«الرداء» أشرف
من «الإزار» وهلا استنبطت مقصود «الخضوع» من «الركوع»
وأقمت مقامه السجود...؟

لأنه أبلغ منه في الاستكانة .

فإن قلت : لعل لله سرأفى الركوع خاصة ، سوى ما فهمناه .

فلم يستحيل أن يكون له سر فى كلمة : «السلام» فلا يقوم
مقامه «الحديث» ، وكل خطاب للآدمى ، وأن يكون له سر فى القرآن
المعجز ، ولا يقوم مقامه غيره ، وقد أقام الترجمة مقامه ، وأن يكون
له سر فى الفاتحة ، وقد أقام مقامها سائر القرآن .

فإن كان يقول : المقصود معانى القرآن ، وتأثر القلب ، لا حروفه
وأصواته ، فانها آلات ، فهلا قال : المقصود من حركة اللسان تأثر
القلب ، فليكشف عن القراءة للجلوس مع الله تعالى ، على هيئته الإجلال
والذكر ، والسؤال : بضرورة الصلاة .

* * *

وجميع ما ذكر «أبو حنيفة» بطلان مظنون غير مقطوع .

أما إقامة القراءة بالقلب ، مع ترك حركة اللسان ، وملازمة الذكر ، مع ترك الركوع والسجود وصورة الصلاة ، فقطوع بيطلائها بالإجماع ، وهذا ما أنجر به ذلك الخيال الضعيف إلى خرق الإجماع ، ومخالفة الشرع القاطع .

فإذا كان المبتدئ في المعرفة مجرد عن الصور ، ويطرح الصور فيطفيء نور معرفته نور ورعه ، فيثور عليه التنين في قبره ، فيتعجب منه ، ويبدوله من الله ما لم يكن يحسب ، فإذا أصابته ضربة التنين قال : ما هذا ؟ فيقال : إنما كان ترياق هذا التنين صور الفرائض المكتوبة ، وإليه الإشارة بما يروى :

« إن الميت يوضع في قبره : فتأتيه ملائكة العذاب من جهة رأسه ، فيدفعها القرآن ، فتأتيه من جهة رجله فيدفعها الحج . . . » الحديث . . .
فإن أصر هذا المغرور على جهالته ، وقال : من بلغ رتبة الكمال ، كما بلغتُ أمِنَ هذا التنين وطهر باطنه عنه ، فيقال له : إنك مغرور في أمنك :

﴿ فَإِنَّهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

فبم تأمن أن يكون التنين مستكنا في صميم الفؤاد ، استكنا الجمر تحت الرماد ، أو استكنا النار في الرماد ، وإن مات فيعود حيا فإن

منبته ومنبعه هذا القلب الذى هو مظنة الشهوات والصفات البشرية ،
وقلع الحشيش لا يؤمن عوده مرة أخرى بأن يتجدد نباته مهما كانت
الأرض معرضة لانصباب الماء إليها من منابعها .

فكذلك القلب مادام مصباً لواردات المحسات والشهوات ،
لم يؤمن فيه عود النبات بعد الانقطاع والانبثات .

* * *

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : بداية حال إبليس ، وأنه كيف وُصف بأنه كان معلم
الملائكة ، ثم سقط عن درجة السكمال بمخالفة أمر واحد : اغتراراً
بما عنده من العلم ، وغفلة عن أسرار الله فى الاستبعاد ، ولم يسقط عن
درجته إلا بكياسته ، وفطنته وتمسكه بمعقوله ، فى كونه خيراً من آدم
عليه السلام .

فنبه الخلق بهذا الرمز ، على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة
بتراء ، وكياسة ناقصة .

الثانى : حال آدم عليه السلام ، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه
نهيها واحداً ، ليملم أن فى ركوب النهى إبطل (اعتقاد) السكمال خالقه .

الأمر الثالث : حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا
المغرور لعله يقول : إنه لم تسلم له رتبة الكمال .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يزل يلزم الحدود ، ويواظب على
المسكوبات إلى آخر أنفاسه ، بل يزيد في فرائضه وأوجب عليه
التهجد ، ولم يوجب على غيره ، وقيل له :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزْمِلُ قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾

وإنما أوجبت عليه هذه الزيادة ، لأن الخزانة كلما ازداد جواهرها
نفاسة وشرفا ، ينبغي أن يزداد حصنها إحكاما وعلوا ، فلذلك قيل
في تعليل إيجاب التهجد :

﴿ إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ
قِيلًا ﴾ فتبين له أن هذه الصلوات هي حصن الكمال فلا يبقى إلا به .

* * *

ولعل المغرور المعتوه يقول : إنه كان يواظب عليها إشفاقا على
الخلق لأجل الافتداء ، لا لحاجته إليها في حفظ الكمال .
فيقال له :

فلم زاد عليه في التهجد وجوبًا ؟

هلا قال : إن مبلغ درجة النبوة ، يستغنى عما يحتاج إليه غيره ، ولو قال لقبل منه ، كما قبل منه ، أنه أحل له تسعة من النساء ، بل ماشاء ، فإنه بقوة النبوة يقوى على العدل مع كثرة النساء ، كما قبل من المدرس أن يأمر تلامذته بالتكرار ، والتشهد ليلاً وهو ينام.

ويقول : إني بلغت درجة استغنيت بها عن ذلك .

وليس يترك أحد تكراره بهذه الشبهة .

واعلم هذا إذا اختاره ضحك الشيطان وسخر منه ، وقال له أنت أكمل من النبي والصديق ، وكل من واطب على الفرائض وعند هذا يقطع الطمع من صلاحه فهو ممن قيل فيهم :

﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذْ أَبَدَا ﴾

« مسألة »

أما ما ذكره من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التي نالها ، والكمال الذي بلغه فهو كذب صريح ، ومحال فاحش قبيح ، لأن التكاليف قسمان .

أمر ونهى :

فأما المنهيات : مثل الزنا ، والسرقه ، والقتل ، والضرب ، والنهيمه ، والكذب ، والقذف ..

فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال؟ وكيف يحجب عن القربة؟
والكمال كيف يكون موقوفا على ركوب هذه القاذورات؟
وأما المأمورات : فكالزكاة ، والصوم ، والصلاة .

فكيف تحجبه الزكاة ، ولو أنفق جميع ماله ، فقد دفع السوء
عن نفسه ؟

ولو صام جميع دهره ، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة ؟ فما
الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار ، في شهر واحد ،
هو رمضان .

وأما الصلاة فتقسم إلى :
أفعال وأذكار :

وأفعالها : قيام ، وركوع وسجود .

ولا شك في أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة ، فإن لم يصل ،
فيكون إما قائما ، أو مضطجما .

وغير المعتاد هو السجود والركوع ، وكيف يحجب عن القربة ،
ما هو سبب القربة ؟ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم :
(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

ومن عشق ملصكا ذا جمال، فإذا وضع وجهه على التراب بين يديه ،
استكانة له ، وجد في قلبه مزيج روح ، وراحة ، وقرب .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

(وجعلت قرّة عيني في الصلاة) .

فاستدامة حال القربة واستزادتها : في السجود ، أيسر منه
في الاضطجاع والقيود :

ومهما ألتى في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب كان ذلك
أعوزجا من حال إبليس ، حيث ألتى في نفسه أن السجود بحكم الأمر ،
سبب زوال قربته ، وكاله .

فكل ولي سقط من درجة القربة ، إلى درجة اللعنة ، فسببه ترك
السجود ، ومقتداه وإمامه إبليس .

وكل ولي أسعد بالترقى إلى درجات القرب قيل له :

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

ومقتداه وإمامه الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص أنه بعيد عن خداع إبليس ، مادام
في هذه الحياة ، بل لا ينجو عنه الأنبياء
. . . غير أنهم محفوظون كما قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

وأما أركان، الصلاة، فتكبير، وفاتحة وركوع وسجود، وتشهد،
لا فريضة إلا هذا ، فما وجه الضرر في قوله :

« الله أكبر ، وفي « الحمد لله » والاتجاه إليه ، واستعاثته ، وطلب
الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهذا مضمون الفاتحة .
وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى .

وإن صح ما يقوله مثلاً ، وفي كل يوم آلاف نفس ، فليصرف هذه
الأنفاس الممدودة إلى الذكر والسجود ، ولينقص هذه اللحظات
من درجات كماله ، ليأمن بهذه المكتوبات عن ضرر التين الذي لا يعتد
بشر سواه ويتخلص من خطر الخطأ في هذا الاعتقاد .

ولا شك في أن الخطأ ممكن فيه ، إن لم يكن مقطوعاً به .
وإن قال : إن عزوف القلب ، إلى حفظ ترتيب الأفعال ، والأذكار ،
هو الذي يشغلني عن درجة القرب ، فهو دعوى محال ؛ لأن الهدى
لا يحتاج إلى تكلف الحفظ ، بل المشتهر غيره ، إذا حفظ شيئاً مرة

يناسب حاله ، لم يعتبر اليقين به ، مع حفظ طريقه وإلحاحه ، بل يجد
من نفسه في ذلك هزة ونشاطاً .

فكيف لا تكون قرة عين العبد في مناجاة محبوبه ، وخدمته التي
رسمها وأرتضاها له .

« مسألة »

(معنى ارتفاع التكليف)

« عن الولي »

بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي ، أن العبادة تصير قرة عينه ،
وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه ^(١) .
وهو كالصبي يكاف حضور المكتب ، ويحمل على ذلك قهرا ، فإذا
اكتمل بالعلم ، صار ذلك ألذ الأشياء عنده ، ولم يصبر عنه ، فلم يكن
فيه كلفة .

وتكليف الجائع ليتناول الطعام اللذيذ ، محال : لأنه يأكله بشهوة
ويلتذبه ، فأى معنى لتكليفه ؟

فإذن تكليف الولي محال . والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى ،
لا بمعنى أنه لا يصوم ، ولا يصلي ، ويشرب ، ويزني .

وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه ، وتقيل قدميه

(١) وفي ذاك يقول ، صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه
تبعا لما جئت به) ويقول : (نعم العبد صيب لو لم يخف الله لم يمهه) .

والتواضع له ؛ لأن ذلك منتهى شهوته ولذته ، فكذلك غذاء روح
الولى ، فى ملازمة ذكره ، وامتنال أمره ، والتواضع له بقلبه ، لا يمكنه
إشراك القالب مع القلب فى الخضوع ، إلا بصورة السجود ، فىكون
ذلك كمالات للذة الخضوع والتعظيم ، حتى يشترك فى الالتذاذ بقلبه ،
وقال به كما قيل :

ألا فاسقنى خمرآ وقل لى : هى الخمر

أى ليدرك سمى لذة اسمه ، كما أدرك ذوقى طعمه .

بل تنهى لذة الولى من القيام لربه قانتا مناجيا ، إلى أن لا يدرك
الورم فى القدم .

فيقال له : ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

« مسألة ،

هل يسقط وقع العبادة من القلب بتكلف .

« المواظبة عليها »

أما قولك : إنه إذا تكلف المواظبة على العبادات المشروعة ، وقد
تغير اعتقاده فيها ، وسقط وقعها من قلبه ، فهل ينفعه ذلك ؟ فاعلم أنه .

أو لم يعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع مهلكات الباطل ، وجوز أن يكون لله تعالى سر فيها ، ليس يطلع عليه هو ، فعبادته صحيحة .

وإن اعتقد أنه لا فرق بين وجودها وعدمها ، وأنه لا يتصور أن يكون تحت خاصيته سر ، هو لا يطلع عليه ، فعبادته باطلة .

بل إيمان بالإلهية ، والنبوة ، تخيل باطل ؛ فإنه إذا لم يجوز في كمال قدرة الله تعالى سرا بعينه من الأسرار ، وخاصية من الخواص في الأعمال والأذكار فليس مؤمناً بكمال القدرة ، ويرى القدرة قاصرة على قدرة عقله وهو كفر صريح .

وإن جوز ذلك ، وإن لم يكن اعتقد أنه لم يكاف به ، فهو كافر بالنبوة جاهل بما علم بالضرورة من الشريعة ، فإنه ، صلى الله عليه وسلم ، بلغ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

وفهم الصحابة ، وأهل الإجماع ، وجوب الصلاة على العموم من غير استثناء ، فإن شك في إيجاب الرسول ، فلي تأمل القرآن والأخبار .

وإن شك في قدرة الله تعالى على نفسه في الأعمال والأذكار ، تكون الفريضة لأجله كالحصن له وجه الكمال ، والحراسة عليه

من المهلكات الباطنة فليرجع إلى نفسه ، وليطالبها أنها عرفت استحالة ذلك بضرورة العقل ، أو نظره ، وأنه كيف يعتقد ذلك ويرى في عجائب صنع الله تعالى ما هو فرع منه ؟

د	ط	ب
ج	هـ	ز
ح	ا	و

حتى إن هذا الشكل المشتمل كل ضلع منه على خمسة عشر عدداً من حساب الجمل ، إذا أثبت رقومه على خزف ، لم يصبه ألم ، بشرط مخصوص .

ولو أعطى المرأة التي تعذرت عليها الولادة عند الطلق سهلت عليها الولادة .

وعرف ذلك بالتجربة ، وأنه يؤثر بخاصية تقصر عقول الأولين والآخرين عن إدراك وجه مناسيته .

ويكثر مثل هذا في عجائب الخواص .

فن أين يستحيل أن يكون لنظم الكلمات الإلهية في الفاتحة - مع الجمع بين أعمال جميع الملائكة من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود - فإن كل واحد عمل صنف من الملائكة - خاصية في النجاة الأخروية ، أو في حفظ درجة الكمال والقرب ، أو دفع المهلكات الباطنة التي تلدغ في القلب ، لدغا أشد من لدغ الحيات والعقارب ، أو

مؤثر في سعادة آدمي بوجه آخر من الوجوه ، يقصر العقل عن ادراكه .
فن لم يؤمن بإمكان هذا ، فهو عديم العقل والإيمان جميعاً :
« مسألة »

هل يستغنى المرء عن وسيلة الوصول إذا وصل
أما قوله : المقصود المعرفة ، والاستواء على طريق السير إلى الله تعالى .
فقد استوى هذا السالك على الطريق ، وعرف الله ، وكان التكليف
وسيلة الوصول إلى هذا المقصود ، وقد وصل واستغنى عن الوسيلة
والمرشد ، وإن احتاج فقد توفى المرشد وتعذرت مراجعته .
فهذا أيضاً يفهم جوابه مما سبق ، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه أن
ما ليس حاصلًا في علمه ، فليس حاصلًا في نفسه ، وهو كعجوز ظنت
أن ما تخلو عنه حجرتها تخلو عنه خزانة الملك ومملكته ، وأنه ليس
في العالم سماء إلا سقف بيتها ، ولا أرض إلا عرصة بيتها .

وهذا جهل عظيم ، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإضافة إلى
مقدورات الله تعالى ، أقل من قطرة في بحر ، وإن سلم له وصوله درجة
الكمال ، فيجوز أن تكون صورة الصلوات الخمس بطريق الخاصية ،
سببًا للترقي إلى درجات الكمال التي نالها ، أو يكون سببًا لبقاء الكمال ،

أو دوامه ، أو يكون لرسوخه حتى لا يتزلزل في سكرات الموت .
فإن لم يواظب عليها ، فعساه أن يودعه الكمال عند الموت ، ويقال :
له إنه إنما كان يثبت هذا ، إذا عصفت رياح الموت بالمسامير الخمس ،
التي هي المكتوبات ، وكان يستحكم بها ، فلما خلا من المسامير ، تزعزع
وانقطع : فقد خبت وخسرت إذا فرحت بما عندك من العلم ، وسيقال
لكم يوم القيامة : معاشر أهل الإباحة .

(ما سلككم في سقر ؟)

فتقولون :

(لم نك من المصلين)

فعلاج هذا المغرور ؛ الضعيف العقل ، المريض القلب ، أن يتأمل
هذه الأمور ، ويجوز الخطأ على نفسه ، والسلام .

وحدة الوجود

١ - نريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة غير متوقعة -
حدة المناقشة في هذا الموضوع، وذلك أننا بصدد «وحدة الوجود»
ولسنا بصدد وحدة الوجود .

والموجود متعدد: سماء، وأرض، جبال، وبحار، أشجار وأناس،
الحل، وهو مختلف صلابة وهشاشة، لوناً ورائحة وطعماً، متفاوت ثقلاً
وخفة الحل .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن عربي والحلاج -
بوحدة الوجود .

وما كان لمؤمن، ولا يتأتى لمؤمن، أن يقول بوحدة الوجود .
وما كان للصوفية - وهم الذروة من المؤمنين - أن يقولوا - وحاشاهم -
بوحدة الوجود .

وقد تتساهل: من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدها كثير
من الناس: من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟

وتفسير ذلك لا عسر فيه: إن فريقاً من الفلاسفة في الأزمنة القديمة

وفي الأزمنة الحديثة يقولون بوحدة الوجود ، بمعنى أن الله — سبحانه —
وتعالى عن إفكهم — هو والمخلوقات شيء واحد .

قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني : والله عنده نهار وليل ،
صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل ، إنه — على حد تعبيره —
كالنار الممطرة ، تسمى باسم العطر الذي يفوح منها ، تقدس سبحانه
وتنزه عما يقول .

والله سبحانه وتعالى ، في رأى شلى ، في المصور الحديثة ، هو هذه
البسمة الجميلة على شفتي طفل جميل باسم ، وهو هذه النسائم العلية
التي تنعشنا ساعة الأصيل ، وهو هذه الإشرافة المتألقة بالنجم الهادي
في ظلمات الليل ، وهو هذه الورود اليانة تتفتح وكأنها ابتسامات
شفاه جميلة : إنه الجمال أينما وجد ؛ ولكنه أيضاً — سبحانه وتعالى —
القيح أينما كان : وكما يكون طفلاً فيه نضره ، وفيه وسامة ، يكون
جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم
بين جدرانها هذه الجثة وهذا الدود ، أستغفرك ربى وأتوب إليك .

ولوحدۃ الوجود — بمعنى وحدۃ الوجود — أنصار في كل زمان .

ولما قال الصوفية « بالوجود الواحد » شرح خصومهم الوجود
الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدۃ الوجود

وفرق كبير بينهما ، ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف .
وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم ، والغاية تبرر الوسيلة
كما يقولون .

وشئ آخر في غاية الأهمية كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة
الصوفية عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعري رضى الله عنه ،
رأى في فلسفته الكلامية ، أن الوجود هو عين الوجود ، ولم يوافقـه
الصوفية على هذه الفكره الفلسفية ، ولم يوافقـه الكثير من مفكرى
الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن
الأشعري أو يصيب ، وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا
الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه : أن الوجود غير الوجود ، وأنه ما به يكون وجود
الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد ، شرح خصومهم فكرتهم
في ضوء رأى الأشعري ، دون أن يراعوا مذهبهم ، ولا رأيهم : ففسروا
قولهم : بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد .

وهذا التفسير بهذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء المخلصوم .

وأمر ثالث ، يجب ألا نعيـره أدنى التفات ؛ لأنه أتفه — في منطق
البحث — أن من نعيـره التفاتاً ، وهو هذه الكلمات التى تناثرت هنا

وهناك ، مخترعة ملفقة ، مزيفة ، ضالة ، في معناها ، تافهة في قيمتها الفلسفية ، غريبة على الجو الإسلامي ، تنادي بصورتها ومعناها : أنها اخترعت تضليلا وافتياتا .

إنها هذه الكلمات التي يعزونها إلى الحلاج ، رضوان الله عليه ، أو إلى غيره : لا توجد في كتاب من كتبه ، ولم يخطها قامه ... لقد اخترعوها اختراعا ، ثم وضعوها أساسا تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال . ويكفي أن يتشبه بها إنسان فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة .

٢ - الوجود الواحد :

وهل في الوجود الواحد من شك ؟ إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذي أعطى ومنح الوجود لكل كائن وليس لكائن غيره ، سبحانه الوجود من نفسه إنه سبحانه الخالق وهو الباري وهو المصور : هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء .

ومن بعض معاني هذا التصوير قوله تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا المعلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وصلة الله بالإنسان إذن : هي أنه سبحانه ، يمنحه الوجود الذي
يريد له في كل لحظة من اللحظات المتتابعة ، فتشكل حياته في كل
لحظة بصورة أمدته الله سبحانه وتعالى بها .

وصلة الله بكل كائن : إنما هي على هذا النمط : إنه سبحانه مثلاً :
« يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من
أحد من بعده » إنه يمسكهما وجوداً ، ويمسكهما تدبيراً ، ويمسكهما
تماسكاً وتناسقاً ... إنه يمسك فيهما الكيف والكم ، وإذا ما سحب
إمداده عنهما تلاشتا كما وكيفاً .

إن الله سبحانه وتعالى : محيط بالكون ، مهيمن عليه ، قيوم السموات
والأرض ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل
خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر بحيث
لا يعزب عن هيئته وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

هذه القيومية : أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها في استفاضة
مستفيضة ليهز الإنسان هزة عنيفة تجعله لا يخلد إلى الأرض ولا يتبع
هواه ، وإنما يرتفع ببصره ويستشرف بكيانه إلى الملائكة على مستنقعها
نفسه من عبودية المادة : ليوحد الله سبحانه وتعالى في عبودية خالصة له ،

وفي إخلاص لا يشوبه شرك من هوى ، أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

٢ - ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :

إن الله سبحانه وتعالى : يوجه نظرنا في سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها في العادة غافلون .

« أفرايتم ما تمنون ؟ ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ...
« أفرايتم ما تحرثون ؟ ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » ...
« أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ ! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .. »
« أفرايتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » ...
وعلى العكس من ذلك : لو شاء الله لما خلق هذا الفرد ، ولجعل الزرع حطاماً ، ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه ، بيده الأمر سلباً وإيجاباً ، ويده أمر الخلق بإيجاداً وإعداماً ..

أرأيت إلى هذه الرمية التي ترميها : إنك مارميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ..

أرأيت إلى الإلتصار في الجهاد ؟ إن هذا الإلتصار من عند الله ؛ أما القتلى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ورزق الإنسان هذا وطعامه :

« فليَنظُر الإنسانُ إلى طعامِهِ أَنَا صَبِينَا المَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ، فَأَبْنَيْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَبْنَا وَقَضَيْنَا ، وَزَيَّنَّا وَنَحَلْنَا وَحَدَّائِقَ غَلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعَا لَكُمْ وَلَأَنْعَامِكُمْ ... »

٤ — هذه الهيمنة ، وهذه القيومية ، يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتا ، إنهم يَمرون بها مرور الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل : إن الله سبحانه وتعالى ، لا يحتل من شعورهم درجة أيا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، إنما هو ملء البطن ، أو كنز الذهب والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان : إنهم يَمرون بآيات الله فلا يشهدونها ، وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعمائه وآلائه فلا يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر ، إن الله سبحانه وتعالى : لا يحتل في قلوبهم ولا في تفكيرهم ، ولا في بيئتهم ، ولا في حياتهم ، قليلا ولا كثيرا ...

والطرف الآخر المقابل لهذا : هو هؤلاء الذين انغمسوا حقا في محيط الإلهية : سبّحوا في بحارها ، واستنشقوا نسائمها النديّة ، وغمرهم لآلائها وضيائوها ، لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه وآلائه التي تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعماءا لاء :

(لئن شكرتم لأزيدنكم ...)

لقد اتقوا الله حق تقاته فعلمهم الله :

لقد اکتفوا بالله هاديا ونصيرا ، فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ،
ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم ، وأخذوا شيئا فشيئا ، يحاولون
تحقيق التوحيد : قولا ، وعقيدة ، وتدوفا ، وتحقيقا ، وأخذوا يرون
في « أشهد ألا إله إلا الله » معاني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تخطر على بال اللاهين ،
الذين شغلهم أموالهم وأهلهم ، وبدءوا يحطمون الشرك : يحطمون
أصنامهم وأوثانهم . من النفس ، والهوى ، والشيطان ، ومن الفرائز الحيوانية ،
والفرائز الإنسانية ، وانهار الشرك حتى من همسات الفؤاد : لقد انهار
الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفي ، وثبت في أذواقهم واستقر في أحوالهم
ومقاماتهم : أن « لا إله إلا الله » وأنه « أينما تولوا فثم وجه الله » .
وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ، وهو
أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشريهم : إنه يغمر كياناتهم : فلا يرون
غيره سبحانه ، لا يرون غيره ، قيوم السموات والأرض ، ولا يرون غيره
مصرفا لليسير من الأمور ، وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكا للملك :
يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء .
لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي
قلوبهم من قبل ذلك ومن بعده : يشغله كله فلا يدع فيه مكانا للأغيار .

هـ - وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر إلى الله تعالى : أخذوا في محاولة جاهدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاق إلى المادة ليتطلع إلى السماء :

لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس إلى الله ، عن طريق آلائه التي تقهرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه ، سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى : في الزهرة تتفتح ، وفي الزرع ينبت متجها إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر يتألق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها ...

وفي كل هذا الإبداع الساري في الكون !

أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملا وهو العزيزُ
الغفور .

الذي خلق سبعَ سمواتٍ طيبا ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ،
فارجع البصر هل ترى من فطور ؟

ثم ارجع البصر كرتين ينقلبُ إليك البصرُ خاسئا وهو حسير !) :

وكانت تعبيراتهم متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة

لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم - في تعبيراتهم - يشرحون : أن الله سبحانه وتعالى ؛ الممد الوجود لكل موجود : إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشئ بالمشي ، والمتحرك بالحركة ...

إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة : الذي يقطع ، وليست السكين هي التي تقطع ، وهو الذي يحرق ، وليست النار هي التي تحرق ، وهو الذي ، حينما يريد ، يقول للنار كونى برداً وسلاماً ، فتكون برداً وسلاماً ...

ومهما عبر الصوفية ، في هذا الميدان ، عن الوجود الواحد ، فقالوا في ذلك ، وزعم الناس أنهم أسرفوا ، واشتطوا ، فإنهم : سوف لا يبلغون المدى الذي بلغته تلك الآية الكريمة التي تمثل في روعة رائعة ، الهيمنة المهيمنة ، والاستغراق القاهر ، والجلال الشامل ، والتي لا تفي وحدة متعددة ولا اتحاداً متطابقاً بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود والآية هي :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن » .

وهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إنما هدفها أن تدفعنا دفعاً إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى ، مهيمنة ، وهيمنته مهيمنة ، وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله

في كل أمر من أموره ، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بان :
« لا إله إلا الله » .

وما فعل الصوفية أكثر من ذلك ، إنهم مهتدون بهدى القرآن
والسنة ، يريدون للإنسان : أن يكون ربانياً ، فإذا ما استمر الكثير
من الناس يخلدون إلى الأرض ، وينظرون دائماً إلى أسفل ؛ فليس ذلك
ذنب الصوفية ، فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله ، خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاق إلى الأرض وبالنظر
إلى أسفل ، وإنما أخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ،
ويوجههم إلى الله ، تعالى ، فهؤلاء : إنما يحاربون الله ورسوله ، وجزاؤهم
معروف .

٦ — وقد تنساءل : فيم إذن حوكم الحلاج وقضى عليه بالقتل ؟

إن أمر هذه القضية : قضية الحلاج : معروف سرها ، وما كان
سرهما خافياً في يوم من الأيام .

انقد كان الحلاج قوة جارفة ، كان مركز اللجاذبية لا يضارع ، يلتف
حوله الناس أينما حل ، ويسبرون معه أينما ارتحل .

وكان — ككل صوفي — : يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ،

صلى الله عليه وسلم ، وكان آل البيت إذ ذاك يطعمون في أن تكون الدولة لهم ، وما كان بنو العباس يطعمنون إلى شخصية كشخصية الحلاج المحبة لآل البيت ، نسل رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه .

ومادام الحلاج دعاية قوية تسير في كل مكان ، وتتجه إلى كل بلد ، فيجب - حفاظاً على أمن الدولة وتحصينا لاستقرارها - : أن ينسكل بالحلاج .

وما كان مقتل الحلاج دينياً فقط ، كلا ، وإنما كان سياسياً محتاً . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا ، أن يأتوا بشهود الزور ، وأن يمدوا القضاة بالمال والترقية ، وأن ينفذوا أهواءهم ...

فكان ما كان من قضية ومن قتل ... والدين من كل ذلك براء والألفاظ التي ينسبونها للحلاج ليست في كتاب من كتبه ، وكتبه - وبعضها موجود - لاتسند خصومه ولا تؤيدهم .

هذاما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة :

إن المنطق الصحيح : ألا يفتى المهندس في أبحاث الأطباء ، وألا يحكم الأديب باعتباره أديباً ، في أعمال المهندسين ...

ومن المدالة - على هذا الوضع - : ألا يحكم على هذه القمم

الشاذغة ابن عربي ، الحلاج ، ابن الفارض ، من لم يبلغ مداهم أو يقاربه .

لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلانا ، ينتقد ابن عربي في المجلات ، فقال ، رضوان الله عليه : وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال الأسد ، إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع ، وليس من حقها أن تتحدث فيما تفعله السباع ، ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الشافعي - رضوان الله عليه - فإنه يقول عن خصوم سيدنا محي الدين : « إن حكمهم حكم ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته من مكانه وتذهب الريح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان الدنيا » هـ .

والرأي الذي لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الإمام الشعراني عن الصوفية عامة ، وعن سيدنا محي الدين الدين خاصة : « ولعمري ، إن عبَاد الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأوليائه الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال في حقهم ، رضوان الله عليهم » ا . هـ

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ، أو يقارب المستوى ، وحينئذ
سيقول كما قال أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه : رضى الله عن
سيدنا محي الدين ، ورضى الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض ، ونفمنا
بهم ، وبكتبهم ، هذا وبالله التوفيق .

- ٤ -

السجود^(١)

- ١ -

يروى الإمام مسلم - رضى الله عنه - فى صحيحه : عن أبى فراس
ريعة بن كعب الأسلمى ، - خادم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومن
أهل الصفة - رضى الله عنه - قال :

كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتته بوضوئه
وحاجته ، فقال : سلى :

فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود »

والسجود إذن مما يعين على ترويض النفس ، لتتزكى ، وهو بذلك
من الوسائل التى توصل إلى الجنة .

(١) إن موقف الصوفى من التعاليم الدينية هو موقف الساجد لها - وبدون
ذلك لا يكون صوفيا . ومن أجل ذلك وضعنا هذه الكلمة فى هذا الفصل .

وفي هذا المعنى ، يروى مسلم أيضاً ، عن أبي عبد الرحمن ، ثوبان مولى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذي يريده رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - في هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق في النفس الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته وودده ، ويتمثل فيه الخضوع ، لهذا الجلال ، وهذه المظمة ، والإتيان المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية ، وأوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمة للعالمين يقول الله تعالى ، لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن التطامن والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله ، سبحانه وتعالى ، وكان بذلك سبيلاً إلى الجنة ، وإلى أكثر من الجنة وهو القرب من الله .

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ واسجد واقترب ﴾ :
ويقول ، صلوات الله وسلامه عليه ، في هذا المعنى : أقرب ما يكون
العبد من ربه ، وهو ساجد » ولقيمة السجود الكبيرة . . . عبر عن
الصلاة أحياناً بالسجود . فصلاة الضحى ، يسمونها : « سجود الضحى » .
ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم
لآياته واستجاباتهم لأمره ، يقول الله تعالى :
﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين ، إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا
بحمد ربهم ، وهم لا يستكبرون ﴾ .
والذين هدام الله ، واجتباهم :
﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ .
ومن صفات عباد الرحمن ، التي يزيهم الله بها أنهم : ﴿ يبيتون
لربهم سجداً وقياماً » :

على أن حادثة من الحوادث قصها القرآن في غير ما موضع منه ،
تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعاني الخاصة بالسجود ، تلك هي
حادثة آدم والملائكة .
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْتَوْفٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٦٠﴾
بهذا النبأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيروء
سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

لم يشذ منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس ، وهو كائن يختلف عن
الملائكة ، وعن الإنسان إنه من فصيلة الجن .

وكان يعبد مع الملائكة ، ويسبح معهم ، حتى كان يلقب
« بطاووس العباد » لكثرة عبادته وتفانيه في العبادة ، ولكنه لما سمع
الأمر الإلهي بالسجود ، لم يسجد ، لقد أبى ، والإباء ضد السجود ،
وامتكبر ، والاستكبار : ينافي الخضوع .

ويتحدث القرآن عن ذلك في صراحة فيقول :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ امْتَكَبَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

هذه قصة معروفة ، نر عليها فلا نكاد نغيرها التفاتاً ، بيد أنها
جديرة بالتأمل والاعتبار .

والتضاييق التي نريد أن نذكرها عظة واعتباراً ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي ما يلي :

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعّموا برضوان الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمته سبحانه .

٢ - إنه طرد ، لأنه لم يستجيب للأمر الإلهي مع علمه بأنه أمر إلهي .

٣ - وكان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه ، وعن تمرد في فطرته .

٤ - لم تلغ عبادته كبريائه ، فهي إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً ، لنفت الكبرياء وأزالته ، هي إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء . كما تمثل في مخالفة الأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي أراد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستنجداً بمنطقه وعقله قائلًا :

« أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » .

ولم يكن هذا إلا منطق الهوى ، ومنطق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس عبادة له ، وإنما هو عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله ، وحسب .

٦ — والموقف السليم ، إذن هو مما يرشد إليه روح القصة ، بل وتعبيرها من أنه عند الأمر الإلهي : يجب أن تكون الاستجابة فورية ، هذا هو ما يرشد إليه في صراحة كلمة : « إذن » في قوله تعالى : ﴿ مامنك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ .

ومن الطبيعي أن تكون هذه الفورية في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .

٧ — والقضية الأخيرة التي نختتم بها هذه القضايا ، أو هذه المفاهيم المستنتجة من القصة هي أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول ، فليس معنى ذلك ، إلا التصريح الصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقى في مدارج السمو الروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن .

ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، أن يختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الإنسان والملك .

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان ، لاتنتهي إلى حد : « ما وسعني أرضي ولا سمائي ، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن » .

فباب الفيوضات الإلهية إذن مفتوح على مصراعيه ، والقرب من الله ميسور .

وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره
برضوانه .

أما المبدأ الهام ، الذى نريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه ، فهو
أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعلم علماً يقينياً أن
الله موجود ، وقد علم فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . . . ومحمداً
عليهم الصلاة والسلام .

إنه يصدق بأن لا إله إلا الله ، ويصدق بأن عيسى وموسى وبقية
الأنبياء رسل الله ، ومعرفة بهذه المسائل هى من القوة والثبات بحيث
تزيد على معرفة كثيرة من المؤمنين . .

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة
فحسب ، وإنما هو خشوع واستجابة : إنه سجد ، فإذا لم يتأت
السجود فلا إيمان^(١) .

لقد كان سعيد بن جبير - رضى الله عنه - يقول : « ما آسى على
شئ من الدنيا إلا على السجود » .

(١) يقول الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فى شجر بينهم
ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرصاً مما ترضيت ورضوا تسليماً) .
ويقول ، صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما
جئت به » .

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجاد »
لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى
الذهن - ليكون على النقيض من إبليس . ونحتم هذه الكلمة بقول
الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله - معه في حال حياته ، وعلى
مبادئه الإلهية بعد وفاته - : ﴿ سَيَأْهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ :
إنه النور الذي يشرق على جباههم ، لسجودهم ، لله وحده ، وهو
الغُرَّرُ التي ستكون في وجوههم يوم القيامة من أثر خشوعهم لله .

- ٣ -

ويتنافى السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره - سبحانه
وتعالى - أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القبيل ، إنما هي : كبرياء ،
وهي إبليسية .

وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن
يقوموا بدور إبليس في المجتمع الإنساني ، إنهم هؤلاء الذين يرفضون
الوحي الإلهي جملة ، أو يحاولون أن يزنا الوحي بعيزان العقل ،
فيرفضوا ويقبلوا ويؤولوا ماشاء لهم الهوى ، ويوفتوا ويلغقوا ،
ويوجدوا بعقولهم المآزق التي يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم
يحاولون الفرار منها .

وخلفاء إبليس هم أولا وبالذات : الملاحدة :
إنهم على نسق التعبير الجارى : إبليسيون أكثر من إبليس : ذلك :
أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثا ولا رسالة ،
ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك ، ففاقوا زعيمهم ، ولكنهم بتفوقهم
على زعيمهم قد أرضوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلا : «لَأَفْعُدَنَّ
لَهُمْ (لبني آدم) صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ
خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» .
ولقد نجح إبليس نجاحا تاما فى طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأخس درجات الملحدين لاشك ، إنما هى
درجة هؤلاء الذين اعتقدوا — على حد تعبير الغزالى — « أن العالم
لم يزل موجودا كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من
النفطة ، والنفطة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبدا » .
وإذا ما سألت هؤلاء : « أخلقوا من غير شئ ، أم هم الخالقون ؟ »
كانت حيرتهم فى الإجابة كافية فى البرهنة على أنهم لا يتبعون إلا
أهواءهم ، وأنهم ليسوا إذن إلا عبيدا لإبليس .

وهناك الإلحاد بانكار البعث . . .

والإلحاد بانكار الرسالة . . .

يبد أن هؤلاء وأولئك وتلكم يصدق عليهم :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضلّه الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة : فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ؟ ﴾
والطريق الذي ينقذ به هؤلاء نفوسهم وقلوبهم إنما هو المبادرة بالسجود لله لا للهوى المردى ، فيكشف الله لهم في كل شيء وتظهر لهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . وإن من أخذت اختراعات إبليس في هذا الزمن الحاضر إنما هو المذهب المسمى ، الوجودية : وهو مذهب يدعو كل إنسان أن يحقق وجوده حسبما يرى ويتبع لما يريد ، غير متقيد بعرف ولا عادات ولا تقاليد ولا دين ولا أوضاع أيّا كانت ، وهو إذن يهدم نفسه بنفسه ، لأنه لا يقوم على أسس ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحسن تشبيهه للوجودى هو ما قاله أحد كبار الكتاب الغربيين :

« إن الوجودى مثله ، كمثل الكلب الذى يجرى دائرا حول نفسه ليمسك بذنبه ، فلا يدرك ذنبه ، وهى لعبة يلعبها الكلاب ، حينما يجدون الفراغ فيلهون بما لا نتيجة له »

على أن هذا المذهب الوجودى قديم : إذ أنه المذهب السوفسطائى اليونانى ، وهو مذهب يظهر دائما فى عصور الانحلال ، وفى البيئات المنحلة ولا وجود له فى عصور الجد ولا فى البيئات الجادة : ذلك أن المجتمعات الناهضة الجادة ، لا تبيع لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب — حينما تلهو الكلاب — فى الجرى وراء أذنانهم ليمسكوا بها .

فالوجودية ، إذن ، اختراع إبليس ، لإخراج طائفة من البشر
عن نطاق السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

وخلفاء إبليس ثانيا هم : طائفة الفلاسفة العقليين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية — مهما حاول المتفلسفون تزييف أهدافها
وتزيين غاياتها — ليست إلا محاولة لتحكيم العقل فيما أتى به الوحي
أو بتعبير أدق هي محاولة لإحلال العقل محل الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تختزع عقليا ما فرغ منه الوحي
في قضاياه ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلي بجوار الدين الإلهي ،
وهذا الدين العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك
يختلف في هذا القضية أو تلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة منشعبة بالدين الإلهي : يغمر قلبها الإيمان ،
ويغمر وجدانها الهداية ، حاول المتفلسفون — في طريقة إبيلية —
أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجعلون موقف اختراعاتهم العقلية بالنسبة
للدين ، موقف الند للند ، فيحاولون التوفيق ، فيخططهم التوفيق ، فيما
يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم — قلوبهم وأفئدتهم — هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم هم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ،

وظلمونهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .

والفلاسفة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإنها ، طائفة المعزلة من علماء الكلام ، إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها ، سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعمالهم هذا موضع المشركين لله سبحانه ، يلزمونه سلباً ، ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ أفمن زين له سوء عمله ، فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

ثم إنهم خاضوا فيما نصح الدين بعدم الخوض فيه ، كالثبات الإلهية والصفات ، وكالقدر .

وكان لابد وقد اتبعوا - أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا ، وتذهب

بهم الأهواء كل مذهب : فكانوا فرقا وأحزابا شتى ، لانسداد تدخل تحت حصر .

وكل من نهج النهج العقلي في الدين في العصر الحاضر إنما هو تابع للمعتزلة ، ولامناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده إنما هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها : ذلك أنها تضع قضايا الدين . . . في ميزان عقلها فتبنى وتثبت ، حسبما تقتضيه الظروف والملايسات ، أى حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أيا كانت وفي أى مكان وجدت ، وفي أى زمان نشأت :

لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وإنما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت إلى مالا يكاد يحصى من الفرق : « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » .

وسبيل المؤمنين ، إنما هو السجود لله وحده ، وذلك أيضا سبيل الراسخين في العلم ، إذ الراسخون في العلم هم دائما مؤمنون ، ساجدون لأمر الله ، وإليهم تشير الآية الكريمة :

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو

رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟
إنما يتذكر أولوا الألباب ﴿١﴾ .

ومن البديهي أن المؤمن الحقيقي ، هو وإبليس على طرفي نقيض
ويرسم الله سبحانه وتعالى ، صورة المؤمن فيبين تعارضها مع كل
الصور الإبلسية على تفاوتها واختلافها ، ويبين جزاءها عنده فيقول
سبحانه :

﴿٢﴾ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ، وسبحوا
بمحمديهم ، وهم لا يستكبرون ؛

تتجافى جفونهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ، ومما
رزقناهم ينفقون .

فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون
هذا وبالله التوفيق .

الفصل الثالث

التصوف والمعرفة

- البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث .
- في وسيلة المعرفة .
- التصوف والشك .
- الشك ومدارج السالكين .
- الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة .
- مشكلة المعرفة الصوفية .

البحث العقلي فيما وراء الطبيعة عبث

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ نشأة الأبحاث في المفاهيم ،
ولكننا قد لانعدو الصواب ، إذا قلنا : إنها نشأت منذ نشأة
الإنسان ، على ظهر البسيطة .

وقد لانعدو الصواب أيضاً ، إذا قلنا : إنها على مر الزمن ، قد
اختلفت ؛ فيما يتعلق بمناهج البحث ، واختلفت فيما يتعلق بالنتيجة .
وقد انتهى الاختلاف إلى النتيجة الحتمية وهي أن يكون شاملاً
لكل المساتير : فن إنكار مطلق للألوهية ، وللروح ، إلى إيمان مطلق
عام ، يفرق في الوهم ، ويبعد في الضلال ، حتى يصل إلى التخريف
بأوسع معانيه .

وبين هذا وذاك ، مذاهب لا يحصيها العد : فن تشبيه مطلق ،
إلى تنزيه مطلق ، إلى تشبيه يشوبه التنزيه ، أو تنزيه مشرب بالتشبيه ،
ومن حلول ، إلى اتحاد ، ومن وحدة الوجود ، إلى التفرقة بين العابد
والمعبود ، إلى مذاهب يبعث اختلافها الدوار في الرأس ، وتبعث
براهينها الشك في جميعها ، إلا من عصم ربى ، فوفقه إلى طريق
الرشاد .

أجل : إلا من عصم ربى ، ذلك أن اتباع الطريق السوى ، توفيق من الله ، وليس هو من اكتساب العبد^(١) ؛ فالحلل - مثلا - عقيدة راسخة ، استساغتها البيئات المسيحية - وفيها من أساطين المفكرين مالا يحصى - منذ ألفى سنة . وقد تسابقت العقول فى البرهنة عليها ، حتى أقامتها على دعائم فلسفية ، منطقية ، خلبت عقول الملايين من بنى البشر ، فأمنوا بها ، وضجوا فى سبيلها .

والتشبيه قد برهن عليه ذووه ، ببراهين عقلية ، وأخرى عقلية . ووحدة الوجود بالمعنى الفلسفى ، لها أنصارها المتحمسون لها ، الذين يرون أن ماعداها لغو ، أو ضلال .

ولو درسنا تاريخ العقائد لوجدنا أن كل فرقة تستند إلى منطق ، وكل عقيدة قد سادت فى فترة من الزمن ، أو فى بيئة من البيئات . وكل بيئة تعتقد أن مذهبها خير ما أخرج للناس : « وكل حزب بما لديهم فرحون » .

أما الصراع بين أدلة الفرق المختلفة ، فهو صراع دام ، تنهافت فيه الأدلة ، مشخنة بالجراح ، ولكنها تأبى - فى غطرسة - أن تعترف

(١) قال الله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ؛ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . » .

بالهزيمة ، فتأخذ في تضميد جراحها ، لتعاود النزال من جديد ، واتسهار
- أيضاً - من جديد .

ولو سرنا حقيقة في المنطق إلى غايته ، لو صلنا إلى الحيرة ، والشك
في كل ما أنتجته العقول الإنسانية من آراء .

ومع ذلك ، فاليقين موجود ، ومهما حاولت أن تنكر إشراق
الشمس - إذا كانت مشرقة - فسوف لا يستجيب لك شخص ما ،
وسوف لا تستجيب أنت لنفسك ، وهـكذا الأمر في جميع المحسات .
بيد أن فلك ميدان ، والغيبيات ميدان آخر .

ربما يقال : إنه من الطبيعي : أن يكون الحس طريق المعرفة
المادية ؛ وأن يكون العقل طريق المعرفة العقلية ، ومادامت المغيبيات
من المعقولات ، فالطريق إلى معرفتها ؛ إذن إنما هو العقل ؛ ومادامنا
قد وثقنا بالحس في معرفة الماديات ؛ فلنلتزم بالعقل في معرفة المغيبيات .
هذا النمط من التفكير يبدو موقفاً ؛ ولكنه محض سفسطة ،
فالتصور - وهو أساس المعقولات - لا يقوم إلا على الحس ؛ وإذا
جردته من المدركات الحسية ، فقد أزلته إزالة لا تترك له من أثر ، ومهما
أغرق الشعراء في الخيال ، ومهما أبعدوا في الوهم ، فابتداعاتهم ، وصورهم
المبتكرة ، منتزعة من الواقع . والاختراع : تنسيق للمحسن على نمط

جديد، ولا فرق مطلقاً، بين ذهن البقرى الفذ، وذهن الجاهل الغبي،
فى أن كلا منهما يعتمد على الواقع المحس، فى تصورہ، وفى تخيله .

والصورة المبتكرة - من حيث عناصرها - أسطورة من الأساطير ،
أو وهم من الأوهام التى لا وجود لها ، وما دام الأمر كذلك ، فالتفكير
المجرد عن المحسّات معدوم^(١) . وما دامت المساتير لا شأن لها بالحس ،
فكل تفكير فيها لا يؤدى إلى نتيجة .

(١) منذ سنوات كتبت بحثاً عن التخيل ، أقتطف منه ما يلى ، توضيحاً لفكرة
ارتباط التصور والتخيل ، بالمحسّات .

(١) الخيال والواقع ، إذا نظرنا إلى العناصر التى تكون مادة التخيل ، فإننا
لا نجد فيها شيئاً جديداً ، وكل ما للتخيل لا يعدو أن يكون تنسيقاً ، فصورة
أبى الهول هى وحدها الجديدة . أما ما تكون منه - نعى جسم الأسد ورأس
الإنسان - فليس ذلك بجديد .

وكل ما لم يخضع لحواس الإنسان فإنه لا يمكن للإنسان أن يتخيله إلا إذا
شبهه بما وقع تحت حواسه ، وما تصور الناس الغول والعنقاء والجن والشياطين
إلا على مثال ما سبق أن رأوا .

وحينما أراد المسيحيون أن يصوروا جبريل ، صوروه على صورة رجل له
جناحان .

وتورع جمهور المسلمين فيما يتعلق بالله فقالوا : كل ما خطر ببالك فانه بخلاف
ذلك ، إذا أن كل ما خطر بالبال لا يمكن إلا أن يكون مادياً محساً . وكلّ الله
يقضى تنزيهه عن المادة وعلائقها :

أما هؤلاء الذين قصر تفكيرهم فإنهم تخيلوا الله — جل وعز — على صورة رجل ضخم :

ولعل الكثير قد قرأ حكاية ذلك الرجل الساذج ، الذى حضر مجلساً من مجالس المعتزلة . فسمعهم يتحدثون عن الله ويقولون : « لأنه سبحانه ليس بفوق ، ولا بتحت ، ولا يمين ولا بشمال ، ولا بخلف ، ولا بأمام ، وليس بمادة ولا بعرض ، فخرج ثائراً يعلن أن : هؤلاء قوم يريدون أن يقولوا : أن ليس فى السماء إله ، : هذا الرجل الساذج لم يمكنه أن يتخيل موجوداً خالياً من المحسات ولم يمكنه أن يعقل ، ألم يتخيله ، فاعتقد : أن المعتزلة ينكرون الله .

هذا ، وحاول أن تتخيل أنت ما فى الجنة مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فإنه سوف لا يخطر لك على قلب ، ذلك أن ما يخطر على القلب ليس شيئاً آخر غير ما رآته العين ، أو سمعته الأذن .

ثم إذا كنت قد قرأت ما قيل عن مدينة المستقبل ، وما كتب عن المدينة الفاضلة ، فقد رأيت أنه — رغم إرادة الإغراب أو التجديد — لم تخرج تلك المدينة عما رأيت ، سوى أنه مكون تكويناً جديداً .

لا يخرج الخيال إذن ، فى عناصره عن الواقع ، ولا يمكن الإنسان أن يتخيل إلا المحس .

(ب) التخيل والبيئة : إذا قرأت تشبيهاً للعاب المرأة بماء غير آس ، وللتبيين المتشابهين بأنهما كخفى بعير . فلا أظن أنه من العسير عليك أن تعلم الموطن الذى تبع منه هذان التشبيهان ، وربما تكون قد قرأت ما أجاب به ابن الرومى ، حينما عاب عليه بعضهم بأنه لا يتخيل كستخيل ابن المعتز ، ضاربين له مثلاً ، تشبيه = (م ٢٣ — المقل)

لقد أطال العلماء في بحث الآراء الموضوعية، والآراء الذاتية، ورأوا أن الأولى لا تقبل جدلاً : ذلك لأنها تعتمد — الاعتماد كله — على الحس، أما الآراء الذاتية — وهي قائمة على أسس أخرى — : فإنها مجال للأخذ والرد، ولا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة حاسمة مهما طال النقاش . وإذا كانت مادة الأخلاق، هي الميدان الخصب للآراء الذاتية، فإن الإلهيات — وهي حجب ومساير — ميدان أخصب : لذلك لا يبعدو البحث فيها أن يكون « علماً كلامياً »، أو « علماً جدلياً ».

ومهما أشاد المعتزلة بالعقل، ومهما رفعوا عن شأنه : فن البديهي : أن الميدان الذي يتخبط فيه العقل تخبطاً لا نهاية له : إنما هو ميدان ماوراء الطبيعة .

= الهلال « بزورق من فضة أثقلته حولة من عنبر » فأجاب هذا يصف آية بيته . وأظنك تفر معي أيضاً : أن البيئة العليا في العصور الوسطى لم تكن تسمح باختراع الراديو فلم يخترع . .

هذا وكثير غيره يرشدنا إلى ما للبيئة من أثر على التخيل ، وأن كل إنسان يتأثر تخيله بما في بيئته من صور طبيعية ، ومن ثروة ثقافية .

والأمر لا يقتصر على ذلك ، بل يتغير تخيل الشخص بتغير بيئته .

وكما كثرت المثل العليا في بيئة ، وكما سمت موازينها الأخلاقية ، كلما كثر الرشد فيها وابتعد الخيال عن دائرة الآثام .

ومن الواضح أن مذهب المعتزلة ، على ما فيه من روعة ، ودقة ،
وجمال ، وعلى ما أداه من خدمات جليلة ، في ميدان المنطق الديني ،
لا يقوم على أساس « معقول » .

* * *

قد تقول : إن العقل - وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب
العقلين عموماً - له مقاييسه ، وله موازينه التي لا يتطرق إليها الخلل .
إن المنطق ، القديم منه والحديث : آلة تنصم مراعاتها الذهن عن الخطأ
في التفكير ، ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً ، حتى جطت من
الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال ، والتفرقة بين
الحماية العمياء ، والصواب الأصواب .

فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل ، وهما فيصّل
التفرقة بين الغنى والرشاد : فن التجنى على المعتزلة وعلى العقلين -
وقد اعتمدوا عليهما - أن نصم مذاهبهم بجافاتها للطريق
الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنه لا غبار عليها . بيد أنها عند
النظرة الفاحصة تنزل وتنهار .

أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم ، والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعنة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معينة تختلف - في قليل ، أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف .

وأما ثانياً : فلأن الفكرة - المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح - فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقية ، وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هي كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفاهيم العامة والقضايا الكلية -

فإنه :

١ - مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسات ، إنه تتبع جزئيات ، لا يخرج عن نطاق المادة ، أما المساتير فهو بعيد عنها كل البعد ، إنها لا تدخل في دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب لينصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ - ثم إن الاستقراء : تام^(١) ، وناقص والتام - كما يعترف

(١) الاستقراء : وهو حكم على كلى لوجوده في جزئيات ذلك الكلى :-

المناطق - لا ثمرة له ، ولا فائدة فيه .

أما الناس - وهو الماهم في نظرهم - فإنه في رأيهم أيضا - ظني وهو - لذلك - عرضة للتغيير ؛ في كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة ، شاملة ، ولكن المعادن لم تكتشف ، بعد ، بأكملها ، ومن الجائز أن يكتشف في الغد معدن لا يتمدد بالحرارة . إنها إذن قضية مؤقتة ، ظنية ، يتبرأ منها اليقين الفلسفي .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله - وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث مما يزيل هذه القيمة أو يغيرها » ^(١) .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة ولا شأن لها بما وراءها .

= إما كلها : وهو الاستقراء التام الذي هو القياس المقسم . وإما أكثرها : وهو الاستقراء المشهور ، ومخالفته للقياس ظاهرة لأنه في القياس يحكم على جزئيات كلي لوجود ذلك الحكم في الكلي ، فالكلي يكون وسطا بين جزئيه ، وبين ذلك الحكم الذي هو الأكبر ، وفي الاستقراء يقلب هذا فيحكم على الكلي بواسطة وجود ذلك الحكم في جزئياته ، « عن البصائر النصيرية » .

(١) مقدمة لجر الإسلام .

٢ - ظنية لاتعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبنى عل الاستقراء ، إذ هو منطوق دائماً على كلية ، كلية استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها المحسّات ؛ فتتأجج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسّات .

٢ - ثم إن المناطقة لا يشترطون في مقدمات القياس ، أن تكون مسلمة ، صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب وقد تكون - كما يقول : صاحب البصائر النصيرية - « منكورة ، كاذبة في نفسها » وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ، ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟

ما قيمته ، إذا كان لايعول فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج ، بحيث تستلزم النتيجة ، وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها .

إنك إذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ؛ وكل ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ؛ فالكثير من العلم

مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المناطقة .

وإذا قلت :الكثير من العلم، يؤدي الى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ؛ فالكثير من العلم مفيد للمجتمع — كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان !!

٣- ومع كل هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في نحو قولنا : « محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم بالناطقية على جميع أفراد الإنسان . وإذن تكون الكبرى : متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دورياً فاسداً فلا يعمل عليه .

٤- وأخيراً ، فالمفروض أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ؛ إنها إستنتاج مجهول ، هو النتيجة ، من معلوم ، هو المقدمات ..

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، إنها ليست مجهولة ،

والقياس لا يؤدي ، إذن ، إلى معرفة جديدة ، أو إلى إستنتاج مجهول من معلوم . إنه - إذا أردت الدقة - إستنتاج معلوم من معلوم . تلك هي موازين العقل - وسنزيد الأمر - أمر قصور العقل - أيضاً في فصل تال - وهي موازين لا غناء فيها ، ولا جدوى منها . العقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب في اقتصارها على الأخلاق والإلهيات . وإذا كانت قد تحدثت في التشريع ؛ فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق .

يبد أن الأديان إذا كانت قد اتخذت موقفاً حاسماً فيما يتعلق بتحديد الخير والشر ، فإنها ، في المغييات : لم ترهق الإنسان من أمره عسراً ، فتوضح له ما ليس في مقدوره إدراكه ، أو تبين له ما يسمو عن التبيان . أما هذا الذي يسمو عن التبيان ، فإنه ذلك النوع من المعرفة الذي لا يدخل في نطاق المحسّات ، وبالتالي لا يدخل في نطاق العقليات : أعني : المساتير .

وإنه ليعجبني في هذا المقام قول ابن «عبدالبر» المتوفى سنة ٤٦٣ هـ :

« إن الله ليس كمثل شيء : فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر .
لذلك رسمت الأديان في هذا المحيط إطاراً عاماً فقط ، وهذا الإطار
العام نفسه مبنى بعضه على الحس ، وهو داخل في نطاق الآيات
المحكمات التي هي أم الكتاب : ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .
والعالمى يقول عن مشاهدة : « المركب التي فيها رئيسان تفرق » .

أما بعضه الآخر فهو المتشابه « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ، ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ
إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » .
وحكمة قدماء المصريين دقيقة كل الدقيقة إذ تقول :

« محال على من يفنى ، أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى » .

رسمت الأديان إطاراً عاماً ، ولكن هذا الإطار لا يرضى النفوس
الطلعة ، التي أبت — خطأ — أن تعترف بحدود للعقل ، أو بقصور
فيه ، فبحثت داخل هذا الإطار وخارجه ، فكان ما كان من تشعب ،
وفرقة واختلاف .

إننا لانشك في أن رؤساء الفرق الإسلامية - معتزلة كانوا أم
أشاعرة ، وشيعة كانوا أم سلفيين - قد تشبعوا بإيمان راسخ ، وحرارة

دينية فائقة ، وعقيدة لا نزعزاعها إلا طاعير .

وقد اعتمدوا جميعاً على نصوص واحدة . كتاب الله ، وحديث رسوله . فلم كان الاختلاف ؟ ولم هذا الشعب الذي لا ينهي ؟
لسنا - في تحليل ذلك - أمام مشكلة لا تحل ؛ إذ الشأن في ذلك إنما هو الشأن في كل الآراء الذاتية ، التي لا تخضع إلا إلى الاستعداد الشخصي وحده .

ولو استقامت أمور المسلمين الدينية ، لما حادوا عن موقف الإمام مالك : للتسليم المطلق :

« الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

* * *

آراء ذاتية ، داخل الإطار العام ، آراء هي من صنع البشر ، آراء تتحد في نسبتها - من حيث القرب والبعد - إلى النصوص المقدسة إنها : « آراء » .

يبد أن النزعة التي صدرت عنها هذه الآراء - وهي الاستعداد الشخصي - : نزعة مفرقة .

ثم إنها آراء غير مفهومة ، وكل من طالع - في إخلاص - تصور صفات خارجة عن الذات ، أو تصور صفات هي الذات ، فإنه يقر معنا : أن ذلك إنما : علمه عند ربى .

إن الطريق الأنوم - إذن - : هو التسليم المطلق .

وهذا هو الإيمان بمعناه الصحيح .

يقول الإمام الغزالي :

« والتحقق بالبرهان علم ، »

والقبول مع التسامع والتجربة بحسن الظن : إيمان .

ولكن ذلك ليس معرفة مباشرة .

لاشئ إذن مما سبق من وسائل المعرفة : يصل بنا إلى المعرفة
المباشرة في محيط ما وراء الطبيعة :

• وتلك هي النتيجة التي نريد من كل ما سبق الوصول إليها .

• وإذا أردنا تاختيص ما نريد أن تنتهي إليه قلنا .

(١) الحس عاجز عن الوصول بنا إلى المغييات ؛ فإننا لانحسها ..

(٢) العقل - وهو مبني على الحس - : قاصر كذلك .

وإذن فعلم الكلام الذي لايسير على نهج سلفي - وهو آراء من

صنع البشر - ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو

انحراف عن سواء السبيل .

قال الإمام مالك : الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا

يكرهونه ، وينهون عنه : ننحو الكلام في رأى جهنم ، والقدره
وما أشبه ذلك ، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته ممل .

وقال الإمام أحمد : لا يباح صاحب كلام أبدأ ، ولا نكاذرى
أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وقال الإمام مالك : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه ، أيدع
دينه كل يوم لدين جديد ؟

* * *

هل معنى ذلك : أن المعرفة — فيما يتعلق بالإلهيات — : غير
ممكنة ؟

هل معنى ذلك : أن النطاء لا يمكن أن يكشف عن الحجب ؟ وأنه
لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟

ذلك ما لا نقول به .

ما السبيل إذن إلى المعرفة ؟...

فى وسيلة المعرفة

سيدنا رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، معجزة التاريخ ،
وهو المنارة التى يهتدى بها الإنسان كلما انهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .
وحياته قبل البعثة كحياته بعدها — : عظة وعبرة ، وهداية ومثل
أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، قبل البعثة ، ولا يكون
عنده فكرة صحيحة عن النبوة ، من حيث أنها لا تكسب اكتساباً ،
وإنما توهب من الله تعالى : يكاد يعتقد أنه اقتنص الوحي اقتناصاً ،
واضطره إلى النزول اضطراراً ، وأنه أبى إلا يظفر بما يريد ، فكان
له ما أراد .

يبد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله على العالمين ، عندما
حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية لتتجلى ، عن طريق من اختارته
رسولاً .

يقول الإمام الراغى رحمه الله :

« النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه : قاضيان

بأن تمنح للمستمد لها، القادر على حملها : والله أعلم حيث يحمل رسالته». ومحمد، صلى الله عليه وسلم : أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه، أحمره وأسوده، إنسه وجنه.

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين.

ولأن يحتم به الأنبياء والرسل وليكون شمس الهداية وحده، إلى أن تنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات^(١) اهـ.

أما هذا الإعداد، فقد حاطه الله بعنايته التامة؛ إنه أعده من ناحية أسرته : أعنى من ناحية الوراثة، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته الشخصية.

أما من ناحية أسرته، فهذا جده عبد المطلب كان «سمع الطبع، رضى النفس، سخر اليد، حلوا العشرة، عذب الحديث». وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان تملك قلبه، وتسيطر على نفسه، نزع دينية حادة عنيفة، ولكنها غامضة، يحسها، ويخضع لها، ولكنه لا يتبينها، ولا يستطيع لها فهما ولا تفسيراً^(٢)...

(١) من مقدمة حياة محمد، للدكتور هيكل

(٢) انظر كتاب : «على هامش السيرة».

« كان قى من فتیان قريش ، ولكنه يمتاز من بقية فتیان قريش » :

فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ،
لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، فلما كانوا يرضونها ،
أو ييسمون لها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز : فلم يكن يصدر
في حياته — كما كانوا يصدرون — عن الروية والتفكير ، وطول
التدبر ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب في الحياة ، قوة
خفية ، يحسها ، ويأبى عليها ، ويغلو في الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن
يذعن لها ، ويصدع بأمرها ^(١) .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها في أشكال مختلفة : تدفعه
إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشهوره ،
فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ، ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً ، واضح المخايل ، بين الصوت ، يلم به
إذا اشتله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمور .

وكان في هذا الصوت غموض ، وكان في هذا الصوت إيهام ،
وكان في هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإيهام ، وكان

(١) انظر كتابه : « على هامش السيرة » .

الفتى يشكره ، ويرتاع له ؛ وكان الصوت يغمره ويلج عليه . وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى يؤيسه من نفسه ، ويلج به فيكثر الإمام . ولم يكن هذا الصوت يقع في أذن الفتى بالفاظ كالتى تقع في آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظا خاصة ، غريبة الجرس ، غريبة المعنى ^(١) اهـ .

أما والده — عبد الله — فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره : « أما الحرام فالملات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : إني لأعرف فيك نسك أهلك .

قبيلته : قريش ، وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبد المطلب ، سيد قريش إذذاك ، ووالده عبد الله : فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يختاره ، أجل ! وهذه الفترة من حياته التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الخوف ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل والثواب ، الذى يشجعه العزيمة ، ويسد على اليأس القانط كل منفذ . إن هذه الفترة من حياته كانت — على حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف — عنوة لاصلاح فيها .

(١) انظر كتاب « على هامش السيرة » .

كان، صلوات الله وسلامه عليه، يتوج كل عام، جهاده الروحي المتصل، بشهر يقضيه في غار حراء: حيث الخلوة التامة، وحيث التجرد المطلق أو شبه المطلق، عن كل ماسوى الله، وهناك في سجوة الليل، أو في رائحة النهار، يحاول محمد أن يحطم الحجب، وأن يخرق المساتير، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب، فيصل إلى سدرة المنتهى، وإلى قاب قوسين، أو أدنى، حتى يشاهد الجمال في سنائه، والجلال في عظمته، وكبريائه، وجلاله.

هاهو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم، يبذل مجهودا جبارا، لا يكاد الإنسان يتصوره، فضلا عن أن يأتي بمثله.

وهاهو ذا يرى الهدف بعيدا لا يكاد الإنسان يفهمه، فضلا عن أن يصل إليه.

هاهو ذا، يرى الطريق وعشاء، صبة المرتقى بيد أن ذلك كله: لم يكن إلا ليزيده عزيمة على عزم، وإرادة على إرادة، ونشاطا مضاعفا.

إنه الجهاد الأكبر، على حد تعبير الأثر المشهور، عن جهاد النفس للتركى.

وتمضى السنون، بطيئة سريعة في آن واحد، وجهاد الرسول

صلى الله عليه وسلم ، لا يفتر ، حتى أصبح ، أو كاد ، روحاً خالصة ، أو
قبساً من نور الله ، وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام
الغزالي إنه :

« أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام : حين أقبل على جبل
حراء حيث تبطل ، حين كان يخلو فيه بربه ، ويتعبد حتى قالت العرب :
« إن محمداً عشق ربه ! » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التي غيرت مجرى التاريخ :
﴿ إِذَا رَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إقرأ
وَرَبَّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .
ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه (في التعنت) خير ما يمكنه : من الإيمان فيما
شغلت به نفسه ، من تفكير ، وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه
وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتبس أثناءها الوسيلة إلى مالم يبرح شوقه يشتهي
إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهاهم ما في الكون من أسرارها .

وكان بأعلى جبل حراء — على فرسخين من شمال مكة — غار ،
هو خير ما يصاح للاقطاع والتعنت ، فكان يذهب إليه طوال شهر
رمضان ، من كل سنة ، يقيم به مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ،

ممعنا في التأمل ، والعبادة ، بعيدا عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ،
ملتصسا الحق ، والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لقد كان ينسى طعامه
وينسى كل ما في الحياة ؛ لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله :
ليس حقاً

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى غار حراء يتحنث ، وقد امتلأت
نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة ؛ وقد خلصت نفسه ... وقد أدبه
ربه ، فأحسن تأديبه ، وقد أتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى
الحقيقة الخالدة وقد أتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدي قومه ، بعد أن
ضربوا في تيهاء الضلال ، وهو في توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف
ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى
طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ، ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ،
وما يتبين له في رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ،
فأسر بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث
الجن به . فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ،
وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدرب بخاطرهما ، ولا بخاطره :

أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية، إلى اليوم العظيم، وإلى النبأ العظيم، يوم الوحي الأول، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة :
وفيا هو نائم بالغار يوما جاءه ملك وفي يده صحيفة ، فقال له :
« اقرأ »^(١) .

* * *

هذه الحياة التي هداه الله لها - لا علم الكلام ولا الفلسفة العقلية - :
هي التي رسمت لنا الطريق إلى الله : طريق الكشف ، طريق الإلهام ،
طريق البصيرة ، بل طريق المشاهدة ، على ما يرى الصوفية .
وهذه الحياة التي علمناها عن الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالاً :
قد فصلها الصوفية أدق تفصيل ، وبينوها بياناً « سيكولوجياً » غاية
في الإحكام : بتدرج مع الإنسان خطوة خطوة ، حتى يصل به إلى
درجة - لا نقول : إنها النهاية ، إذ ليس لمعرفة الله نهاية - يكون
مابعدا بعيداً كل البعد عن إدراك الطبائع البشرية العادية ، فلا يمكن
التعبير عنه بلسان المقال .

وهذا الطريق سماه الصوفية : معارج القدس ، وسموه : منازل
السالكين ، ومدارج السالكين ، ومنازل الأرواح ، وهو عبارة عن

(١) من « حياة محمد ، للدكتور هيكل .

المقامات والأحوال التي يسلم كل مقام منها إلى ما بعده ، وكل حال منها إلى الذي يليه ، حتى يصل الإنسان إلى القرب ، والمشاهدة ، ويستغرق في ملكوت . يسمو على الوصف .

يقول الإمام الغزالي : « ومن أول الطريق يتبين المكنشات ، والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال : من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، .

التصوف والشك

يعرف كثير من الناس التصوف : بأنه المذهب القائل بالإلهام ،
والبصيرة ، أو إذا شئت فبالعلم الإلهي : أي بهذا النوع من المعرفة اليقينية ،
الذى لا يتصور فيه الشك ، ولا تعبت به السفسطة .

وإذا كان هذا التعريف غير منطبق تماماً على حقيقة التصوف في جميع
أقطارها وجوانبها ومظاهرها ، فإنه — لا ريب — يرينا ما المعرفة
اليقينية من أهمية :

فتصفية الروح ليست غرضاً من أغراض الصوفية إلا لأنها عهد
للإتصال بالله ، ولتلقى المعرفة عنه . ولا ريب أن معرفة تأتى عن طريق
الإلهام ، أو ، إذا شئت ، فمن طريق الألوهية ، هى معرفة لا يتطرق
إليها الهدم ، ولا تنهار أمام حجج المنطق ، وأنت تحاول عبثاً ، إذا
أردت أن تبعث الشك فى نفس الصوفى ، أو أن تحولوه عن رأيه ، إذ
يحيد عن فكرة ، يعتقد أنه تلقاها عن الملائكة الأعلى ، فى فترة
صفت فيها روحه ، وتطهرت ؟ وكيف يكون على باطل وهو يعمل وفق
إرادة وتعاليم عليا سامية ؟

على العكس من ذلك تماماً نرى الشاك : فهو شخص لا يعترف

بحقيقة ، أولا يعترف بأن هناك طريقا يوصلنا إلى معرفتها ، على فرض وجودها ، وعبثا تحاول أن تقنعه بعقيدة ما ؛ إذ هو لا يقتنع إلا بالشك ولا يرضى عن رأيه بدىلا وإن يدهش لشيء فأعما يدهش لعدم اقتناعك بفكرته فى الشك التى يعطيك على صحتها البرهان ، تلوا البرهان ، والحجة ، تلوا الحجة حتى تعترف فى النهاية ، بأن رأيه له وجاهته ، وله قيمته .
يقين مطلق من جانب ، وشك عميق من جانب آخر ، اختلاف شاسع ، بل تعارض وتضاد .

رغم ذلك - وبالرغم من أن محاولة التقريب ، وعقد الصلة بين هذين المذهبين ، تبدو لكثير من الناس غريبة - فأنى أعتقد أن الخلاف بينهما ، - فى مبدأ الطريق - أقل مما نتصور ، ذلك أن الصوفى ، والشاك ، يتفقان فى المبدأ الذى بنى عليه كل منهما اتجاهه . أريد أن أقول : إن الحالات التى تؤدى بالصوفى إلى التصوف ، هى - فى كثير من الأحوال - نفس الحالات التى تؤدى بالشاك إلى رأيه ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن الشك نفسه كثيرا ما يؤدى إلى التصوف .

* * *

كلنا يعلم أن هناك طريقين للمعرفة : هما الحواس ، والعقل : فمعرفة الأشياء تنتج عن أنى أراه ، وأحسه ، أو أنى أستتجه ، بدليل عقلى .
كثير من الناس ، بل الأغلبية الساحقة منهم يأخذون المعرفة الناشئة

عن هذين الطريقين قضية مسالمة ، لا تقبل جدلا ، ولا يحيط بها شك ،
ولكن في العالم أيضا ذلك الشخص ، الذي يرى أنه ما دامت
الحواس تخطيء فهي ليست أهلا للثقة إنى أرى السراب فأحسبه
ماء ، وتسيطر على فكري صورة من الصور ، وتقوى هذه السيطرة ،
فأرى الصورة ممثلة أمامي والمريض يرى خيالات ، لاحقيقة لها ، والخاص
يرى أشباحا ، ويسمع أصواتا ، لا وجود لها . إن الأمثلة على ذلك
لا تحصى ، وكل يوم ، بل وكل فترة ، تعطينا دليلا على خطأ الحواس
فهل بعد هذا نتق بمعرفة تأتي عن طريقها ؟ كلا .

بقى العقل ولكن ما قيمته ؟ كل ينتسب إليه ، ومع ذلك فلا تجد
اثنين على اتفاق تام .

إن هذه المذاهب الفلسفية التي لا تكاد تعد كلها مبنية على العقل ،
وكلها مؤسسة عليه ، وقائمة به ، وكلها جذابة أخاذة تغري بقوة أدلتها ،
وتستولى عليك بصرامة منطقها ، ومع ذلك فلا تكاد تتفق في شيء مما .
ثم ماذا ؟ ألم يبرهن أحدهم ببرهان عقلي ، منطقي ، على أن الأرنب
لا يلحق بالسلحفاة - مهما أسرع في العدو - إذا بدأت السلحفاة قبله
وسبقته بتمر ، أو مترين ؟

ألم يبرهن أحدهم على أن السهم في سيره لا يتحرك ؟

وأنت نفسك : أليست آراؤك في حالة التشاؤم ، غيرها في حالة
أخرى ؟ وفي حالة السرور ، غيرها في حالة الحزن ؟
ثم البراهين ، التي ترى قوتها ، وتمتد فيها حالة الحلم ليست أول
من أن يقال عنها : إنها براهين عقلية ..
وهكذا إذا أخذت في تعداد الأمثلة على أخطاء العقل ، فإنك
لا تكاد تقف عند حد .

* * *

أخطأت الحواس فلا ثقة فيها ، وأخطأ العقل فلا ثقة به ، فهل معنى
ذلك أن لا سبيل إلى المعرفة الحقيقية ؟
يجيبنا الشاك نعم ، وسنمكث إلى الأبد محكوما علينا ، بالجهل ،
أو ، إذا شئت ، بعدم المعرفة الصحيحة .
ولكن الصوفي - بمد أن سار هذه الخطوات ، ووصل إلى الشك -
في قيمة الحواس والعقل ، وفي قيمة المعرفة الناشئة عنهما - يعود ، فيثبت
المعرفة عن طريق آخر : هو الإلهام ، أو البصيرة ، أو العلم اللدني
كما يقولون .

إذن : قطع الصوفي ، والشاك المرحلة الأولى معا ، فوصلا إلى الشك ،
فرضى به أحدهما ، واقتنع بأن لا مطمح وراءه ، وخطا الآخر خطوة .

أخرى ، خطاها ، لا ليضع لنفسه منطقاً ، أو منهجاً يسير عليه ، ليمتصم من الزلل الذى توقعه فيه حواسه ، ويوقعه فيه عقله - كما يفعل الفلاسفة - وإنما ليصل إلى معرفة من طريق آخر ؛ لا يتسرب إلى نتائجه شك .

لنلق الآن نظرة على النفس الإنسانية ، فنرى أنها لا تحب الإقامة على الشك ؛ ولا ترغب فى اتخاذ الإنكار مذهباً ؛ وقاعدة ، وأنها - على كثرة حبها للمعرفة ، وشغفها بالاستطلاع - تريد دائماً أن تجعل اليقين قاعدة آرائها ؛ وأعمالها .

ونرى - أيضاً - أن من أشق أوقات الإنسان ، تلك الفترات التى تضطرب فيها نفسه ، وتتذبذب آراؤه ، ويختلط عليه الأمر .

هذه الحالة تبعث فى للنفس الضيق ، والكآبة ، فإذا اشتدت ، واستمرت سببت أحياناً الانتحار ، وأحياناً الجنون ؛ ولكنها - أيضاً - فى كثير من الأحيان ؛ تؤدى إلى التصوف .

نعم ! تؤدى إلى التصوف : حيث يجد الشخص ملجأً تستقر فيه نفسه ، وتهداً ، وتسكن ، وحيث يجد اليقين ، والإيمان ، والعلم الثابت : لقد كان « الحارث بن أسد المحاسبى » ، متعطشاً إلى المعرفة ، والبحث ، والاطلاع ، وإلى الوصول لرأى لا يعتوره الشك ، إلى رأى يقينى ، ثابت لا يتزلزل .

ولكنه بعد أن بحث ، زاد شكاً - بدل أن يزيد إيماناً - واضطربت نفسه وخشى أن يأتيه الموت فجأة ، قبل أن يعتصم بحبل الله المستقيم : فكد وجد ، ثم ينس من أن يصل إلى النتيجة .

ولكن الله وفقه في النهاية ، إلى الاتصال بقوم صالحين فسكن إليهم وأخلد . سكن إليهم ، وأخلد ، لأن منطقهم أوجد عنده اليقين ، ولا لأن براهينهم بعثت في نفسه الاطمئنان ، وإنما لأن - كما هم على وجوههم - تبعث الثقة ، وتهدى إلى الرشاد .

لندع المحاسبي نفسه يصور حاله - والنص الذي نثبته الآن من مخطوط له بدار الكتب المصرية ، اسمه : « النصائح »^(١) - وقد تعمدت إثبات هذا النص كاملاً ؛ لما بينه وبين كلام الغزالي في كتابه : « المنقذ من الضلال » من شبه ، يهم كل باحث في التصوف معرفته :

قال المحاسبي ، بعد مقدمة موجزة :

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا أن هذه الأمة تفرق على بضعة وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما ، فلم أزل - برهة من عمري - أنظر في اختلاف الأمة ، واتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد ،

(١) طبع الكتاب أخيراً بعنوان : « الوصايا » ، في القاهرة ، (مكتبة صبيح)

وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ،
وعقلت كثيرًا من كلام الله عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها ، وأقوالها ، فعقلت
من ، ذلك ما قدر ، ورأيت اختلافهم بحرًا عميقًا ، غرق فيه ناس كثير ،
وسلم منه عصابة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم أن النجاة في
اتباعهم ، وأن الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافًا : فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ،
ووجوده عزيز .

ومنهم الجاهل ؛ فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المشتبه بالعلماء ، مشغوف بديناه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو ،
ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه
ولا معتمد على رأيه .

ومنهم منسوب إلى العقل ، والدهاء ، مفقود الورع والتقوى .

ومنهم متوادلون ، على الهوى يتفقون ، والدنيا يتبادلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس ، عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ؛ وإلى جمعها يهرعون ؛ وإلى الاستكثار منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

ففتقدت في الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر .

فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجماع الأمة ، أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، وبطيل المكث فى العمى . فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى .

ووقفت عند اختلاف الأمة ، مر تاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذراً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله ، وحرامه ، وجميع حدوده ، والإخلاص لله تعالى ، بطاعته ، والتأسّى برسوله صلى الله عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض ، والسنن ، عند العلماء في الآثار ، فرأيت
اجتماعها واختلافها ، وجدت جميعهم مجمعين على أن الفرائض والسنن ،
عند العلماء بالله . وأن الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن
محارمه ، المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا :
أولئك المتمسكون بأمر الله ، وسنن المرسلين .

فالتست من بين الأمة هذا الصنف ، المجمع عليهم ، والموصوفين ،
أقفوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت
علمهم مندرساً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام
غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وهم المنفردون بعلمهم .
فعمّمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن
يفجأنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة .

فإنك مشيت في طلبى عالماً لم أجدلى من معرفته بدأ ، لم أقصر في
الاحتياط ولم أن^(١) في النصيح .

فقيض لى الرءوف بعباده ؛ قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام
الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة

(١) لم أقتر ولم أتلبث

لأفَاعِيل أئمة الهدى : مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحداً
فى مصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته ويوصون كل واحد بالصبر
على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء والشكر على النعماء ، يحبون
الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على
الإجابة إلى الله تعالى ، علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء
بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يجب ويكره ، ورعين
فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال
والمرء ، متورعين عن الاغتياب ، والظلم ، والأذى ، مخالفين لأهوائهم ،
محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم
وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ،
مجتزئين بالبلغه من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى
الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بيبهم ،
مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة ، وأهوايل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم
العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والههم المضى ، فشتغلوا عن سرور
الدنيا ، ونعيمها .

ولقد وصفوا الآداب صفات ، وحددوا الورع حدوداً ، ضاق لها

صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع ، بحر لا ينجو من الذرق
فيه شبهى ، ولا يقوم بمحدوده مثلى .

فتبين لى فضلهم ؛ واتضح لى نصيحهم ، وأيقنت أنهم العالمون
بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسايين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ،
والهادون لمن استرشد بهم .

فأصبحت راغباً فى مذهبهم مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لأدائهم ، معبياً
لطاعتهم لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوتر عليهم أحداً .

ففتح الله لى علماً انفتح لى برهانه ، وأثار لى فضله ، ورجوت النجاة
لمن أقربه أو انتحلّه ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ؛ ورأيت الاعوجاج
فيمن خالفه ؛ ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدّه ؛ ورأيت
الحجة البالغة لمن فهمه ورأيت انتحالّه ؛ والعمل بمحدوده ؛ واجبا على ،
واعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساسى دينى ،
وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل : أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى
على القيام بمحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وإنى
لا أدرك شكره أبداً . انتهى كلام المحاسبى .

وليس المحاسبي بدعا في ذلك وإنما يتفق معه الإمام الغزالي ، بل
الإمام الغزالي أوضح وأدق :

حاول أن تتصور معي حالة الإمام الغزالي النفسية ، فستجده متلهفا
على المعرفة محبا للاطلاع ، والدرس ، والبحث ، غارقا في محيط الفلسفة
والعلم ، ولكنه مع كثرة إطلاعه وتنقيبه لم يجد في المذاهب الفلسفية
ما يرضيه ، ولم يجد في الأدلة العقلية المؤسسة عليها هذه المذاهب
ما يقنعه .

ورأى أن من العبث أن يبدأ في تأليف مذهب فلسفي جديد ، إذ
مصير ذلك - حتما - مصير ما سبق من المذاهب ، التي وإن أخذت
بالباب كثير من الناس ، فإنها لا تثبت أمام النقد الصارم ، والتي تبعث
التفرقة :

إذ ليس فيها من القوة البرهانية ما يقنع الجميع .

ليس هناك إلا الشك إذن.

وفي الواقع : لقد شك الإمام الغزالي : شك في الحواس ، وشك
في العقل ، وشك فيما ينتج عنهما :

ولكن نفسه اضطربت ، ونحل جسمه ، وضاق بالحياة ذرعا ،

ولم يجد ملجأ ولا مأمناً من هذه الحيرة، وهذا الاضطراب، إلا التصوف، فوَلَجَ بابَه واطمأن إليه .

وكتابه : « المنقذ من الضلال » الذي يقص فيه تطوره الفكري، يصور هذا خير تصوير .

وكما يبدأ المحاسبي بحديث : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » كذلك يبدأ الغزالي بهذا الحديث ، وتكاد بعض جملة تكون مأخوذة من كلام المحاسبي نصاً : مما دعى بعض المستشرقين إلى أن يذكر : أن الغزالي — في كتابته لكتابه هذا — تأثر بالمحاسبي في كتابته لمقدمة كتاب « النصائح » .

وسواء أكان هذا صحيحاً ، أم غير صحيح ، فما لاشك فيه أن الإمام الغزالي قرأ هذا الكتاب ، إذ أنه استشهد ببعضه في « الإحياء » .

والذي يعيننا الآن : هو أن الإمام الغزالي — كما يصور في كتابه — بدأ يشمر بعدم الاطمئنان ، حينما فكر في هذا الحديث الشريف ، وحينما رأى أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب — على كثرة الفرق ، وتباين الطرق — بحر عميق : غرق فيه الأَكثَرُونَ ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

لهذا أخذ الإمام الغزالي في البحث جهد طاقته ، ليصل إلى اليقين
« الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه
إمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك » ثم يقول :

« وعلمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع
من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ،
فليس بعلم يقيني » .

« ثم فتشت عن علوي ، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف
بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات » ولكن :

« انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان
في الحسيات أيضا » .

ثم أخذ الإمام الغزالي يذكر أسباب شك في المحسات وفي
الضروريات وفي العقليات ، وقد ذكرنا طرفا منه آنفا .

واستمر الإمام على تلك الحالة « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ،
وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية
مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين » .

ولم يكن ذلك بنظم دليل : أو ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله

تعالى في الصدر ، وذلك النور : هو مفتاح أكثر المعارف . فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

ف قيل : وما علامته ؟ فقال :

« التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » ، وهو الذي قال عليه السلام فيه :

« إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » .
فمن ذلك للنور : ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان ، ويجب الترصده كما قال عليه السلام :
« إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

هذا الشك الذي حدا بالنزالي إلى التصوف ، كما حدا بالمحاسب قبله ، هو شك أتى من البحث وراء الحقيقة .

ولكننا لا نريد أن نقول : إن هذا النمط من الشك هو وحده : أساس التصوف ، وإنما نريد أن نقول : إن أساس التصوف — فى كثير من الحالات : هو شك على نحو ما ؛ سواء كان هذا الشك يتصل بالناحية الفكرية ، أو بالناحية الاجتماعية ، أو بالناحية الوجدانية .

فهذا الشخص الذى صدم فى عاطفة من عواطفه ، وكثيراً ما تكون عاطفة الحب ، تلك العاطفة القوية ، الجامحة ، التى تهز النفس هزاً ، وإلى تولى كثيراً إلى الانتحار

هذا الشخص الذى صدم فى تلك الناحية : قد تصل به الصدمة إلى الشك فى كل شخص ، أو إلى الشك فى أن يجد مثاله الأعلى فى هذه الحياة ، فيتجه إلى حياة العزلة والانفراد ، أو يعتكف فى مسجد ، أو فى بيته ، عابداً مصلياً ، طالباً من الله أن يكون عماده ، وأن يكون ملجأه ؛ وأن يصرف عنه السوء .

وهذا الشخص الرقيق المزاج ، الذى يرى فى كل آونة ظلم الناس ، وفساد الحياة ، والذى لا يجد فى نفسه القوة على الجلال والصراع ، والذى يصل به الأمر فى النهاية إلى الشك فى المجتمع ، وفى أهله ،

فضيق بالحياة فرعاً : لا يجد مفراً من أن يعتكف متأملاً مفكراً
في مثل عليا، أوفى حياة أخرى، أوفى ملاً أعلا، صفت فيه النفوس
وتطهرت، وسمت عن كل دنس .

وهكذا إذا بحثنا في حياة هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الصوفية؛
فإننا نجد عند كثيرين نقطة الارتكاز: الشك .

الشك ومدارج للسالكين

ولكن تلك الحياة التي يتوجهون إليها ، تلك الحياة الجديدة ، التي أخذت من النفوس كل مأخذ ، والتي اتجهوا إليها في حمس وحرارة ، لا تزيل من أنفسهم الشك بجميع ألوانه .

حقيقة إنها تزيل من أنفس هؤلاء الذين شكوا من الناحية الدينية : الشك في تلك الناحية ، وتنسى الآخرين : الشك الذي دفعهم إلى حياة التصوف دفعاً .

ولكن النفس التي تتجه إلى الحياة الدينية في حرارة وحمس ، إنما تتجه نحو الكمال ، من الناحية الدينية ؛ وهذا الكمال أول ما يبدأ ، يبدأ بالتوبة .

ومن المعقول ، ومن المنطق : أن ذلك الشخص الذي اتجه في حمس إلى الناحية الدينية ، يرى في ماضيه كثيراً من الأخطاء ، فلا تهدأ نفسه ، ولا تستقر ، إلا إذا خضع لله ساجداً ، مستغفراً لنفسه ، طالباً من الله الصفح والرضاء .

ولكنه لا يكاد يتخطى تلك الفترة ، إلا ويعرض له الشك في كثير

مما يتصل بحياته العادية، اليومية، ويكاد يتسامل في كل لحظة : أهذا حلال ، أم حرام ؟ طيب ، أم خبيث ؟ حسن ، أم قبيح ؟ يرضى الله ، أم لا يرضيه ؟ ويتخرج في الماء ، والمشرب ، والملبس ، وهذا هو « الورع » .

ولكنه مهما تخرج في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومهما تحفظ واحتاط ؛ فإنه سيجد دائماً ، أن ذلك لا يكفي ، ويشك في كل لحظة ، وآونة ، ويندم على ما فات ، وتقوى في نفسه الحرارة الدينية ، فيرى أن كل ما يتصل بالحياة الدنيا إن هو إلا لهو ، ولعب ، وضلال ، وباطل ؛ وأن خير طريق — إن أراد الهداية أو الرشd — هو « الزهد » في تلك الحياة ، التي لا تساوى عند الله جناح بعوضة .

« توبة » ، ثم « ورع » ، ثم « زهد » ؛ تلك هي — بالتتابع — بعض ما يسميه « الصوفية » : مقاماتهم .

ولكن الكمال — كما قلنا ؛ ليس له من غاية ؛ أو من حد . نعم وصل صاحبنا إلى الزهد في تلك الحياة ؛ ولكن ! أهذا هو المطلوب ؟ إنه إنسان ؛ وطبيعته الحيوانية — مهما قويت إرادته — تجذبه إلى الحياة الدنيا ، وترغبه فيها وتبعث فيه السخط على حياته . ويحصل ذلك الصراع العنيف بين المادة والروح ، الذي صورته « أناطول فرانس » .

في رواية « تاييس » تصويراً بديعاً ، وصوره « المحاسبى » ، في كتابه :
« بدء من أناب إلى الله » ، وفي كتاب « الرعاية » ، تصويراً دقيقاً إلى
أقصى حد من الدقة .

هذا الصراع ، يبعث في نفس الصوفي اضطراباً لا مزيد عليه ، بل
يبدأ الصوفي يشك في نفسه ، وفي قيمته الذاتية ، ويكاد يصل به الأمر
إلى أن يعتقد في تخلي المعونة ؛ أو التوفيق الإلهي عنه ؛ لأنه ليس أهلاً
لها . ونجده في تلك الآونة يبكي ، ويتألم ، ويتضرع إلى الله أن يمنحه
معونته ؛ وأن يصفح عنه ؛ إذا كان قد أخطأ بدون علم منه ؛ ويعترف
بأن لقيمة له في الواقع ؛ أمام تلك للقدر العظيمة ؛ وكل ما يرجوه :
أو يأمله . إنما هو : أن يكون عبداً ؛ وأن يمنحه السيد شيئاً من عنايته ؛
أو توفيقه أو رضاه .

يستمر صاحبنا كذلك فترة طويلة أو قصيرة ، وتثور روحه آونة
بعد أخرى ، على الناحية المادية ، تكبح من جماحها ، وتهدى من ثورتها ،
حتى تصل إلى « الرضى » وهذا هو « المقام » الرابع ، وهو أرقى —
بدون شك — من « الزهد » .

ولكن أذلك هو الكمال ؟

لم يقل الصوفي ، ولا يمكن أن يقول : إن معنى الرضى هنا انقطاع

كل الرغبات والشهوات ، أو زوال الآمال والطموح ، كلا ! إنما معناه أن تلك الثورة التي كادت تودى بصاحبنا ، وتجعله يعود إلى حياته الأولى هداةً ، وانتصرت عليها الناحية الروحية .

وليس السبب في هذا — حسب رأيه — قوة إرادة أو ذاتية ، وإنما ذلك توفيق من الله ، تلك معونة منه أراد به خيراً : أراد به الهداية والرشد . . .

فإذا يستحق ذلك الخالق ، الذي أعانه من غير أن يكون ، سبحانه ، في حاجة إليه ، والذي هداه من غير أن يكون في تلك الهداية نفع للخالق ، جل وعلا ؟

إنه إذا لم ينصرف إلى الله انصرافاً كلياً وجزئياً ؛ كان مقصراً . وليس كل التقصير في مرتبة واحدة : فذلك تقصير في حق الإله ؛ الذي منح الحياة ؛ والذي أفاض النعم والذي غمره باطمئنان النفس ، وانتشله من الضلال ، ورفعته إلى مكانة ، منحه فيها معونته ، وتوفيقه . ويبدأ الشك في خلجات نفسه ، وفيما يبدو : من دقائق الرياء ، ثم ينتهي إلى الانصراف المطلق — في حدود الإمكان — إلى الذات العليا الكاملة .

ولكن هذه الذات ؛ مهما فكر فيها ، وتأمل ؛ يجد دائماً في نفسه

الرهبة منها فيزيده ذلك انصرافاً إليها، وتجد نفسه في ذلك الانصراف إلى الله راحة، حتى إذا استمر في ذلك، منحه الله من فيضه، وتحولات الرهبة شيئاً فشيئاً إلى حب عميق، ثم إلى رؤية الله في كل ناحية، وفي كل جانب، أو في كل مكان، ثم إلى الفناء في تلك القوة، التي أخذت عليه سمعه وبصره، فأعلن أو أسر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

أما بعد: فأني أعتقد أنني ابتعدت كثيراً، في كل ما سبق، في موضوع: التصوف والشك، عن النص الآتي، بل أعتقد أن كثيراً مما سبق، لم يكن إلا شرحاً له.

والنص: للسهر وردى، ذكره في كتابه: «عوارف المعارف» في نهاية الفصل المعنون: «ماهية التصوف».

قال السهر وردى:

وأقوال المشايخ في ماهية التصوف، تزيد على ألف، ويطول نقلها.

ونذكر ضابطاً يجمع جل معانيها، فإن الألفاظ — وإن اختلفت متقاربة المعاني، فنقول:

«الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس.

ويعينه على هذه التصفية ، دوام افتقاره إلى مولاه ، فبدوام
الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة
من صفاتها أدركها بيهيرته الناقدة وفر منها إلى ربه ، فبدوام تصفيته
جميعته ، وبحركة نفسه تفرقة وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم
بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » وهذه القوامية لله على
النفس هي التحقق بالتصوف :

قال بعضهم : « التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون
فلا تصوف » .

والسرفيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، يعني أن روح
الصوفي منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها : رسوب
إلى عالمها وانقلاب على عقبها .

ولابد للصوفي من دوام الحركة ، بدوام الافتقار ، ودوام الفرار
وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس .

ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى : « الصوفي » جمع
المتفرق في « الإشارات » اهـ .

الإمام الغزالي يرسم طريق المعرفة

١ - إن البحث العقلي في الإلهيات أمر طبيعي بالنسبة للمفكرين الذين نشئوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس ؛ إنه من الطبيعي أن يوجد في هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة : ذلك أن الإنسان بفطرته طامعة ، وهو يحاول دائماً معرفة الملل والأسباب ، ويتشوف إلى رؤية المجهول ، ويتطلع إلى الكشف عن عالم الغيب .

أما في البيئات التي فيها نص مقدس ، يحتفظ بنضرتة ولا يشك إنسان في صحته ، فإنه من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب . ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ ، والخطأ في الذات الإلهية أو في الصفات الإلهية ، الخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة .

الطريق المستقيم إذن : هو ألا ينشأ بجوار النص المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافياً لما عساه أن يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء .

التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند ذوى العقول

الحكيمة ، وقد حدث مرة أن أخذ سقراط ورفقاؤه يتحدثون عن خلود النفس ، ويحاولون إقامة الأدلة على ذلك ؛ فلا يكاد يستقيم لهم الأمر في يقين جازم ، ثم « يسكت سقراط ، ويسكت الجميع وبعد هنيهة يقول « سيمياس » : إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً في هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما — إن امتنع ذلك — استكشاف الدلائل الأقوى والتذرع به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب مادام لاسبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن ، أغنى إلى وحي آلهي ^(١) » .

المركب الأمتن والآمن في رأى « سيمياس » هو الوحي الإلهي ومعنى ذلك — في وضوح لا لبس فيه — : أنه لو كان لدى سيمياس ، أو لو كان في العهد اليوناني نص مقدس صحيح لاستسلم إليه الجميع دون نقاش أو جدل . أما استعمال العقل في عالم الغيب فإنه في أغلب الأحيان مخاطرة لقطع البحر على لوح من خشب ، وهيئات أن ينجو من يفعل ذلك !

واستسلم المسلمون الأوائل للنص المقدس متبعين في ذلك الطريق القويم ، ومضى الصدر الأول للإسلام دون جدال في العقيدة ودون

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية .

محاولة عقليه للاختراع فيما وراء الطبيعه ، أو بتعبير آخر ، دون محاولة عقليه لتحديد ما لا يحد وتقييد ما لا يقيد .

٢ - وكان أول انحراف منظم قوى عن هذا المبدأ السليم هو الطريق الذى سلكه واصل بن عطاء ، وعمر بن عبيد ومدرستهما . إنهم لم يتعمدوا انحرافاً ، ولا خروجاً عن الطريق السوى ، وإنما خيل إليهم أن عملهم إنما هو خدمة للإسلام وخدمة للمسلمين ، ولسكنهم بعملهم هذا حكموا العقل القابل للخطأ فى الدين المعصوم ، بل لقد أخذوا فى وضع قانون تشريعى يفرض على الله سبحانه وتعالى الفروض ، لقد أخذوا يوجبون عليه ، ويمنون عليه ، فهو سبحانه — على رأيهم — يجب عليه أن يفعل كذا .. ويجب عليه ألا يفعل كذا ، وحكموا ، هكذا ، عقولهم فى الدين وفى الله ، ومادام عقل كل إنسان يختلف عن عقل الآخر فقد انقسمت المدرسة الاعتزالية إلى مدارس ومذاهب لاتكاد تحصر .

وكانت النتيجة لتعكيم العقل فى الدين أن بدأ الافتراق والاختلاف العقدى فى البيئه الإسلامية .

لم يستسلم المنزلة استسلام المؤمن المعترف بعجزه وقصوره تجاه الذات الإلهية ، كما فعل الصدر الأول ، وإنما وثقوا بعقولهم الثقة المطلقة ، فكان من نتيجة ذلك الشقاق والتفرق .

وحينما بدأ المسلمون في أوائل العصر العباسي يترجمون الثقافات الأجنبية فإنهم لم يستسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق، ذلك أن يقيهم المطلق في نصهم المقدس جعلهم يستهينون بكل ما عداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق . وكان موقفهم ذلك سليماً كل السلامة ، ذلك أن كل فكرة أو كل رأى متصل بما وراء الطبيعة يخالف ما أتى به الوحي إما أن يكون خرافة ، أو يكون ضلالاً عقلياً ، والحياة الجادة لا تستسيغ إنفاق الزمن في دراسة خرافات أو أضاليل عقلية .

ولكن « المأمون » ، ومن ورائه المعتزلة ، فعلوا ما امتنع جمهرة المسلمين عن فعله ، فترجموا إلهيات اليونان وأخلاق اليونان ، فأصبح بذلك الاختراع العقلي أو البحث العقلي أو الابتداع العقلي في الدين ، أرسقراطية عقلية يجرى وراءها الكثيرون .

٣ — ونشأ الفلاسفة ، وأخضع الفلاسفة كل شيء لعقولهم ، وأخذوا يرسمون القواعد ويقيمون الأدلة ، ويبتعدون كثيراً أو قليلاً عما فهمه المسلمون عن رسولهم ، وعما استشعروه من الروح العامة للإسلام على وجه العموم .

والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل ، إنما هو شهوة أو هوى ، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليوناني وهذا النهج من البحث في إخفاق متتابع ، وفي فشل مستمر وفي تناقض ملازم ، ورجاله يناقض بعضهم البعض ، ويهدم كل ما بناه الآخرون ، وعلى توالى الزمن تنهار الآراء وتنشأ آراء آخر لا تلبث أن تنهار ، وهكذا دواليك .

ومع رؤية كل باحث عقلى لهذه النتائج المهارية باستمرار ، فإن ذلك لم يرقم عظة واعتباراً في نظرهم ، واستمروا على الطريقة العقلية . رغم رؤيتهم في وضوح مآل بحوث سابقهم المتهافئة .

٤ - ونشأ الإمام الغزالي :

وكان من توفيق الله أن الإمام الغزالي منح طبيعة طلعة ، وذهناً ثاقباً ، وتفكيراً حكيماً ، وأتيحت له تربية دينية سليمة منذ نشأته الأولى ، وأخذ تفكيره يحول في جميع المناحي الدينية ، فلاحظ أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأفلون فافتحهم لجة هذا البحر العميق ، وخاض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وتوغل في كل مظلمة ، وتهجم على كل مشكلة ، وتعمم كل ورطة ، وتفحص عن عقيدة كل فرقة . وكان نتيجة ذلك كله أن فقد ثقته في العلم ، ووجد نفسه حاطلاً عن علم يقيني ، فأراد أن يبدأ من البسائط ، وأن يجعل أساسه قوياً متيناً حتى ينتهي إلى اليقين المطلق فيما يعلم .

ولكنه اختبر الثقة في المحسّات فلم تسمح نفسه بالتسليم

باليقين فيها ، وامتحن الثقة بالعقلية فانهارت العقلية (١) .
ومر إذن الإمام الغزالي بتجربة قاسية ، هي تجربة الشك في
الحسيات والعقلية ، فاستمر على ذلك شهرين هو فيهما على مذهب
السفسطة « بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » (٢) .
ثم شفاه الله تعالى من ذلك المرض « وعادت النفس إلى الصحة
والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على
أمن ويقين .

ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله
تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف (٣) .

خرج الإمام الغزالي من هذه التجربة على نور من ربه ، وعلى
بصيرة من أمره فحاول ما استطاع أن يرسم الطريق الصحيح للشغوفين
بالمعرفة ، والمتطلعين إلى الهداية والمستشرقين إلى العلم بالملأ الأعلى .
لقد أراد أن يسلك الطريق الذي يرضى اتباعه الله ورسوله .
أراد أن يرسمه للحيارى والمتطلعين إلى الهدى والشاكين الآملين في
اليقين ، والمسترشدين الذين يريدون أن يعتصموا بحبل الله المتين .

(٢) المنقذ من الضلال .

(١) المنقذ من الضلال .

(٣) المنقذ من الضلال .

أراد أن يرسم هذا الطريق بعد تجربة مر بها ، فرسمه في ثقة المجرب
وفي إحكام الخير :

إن الأساس الخادع الذي لا يمدو أن يكون هوة عميقة يتردى فيها
الكثيرون إنما هو إرادة تشييد ما وراء الطبيعة على العقل ، فما العقل
بالنسبة إلى ما وراء الطبيعة إلا السراب الخادع الذي غرر بكثير من
الظالمين إلى معرفة الغيب .

ثم إن هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه :
إنه من جانب انصراف عن النص الإلهي إلى العقل .
ومن جانب آخر إقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة .
وفي ذلك لا شك صرف للناس عن التأمل في النص المقدس كمصدر
لمعرفة الإلهيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة .

وهجم الإمام الغزالي بكل ما يستطيع على هذا النهج ، ولم يفرق
عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم : « تهافت الفلاسفة » ، إلى أن
انتهت به الحياة .

ولقد كان كتابه هذا محاولة جريئة كل الجراءة ، موفقة كل التوفيق ،
وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي لهجومه هو هدم الآراء في
نفسها ، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين ، وإنما كان هدف الإمام

هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء ، فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الإمام الغزالي ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام حل معوله وأخذ يهدم بيد قوينة المسلك العقلي الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس : فانهارت أدلتهم وتهاقت .

لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود .

وهو لم يلتزم في هذا الكتاب « إلا تكدير مذهبهم ، والتبشير في وجوه أدلتهم ، مما يبين تهاقتهم »^(١) ، ومقصوده « تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، يبيان وجوه تهاقتهم »^(٢) .

ويقول : « أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بالزامات مختلفة ، فالزمهم تارة مذهب المعتزلة ، وأخرى مذهب الكرامية ، وطوراً مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص »^(٣) .

ويقول الأستاذ « بلاسيوس » بحق : « إن الغزالي حينما سمي كتابه :

(٢) المصدر نفسه .

(١) تهاقت الفلاسفة .

(٣) المصدر نفسه .

« تهافت الفلاسفة » كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انحدر به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي يريد أن يقول : إن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية فتهاقتوا وهلكوا الهلاك الأبدى ^(١) .

٥ — والمعرفة عند الفلاسفة العقلين مصدرها إذن العقل ، والعقل وحده . بيد أن الإمام الغزالي يرى عن تجربة أن وراء طور العقل طوراً آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما يكون في المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز ^(٢) ، وهناك إذن البصيرة ، وموضوعها الذى ينكشف لها إنما هو الغيب .

وإذا تساءلنا مع الإمام الغزالي عن مراتب المعرفة بالغيب التى هى الإيمان فإننا نجد يحدد ثلاث مراتب :

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية : ترجمة الدكتور أبو رييدة .

(٢) المنقذ من الضلال .

- ١ — المرتبة الأولى : إيمان العوام : وهو إيمان التقليد المحض .
٢ — المرتبة الثانية : إيمان المتكلمين ، وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته - حسبما يرى الإمام - قريبة من درجة إيمان العوام .

- ٣ — المرتبة الثالثة : إيمان العارفين ، وهو المشاهد بنور اليقين .
ولا شأن لنا في حديثنا هذا بالمرتبة الأولى ، أما المرتبة الثانية ، وهى مرتبة المتكلمين ، وهم يدعون أنهم أهل رأى والنظر ، أو أرباب البحث والاستدلال ، فإنهم يشاركون الفلاسفة بهذا الاعتبار فى منهج البحث ، والإمام النزائلى يرى أن درجتهم قريبة من درجة العوام .

وهو من جانب آخر لا يرى فى منهج المتكلمين ما يؤدى إلى كشف الحقائق ، إنه يقول حرفياً عن علم الكلام : « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفة ما هى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف . ولعل التخطيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التفلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعقق فى علوم آخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق

أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود^(١)

ويرى في موضع آخر أن المتكلم لا يزيد على العاى إلا فى صنعة الكلام ولأجله سميت صناعته كلاماً^(٢).

أما المرتبة العليا فإنها الهدف الأسمى ، وهى مقصد الطالبين ، ومطمح نظر الصديقين ، إنها مشاهدة روحية ، إنها يقين مطلق ، إنها المشاهدة بنور اليقين .

٦ — ولكن مشاهدة ماذا ؟ ويقين فى ماذا ؟ ما هو موضوع هذه المرتبة ؟ إنه — إذا أردنا الإجمال — الغيب .

أما إذا أردنا شيئاً من التفصيل فإنه أمور كثيرة ، كان يسمع المعارف من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك ، وتحصل المعرفة بالله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله ، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه الآخرة على الدنيا .

والمعرفة بمعنى النبوة ، والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية

(١) الاحياء ص ١٩٨ .

(٢) الإحياء ص ٨٧ .

ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت
السموات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة
والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة
الآخرة، والجنة والنار، وعذاب القبر، والصراط، والميزان، والحساب
ومعنى قوله تعالى: «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا»
ومعنى قوله تعالى: «وإن الدار الآخرة لهُم الحيوان لو كانوا يعلمون».
ومعنى لقاء الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم، ومعنى
القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة
الأعلى، ومقارنة الملائكة والنبين، ومعنى تفاوت أهل الجنان حتى
يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى في السماء. إلى غير ذلك
مما يطول تفسيره (١)

ذلك بعض موضوع الغيب الذى يتطلع إلى معرفته، دون جدوى،
المتكلمون والفلاسفة.

ولأنهم لم يتخذوا إليه السبيل الصحيح فقد اختلفوا فيه.

لقد اختلفوا فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها.

(١) الإحياء ص ٣٤، ٣٥.

مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء .

وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة ، وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها .

وكذلك يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن المعرفة .

وبعضهم يدعى أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل .

وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع الدوام وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم .

اختلف الناس هذا الاختلاف ، لأنهم لم يتبعوا النهج الصحيح في معرفة الغيب ، وهذا النهج الصحيح إنما هو جلاء البصيرة .

ولو اتبعوا الكشف عن البصيرة لارتفع الظلمة حتى تتضح للإنسان جليلة الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه . وهذا ممكن في جوهر الإنسان^(١) .

أهذا ممكن حقاً في جوهر الإنسان ؟

إنها دعوى من الإمام الغزالي تحتاج إلى إثبات ، وهى دعوى ينكرها الكثيرون .

ولكن الإمام الغزالي يرى أن الدليل القاطع ، الذى لا يقدر أحد على جحده أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة ، فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسّات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لا يشغاله بنفسه .

والثانى : إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل ، وإذا جاز للنبي صلى الله عليه وسلم ، جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور ، وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشغل باصلاح الخلق . وهذا لا يسمى نبيا ، بل يسمى وليا ، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة أو بتعبير آخر أن يقر بباب القلب ينفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام والنفث فى الرّوع والوحى ^(١) .

والإمام الغزالي يتشبه بالرؤيا، كبرهان ودليل، على أن هناك آلة للمعرفة غير الحس والعقل، ويردد ذلك في كثير من كتبه؛ إنه يتحدث في المنقذ عن النبوة فيقول: «وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم عوفاً من خاصية النبوة وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحاً، وإما في كسوة مثال يكشف عن التعبير، وهذا لو لم يجر به الإنسان من نفسه، وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ويحول عنه إحساسه وشمسه وبصره فيدرك الغيب، لأنكره وأقام البرهان على استحالة وقال: القوى الحساسة من أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبألا يدركها مع ركودها أولى وأحق. وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة^(١).

ولكن الغزالي لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال، بل يأتي بشواهد الشرع، ويذكر التجارب والحكايات، أما الشواهد — فيما يرى — فهي قوله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»^(٢) وقوله سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً»^(٣)

(١) المنقذ ص ١٣٤

(٢) سورة العنكبوت آية: ٦٩

(٣) سورة الانفال آية: ٢٩

قيل نوراً يفرق به بين الحق والباطل؛ ويخرج به من الشبهات ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .. »^(١) ما هذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة إن النور إذا قذف به إلى القلب اتسع له الصدر وانشرح .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

والمحدثين هو الملهم ، والملهم هو الذي انكشف له الحق في باطن قلبه من جهة الداخل ، لامن جهة المحسّات الخارجية .

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه »^(٢) « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ، يعيش به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟ »^(٣) « أفن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ؟

ولم يكن علم الخضر عليه السلام علماً حسياً ، أو عقلياً ، وإعنا هو العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وعلمناه من لدنا علماً »^(٤) .

(١) سورة الزمر آية ٢٢

(٢) سورة التغابن آية ١١

(٣) سورة الأنعام آية : ١٢٢ .

(٤) الإحياء ص ٤١ ، ٤٣ .

كيف تنجلي البصيرة ؟ كيف يتأتى الكشف والإلهام والنفث
في الروح ؟ كيف تتأتى معرفة الغيب معرفة مباشرة ؟

إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات
المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى .
ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له
بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في
القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع
عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة ، وتلاأت فيه حقائق
الأمور الإلهية ، قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .
فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة ،
مع الإرادة الصادقة والتمطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه
الله تعالى من الرحمة .

وهو بفعله هذا يصير متعرضا لنفحات رحمة الله ، وليس له
اختيار في استجلاب هذه النفحات ، وليس له إلا الانتظار لما يفتح
الله من الرحمة ، كما فتحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة .

وإذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته تلمع

لوامع الحق في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين^(١).

٧ — هذا النهج الذي رسمه الإمام الغزالي لمعرفة الغيب له آثار عميقة بالنسبة للأفراد في خاصة نفسه، وبالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدين. ولتوضيح ذلك بعض الإيضاح، ولذكر بعض الآثار التي كانت لهذا النهج نذكر ما كتبه الدكتور محمد إقبال في كتابه : « تجديد التفكير الديني في الإسلام » عن الإمام الغزالي.

يقول الدكتور إقبال : « على أنه لاسبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بعبداً جديداً، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في ألمانيا في القرن الثامن عشر ففي ألمانيا ظهر المذهب العقلي لأول عهده حليفاً للدين، ولكن سرعان ما تبين أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسياً، فكان الطريق الوحيد إذن أن تنمحي العقيدة الدينية من سجل المقدسات وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة في فلسفة الأخلاق، وبذلك مكن المذهب العقلي من سيادة الإلحاد.

تلك كانت الحال في ألمانيا عندما ظهر « كانت » وكشف كتابه

(١) الإحياء ص ١٣٧٧، ١٣٧٨.

المذهب العقلي من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أجل نعم الله على وطنه ، وإن التشكك الفلسفي الذي اصططنه الغزالي — على تطرفه بعض الشيء — قد انتهى إلى النتيجة نفسها في العالم الإسلامي ، إذ قضى على ذلك المذهب العقلي الذي كان موضع الزهو على الرغم من ضحائته ، وهو المذهب الذي سار في نفس الاتجاه الذي اتجه إليه المذهب العقلي في ألمانيا قبل « كانت » .

غير أن هناك فارقاً هاماً بين الغزالي وكانت ، فإن « كانت » تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة . أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولى وجهه شطر الرياضة الصوفية وألنى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه ، وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية^(١) .

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ١٠ ، ١١

مشكلة المعرفة والصوفية^(١)

يتسم التاريخ — سياسياً كان أو فكرياً — بفترات ، تبدو فيها ،
الحويية الجارفة ، وهذه الحويية ، تتركز في شخص ، أو أشخاص
نابغين يلقون بأنفسهم ، في مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب
الحياة وتموج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان - قوة
الشعب القدي يتبع التقاليد - وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول ،
أو تقصر ، ثم تنحصر الأمواج ، وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً
جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، في قليل أو كثير .

ومهما يكن من شيء ، فإن عظماء الرجال - على أى وضع قضوا
تجهم - لا يتركون هذا العالم ؛ إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحي أبد الدهر .
وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه في ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطراً ،
وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجه إليه السيوف المهنددة ، فيدافع ويهاجم ،

(١) هذه الكلمة كتبها بمناسبة طبع كتاب الرعاية للحاسب وهى ؛ وإن كانت
قد كتبت في مناسبة خاصة ؛ فإنها ؛ من حيث الفكرة ؛ عامة ؛ فيما يتعلق بالمعرفة
الصوفية .

ويغلب أو يغلب ، ويترك ، على كل حال ، أثراً مؤثراً .

— ٢ —

ونشأ المحاسبي ، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تصطربان :

١ — أهل السنة ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

٢ — المعتزلة ، ولهم ممثلهم في البصرة ، والكوفة ، وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة ، وأهل السنة : صراع طبيعي لا يخلو من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين .

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون :

إن الدين : نص تفسره أسباب النزول ، واللغة ، والرواية ، والذين يقولون :

إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه .

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث في هذه الخصومة .

فالإنسان إما : نصي ، وإما عتلي : ولا يحتمل الأمر ^١حلاً ثالثاً .

ونشأ المحاسبي ليعلمن هذا الحل الثالث ، أو بتعبير أدق ، ليذكر بهذا
الحل الثالث :

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصاً في الرد عليهم ،
سماه : « فهم القرآن » .

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً ، لا يتناسب ومقام العبودية ،
ورأى أن نزعتهم : تحكم العقل في القرآن ، وتجعله يسيطر على النص ،
ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر هو : العقل ،
لا الكتب المقدسة . وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ،
اتمثل في دفاعهم المجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأيينه منطقياً
وعقلياً ، فإنه مما لا شك فيه : أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل
إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره
ما انهم .

لا بد ، إذن ، أن يخضع العقل للنص .

ومذهب المعتزلة ، إذن ، لا يسير في عالم : « ما وراء الطبيعة » على
النهج الصواب .

هناك ، إذن ، إفراط وتفريط .

والعبودية الحقة - فيما يرى المحاسبي - : هي النهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة .

ودخل المحاسبي المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حقه ، وإخلاص لاحد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله وغاياته ، جزئياته وكمالياته .

التقوى والعلم ، إذن : كانا سلاحه في المعركة .

واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يخدم ، وثار الفقهاء على المحاسبي ،

وكان لابد أن يشوروا ، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجا آخر غير الطريق المأدب التقليدي .

كان يتحدث في الإخلاص ، وفي الورع ، وفي الزهد ، وفي الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث في محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه .

وكان يتحدث في هيئته وجلاله وعظمته .

وكان حديثه عذبا ، طلقا ، ساميا ، فكانت تخشع له الأئمة ،

وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله من فضل ،
فترق قلوبهم ويعاهدون على الاستقامة .

وملأت سممة المحاسبي أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء
المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته في الازدياد
كلما كثر خصومه وشائثه !!

ولكنه كان يسير في طريقه ، ثابت الخطى لا يعنيه سوى أن
يكون الله راضيا عنه !!

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة
الحقة فأعلن طريقها .

وطريقها ليس حسا يخطيء ، وليس عقلا يضل ، وإنما هو
بصيرة وضاعة وروح صافيا .

واستمرت الخصومة بين :

النصيين ، وعتلهم الإمام أحمد .

والبصيريين ، ويمثلهم الإمام المحاسبي .

والمقايين ، ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى ، لم تخر صريعة بل بقيت قوية ، واستمرت في كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا .

تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثّل في الإمام الغزالي ، ثم في بقية الصوفية من بعده ، حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها في أسلوب جديد ، وتمبير صادق ، المرحوم : « الشيخ عبد الواحد يحيى » الذي توفي منذ سنوات .

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت في الإمام : « ابن تيمية » ، والذي وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول وانحرف بها إلى الشكل أكثر من الجوهر ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلاً قوياً .

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان جمال الدين الأفغاني ، فدفعها دفعا قوياً إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل في نشرها ، ملطفة

خفيفة تكاد تخفى ، أو تكاد تلبس ثوب السلفية الأولى ، الأصلية التي كانت قبل ابن تيمية والتي لا يثقلها ابن تيمية .

وحمل اللواء من بعده المرحوم : « الشيخ المرائي » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرزاق » .

وفكرة « الإمام محمد عبده » تتمثل فيهما حقيقة ، لافي الشيخ رشيد رضا كما يظن ، كثير من الناس .

لاتزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك لأنها تمثل نزعات فطرية في بني الإنسان :

فبعضهم : واقعي ، يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسيّر إلى أبعد منه .

وبعضهم : يحتفظ بشخصيته ، قوية جارفة لاتأين ، فهو عقلي أو اعتزالي .

وبعضهم : رقيق الشعور ، صرّيف الحس ، ملائكي النزعة ، فهو بصيري أو صوفي .

نزمات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر تستمر في
بنى البشر ما دام على وجه الأرض ، أفراد من النوع الإنسانى ، ومن
هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصيين
على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات قضاء تاما .

وبالله التوفيق

الفصل الرابع

قضية التصوف

- إنكار التصوف .
- تحديد موطن النزاع .
- المشاكل التي يراود حلها .
- الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة .
- العقل » » »
- البصيرة » » »
- الطريق إلى المعرفة .
- التصوف ارسقراطية .
- » » » والرهبانية .
- » » » في العصر الحديث .

قضية التصوف

إنكار التصوف :

إن الذين ينكرون « التصوف » ليسوا من رجال العصر الحديث فحسب . ذلك أن النزاع بين « الفقهاء » و « الصوفية » قديم قدم « التصوف » نفسه ، ورجال « الظاهر » على وجه العموم ينفرون من « الصوفية » ويحاربونهم أينما كانوا حرباً لا هوادة فيها .
والحرب قائمة أيضاً بين « الصوفية » ومن يتخذون العقل مقياساً للآراء ويرون أنه وحده المهادى إلى الرشاد .
ولم يهدأ الصراع قط بين « الصوفية » وغيرهم - فقهاء كانوا أو عقليين على مر الزمن :

ماهى مأخذهم على « التصوف » ؟

أولاً : يرى « الفقهاء » - ويشاركونهم فى هذا رأى كثير من الباحثين : أن « التصوف » دخيل على الإسلام : إذ ليس فى الإسلام إلا التقوى ، والورع ، ونوع من الزهد يشبه أن يكون عفة أو قناعة ...

ثانياً : الأدلة على وجود الله ووحدانيته ، وقدرته ، وإرادته ،

موجودة في القرآن الكريم ، في وضوح لا لبس فيه فإذا ما تركناه ،
وذهبنا نلتمسها في متاهات « التصوف » فإننا لا نأمن أن نضل في
مجاهل الطريق .

ثالثاً : « التصوف » ليس في متناول الجميع ، فهو إذن « أرسقراطية »
تتناهى مع روح الإسلام « الديمقراطية » . . .
ولأن « التصوف » ليس في متناول الناس جميعاً ، فهو إذن
تكليف بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها .
رابعاً : « التصوف » ضعف ، والإسلام قوة ، والله سبحانه وتعالى
يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ ، والجهاد
باب من أبواب الإسلام لا يتلاءم مع صوم النهار وقيام الليل .
أما العقليون : فإنهم يرون أن الله — سبحانه وتعالى — منحنا
العقل لنتهدى به إليه ، فإذا ما احتقرناه — كما يفعل « الصوفية » — فقد
احتقرنا أجل نعمة وهبها الله لنا .

ويرى « العقليون » أن العقل : هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى
اليقين في محيط « ما وراء الطبيعة » ، وهم يبرهنون على وجود الله
— عقلياً — ويرون في براهينهم غناء ودقة ، و يقيناً ووضوحاً لا لبس فيه .

وقد حث الله في القرآن على استعمال العقل ، والآيات التي تخاطب العقل وتدعو إلى استعماله كثيرة متعددة .

هذه هي أهم ما يأخذه منكرو التصوف على « التصوف » و « الصوفية » وأما ماعداها مما يتهكمون به على الأشكال ، والطقوس والعادات التي يلصقونها بـ « التصوف » وليست منه ، فإننا نضرب عنها صفحاً ، ذلك أننا نتحدث عن « التصوف » الحقيقي و « الصوفية » الحقيقيين .

تمهيد موطن النزاع :

ونريد الآن أن نبين — في إيجاز — بعض ما يراه « الصوفية في هذه الاعتراضات ، لتبين الحق في هذا الغموض والاضطراب ، والخلط الذي يسود قضية « التصوف » .

إن الاستدلال على وجود الله لا يحتاج — في نظر الصوفية — إلى كذا الذهن وإعمال الفكر .

كيف يتأتى أن يخفى الله ، وأن يكون من الخفاء بحيث نحاول جهدنا أن نتطلب ما يثبت وجوده من أدلة ؟

إن إثبات وجود الله ليس مشكلة في نظر الصوفى ، وإذن ، فإنه لا يؤخذ على الصوفى أنه يذهب إلى طرق خفية لينتهى من ورائها إلى الاستدلال على وجود الله . إن الصوفية يرون أن مجرد محاولة

إثبات وجود الله إنما هي انتقاص من جلاله سبحانه ، فتى خفى سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده : إنه سبحانه أظهر من كل موجود .

ولكن البشرية - شرقية كانت أو غربية ، ومسلمة كانت أو مسيحية ، وقديمة كانت أو حديثة - لا تخلو من طائفة كبيرة تتطلب في إلحاح ، وفي قلق ، وفي تحمس جارف ، ما وراء إثبات وجود الله النفس الإنسانية هكذا خلقت : فكما منح الله الإنسان عقلاً كبيراً ، وذكاءً حاداً ، ونفساً طلمة ، كان ذلك مدعاة له إلى التوغل في البحث فيما وراء الطبيعة .

إن وجود الله ووحديته ، وكونه عالمًا ، مريداً ، قادراً ، كل هذه مسائل هينة .

لو وقفت عندها النفوس لما كانت هناك فلسفة .

ولما كان علم الكلام .

ولما كانت الأبحاث النظرية فيما وراء الطبيعة .

ولما كان التصوف .

ولكن النفوس لم تقتصر على ذلك ، ولا يمكنها الاقتصار على ذلك

ولن يتأتى لها - من رغبة أو رهبة - أن تقتصر على ذلك !!

المشاكل التي يراد حلها :

كيف خلق الله العالم ! أخلقه عن العدم المطلق ، فكيف إذن ينتج شيء من لا شيء ؟ .

إن شيئاً من لا شيء لا يتصوره العقل ، بل إنه يحكم باستحالته .

أم خلقه من مادة كانت موجودة : فالمادة إذن قديمة ، قدم الله نفسه ، وهناك إذن قديمان : الله ، والمادة .

والله لانهاى الذات : ومقتضى هذا أن لا يخرج عن ذاته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، إنه الأول والآخِر ، والظاهر والباطن وهو كل شيء فى كل شيء . وبهذه النظرة يخاطب « شلى ، الله — سبحانه وتعالى — فىقول :

« إن أصغر ورقة من أوراق الأشجار التى يلعبها النسيم ليست إلا بضعة منك : (جزءاً من أجزائك) . كلا ، ولا أحقر دودة تسكن القبور ، وتسمن من لحوم الموتى أقل مشاركة لك فى حياتك السرمدية ، ويقول : إن هذه الروح التى توجد فى كل مكان ، بها يحبى كل موجود ، وهى هو ^(١) » .

(١) عن مبادئ الفلسفة ، ترجمة الدكتور أحمد أمين . .

أحق هذا ؟ أم أن ذات الله لا تتضمن أرضاً ولا سماءً ، ولا برآ
ولا بحرآ ، فهي ، إذن ، محدودة . لأنها ماعدا هذا السكون .
ثم إن الله — زيادة على ذلك — لا يمكن أن يوجد في كل مكان .
والله عالم .

أهو عالم بما كان على أنه كان ؟ وبما سيكون على أنه سيكون ؟ وبما
هو كائن على أنه كائن ؟

أم أنه عالم بما كان وبما هو كائن على أنه سيكون ؟

أم أنه عالم بما هو كائن وبما سيكون على أنه كان ؟

أيسيطر الزمن على علم الله ؟

أم أن الله فوق الزمن ؟ وأنه في حاضر لا يزول ؟

ولكن كيف يتأتى لنا حقاً أن نفهم أن الله في حاضر لا يزول ؟ مع
بدهة شعورنا بالماضي والحاضر والمستقبل .

والله عالم — كما قلنا — أهو عالم بذاته فحسب لأن علمه في شرفه
وسموه ، وكماله إنما يتعلق بما يناسبه من شرف وكمال وسمو ، وليس ذلك
إلا ذاته ، سبحانه وتعالى .

أم أن علم الله يتعلق بذاته ، وبالكليات ، ولا شأن له بالجزئيات .
لأنها تافهة لا قيمة لها ، والله منزّه عن أن يتعلق علمه بالتافه ؟

أم علم الله يتعلق بذاته ، وبالكماليات ، والجزئيات ، على الرغم مما في الجزئيات من نقص وتفاهة ، ومن مناظر تشمئز منها النفس ويعافها النظر .
والله قادر : أم هو قادر على كل شيء ؟ أقادر هو على الجمع بين الضدين مثلا ؟ أقادر على أن يجعل الثلاثة أكثر من العشرة ؟ والجزء أكبر من الكل ؟ أم أن هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرة الله .

وإذا كان هناك المستحيل بالنسبة إلى قدرته ، أفيتصف إذن بالكمال ؟ أم أن قدرته لا تتعلق بالمستحيل — كما يقول علماء الكلام — معتقدين أنهم بذلك قد حلوا الإشكال ؟

والله يريد :

أيريد الخير والشر ؟ فلم الحساب ، والعقاب أو المثوبة ، إذن ؟
وكيف يريد الشر ؟ مع أن طبيعته خير محض ؟ كيف يريد الشر مع أن إرادة الشر في بني البشر تعتبر نقصا .

وإذا لم يكن يريد الشر فهل يحدث الشر في هذا العالم رغما عنه ؟
أم أنه يحدث وهو عنه راض وإن لم يكن له مريدا ؟
أيرضى الله عن الشر أم يكرهه ؟
إن رضاه بالشر يتنافى مع كماله .

وإذا كان يكره الشر فكيف يوجد مع كراهيته له ؟

أيحب الله أن يعصى ؟ أم أنه يعصى رغماً عنه ؟

وصفات الله عامة ، مطلقة ، شاملة ، لانهائية : إنه رحمن رحمة مطلقة لانهائية ، ورحمته وسعت كل شيء ، وهو جبار ، ذو جبروت لانهائي ولطيف لاحتد للطفه :

فكيف تنسجم الرحمة المطلقة مع الجبروت المطلق ، مع أن البداهة تقضى بأن تنفى كل صفة منهما وجود الأخرى ؟ وإنه لمن الرائع حقاً : أن نرى ما يريد أن يراه الشاعر « إسماعيل صبرى » حينما خاطب الله قائلاً :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى

غضب اللطيف ورحمة الجبار

أيمكننا أن نرى حقاً غضب اللطيف الذى لانهائية للطفه ؟ ورحمة الجبار الذى لانهائية لجبروته ؟

والله عفو ، وعفوه مطلق شامل : إذ أن صفاته كلها مطلقة شاملة ، فهل إسماعيل صبرى محق إذن حينما يقول :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار

لم يبق عفو لك فى السماوات والأرض مشيراً خالياً للنار

وكيف يلتقي الله بالمعرفة إلى رسله ؟ بأى لغة يخاطبهم ؟ وكيف ينزل « الملك » على رسول الله ، فيراه ويسمعه في حين أن من كانوا معه لا يرونه ولا يسمعونه ؟ !

ومن أين يأتي « الملك » ؟ ، أمن السماء ؟ ولم ؟ مع أن الله في كل مكان !

إن مشكلة الوحي ، هي الأخرى ، من المشا كل التي استنفدت الكثير من المداد .

وماذا بعد هذه الحياة ؟ أحياء أخرى جسمانية ، نأكل فيها ، ونلهو ، ونلعب ، ونسرح ونمرح ، ونأخذ بذلك ثمن ما أديناه في حياتنا الدنيا العابرة ، من عبادة ومن طاعة ؟

أم أنها حياة روحانية لا صلة لها بالمادة البتة !

أم أنها مزيج من الحياة المادية والحياة الروحية ، تأتلف فيها المادة بالروح اثلافاً منسجماً متناغماً ؟

إن الداهيين الأولين لم يعد منهم أحد ليصف لنا الحالة في دقة دقيقة ، وفي تحديد محدد .

والقرآن يتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها ، فيفسر قوم وصفه على أنه حسي وروحاني ، ويفسر آخرون وصفه على أنه روحاني بحت .

وما هدف الله في إيجاد هذا العالم | أخلقه ليعبده : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، أم خلقه ليعرف كما قيل : « كنت كنزاً مخفياً فخلقت الخلق ، فبي عرفوني ؟ » .

إن كمال الله غنى عن أن يكون في حاجة إلى طاعة البشر ، وأسمى من أن يكون في حاجة إلى | أن يعرف : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » .

أخلق الله العالم اعتباراً ، أم خلقه لحكمة ؟

إن الله يتنزه عن أن يعمل العمل اعتباراً : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟ » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

والحكمة : إنما هي تعبير عن النرض أو الهدف أو الغاية ، وذلك | ينبئ عن الحاجة والله تعالى منزّه عن الحاجة .

نعود فنتساءل : لم أوجد الله العالم ؟

والشيخ محمد عبده يذكر بعض المشاكل التي أثارها العقل ، وجعلته

ينشط إلى البحث والنظر ، ويمدها من التشابه . قال رحمه الله في رسالة التوحيد :

« جاء القرآن يصف الله بصفات ، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم ، أو في الجنس : كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر . وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان : كالإستواء على العرش ، وكالوجه ، واليدين .

ثم أفاض في القضاء السابق ، وفي الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين .

ثم جاء بالوعد ، والوعيد ، على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك .

ويقول : وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الأكل والمؤاخذه عليه .

الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هذه المشاكل لم اخترعها اختراعاً ، ولم ابتدعها ابتداءً ، وإنما هي موجودة تصادفك في الفلسفة ، وتصادفك في علم الكلام ، وهي موجودة قديماً ، وموجودة حديثاً ، وهي بعض من كل :

كيف نصل حقيقة إلى الإجابة عليها ؟ ما هو السبيل الصحيح
للإطمئنان التام فيما يتعلق بشأنها ؟ هل مرد الأمر فيها إلى الحواس
والملاحظة ، والتجربة ، والعلم الحديث ، وما فيه من طبيعة وكياء ،
أو من فلك وطب ؟ اللهم ، لا .

العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة :

هل مرد ذلك إلى العقل إذن ؟ أيكشف العقل حقا عن ذلك ؟
أيصل العقل إلى كشف مساتير ما وراء الطبيعة ، واختراق حجب
ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى ؟

وعقلي من ؟ أعقلي أنا ؟ أنحتكم إلى عقلي وهو — فيما أرى —
ناضج ؟ وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بمصيبة ، أيرضى
بعقلي حكماً ؟ أم نحتكم إلى عقلك أنت أيها القارئ العزيز ؟ وهو فيما
تري ناضج ؟

وسيحلها دون أن يكون مسيراً بهوى ، أو بمصيبة .

ولكن إمام « الشيعة » — بحسب نظرم — معصوم ، وهم
يلجأون إليه فيما ادلهم من الأمور ، وسوف لا يرضون بغير حكمه
بديلاً ، وهم ملايين عدة ، أنستلهمهم الرشد في هذه المسائل ؟

إن الكاثوليك يرون أن البابا معصوم ، إنه على الأقل — فيما يرون — معصوم في الأمور الدينية ، ورأيه هو الفصيل في كل ما يتعلق بمسائل الدين ، أترضى آراؤه البوذيين ، أو المسلمين ، أو اليهود ؟ هل حل هذه المسائل من اختصاص أصحاب القبعات ، أم من اختصاص أصحاب العمام ؟

أحلها محصور في السوربون ؟ أم هو من اختصاص الأزهر ؟ إن هذه المسائل « شغلت الرؤوس على اختلاف أنواعها : من ذوات القلائس من قدماء المصريين ، إلى حملة العمام ، إلى لابسى القبعات السود ، إلى أرباب الضفائر ، إلى ألوف تصببت عرقاً من البحث »^(١) . إلى أى هؤلاء نلجأ في حلها ؟ لقد :

تحيّرت البدو ماذا تكون وضلت بوادى الظنون الحضر قد تقول : إنها من اختصاص الفلاسفة ، ويجب أن نلجأ إذن إلى أهل الاختصاص .

أنلجأ إلى عقل « أفلاطون » أم إلى عقل « أرسطو » . وهل نلجأ إلى عقل « بيكون » أم إلى عقل « ديكارت » .

(٢) من مبادئ الفلسفة . ترجمة الدكتور أحمد أمين ،

هل نلجأ إلى عقل « فيلسوف » حسي؟ أم إلى عقل « فيلسوف »
مثالى...؟

أم نلجأ إلى علماء الكلام؟ وأيهم؟: أللنظام، وقد كان حاد الذكاء
متوقد الذهن، صاحب منطق وجدل؟ .. إن « ابن تيمية » لا يرضى
لنا ذلك « وابن تيمية » رجل واسع الاطلاع، حاد الذكاء؛ متوقد الذهن
فهل تتبعه؟

أم تتبع شخصية من شخصيات العصر الحديث؟ فهل تتبع « الشيخ
محمد عبده »، أم « الشيخ عليش »؟ إن كلا منهما رجل فاضل، واسع
الاطلاع ولكنهما لا يكادان يلتقيان في شيء من آرائهما سواء في
ذلك الوسائل والأهداف؛ فإلى عقل أيهما نحتسك؟ ..

وبعد كل ذلك أليس رأى « كانت » هو الحكمة كل الحكمة
حينما يقول « إن عقل الإنسان مركب تركيباً يؤسف له فإنه مع شغفه
بالبحث في مسائل لا تدركها حواسنا، لم يستطع أن يكشف عن
معياتها ».

أما الإمام « الرازي » فإنه يقول في عجز العقل :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن كلامه الحكيم : « ولقد تأملت الطرق » الكلامية « ،
والمناهج » الفلسفية « ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً .
ويقول في وصيته التي أملاها على تلميذه « إبراهيم » بن « أبي بكر »
الأصفهاني : « ولقد اخترت الطرق » الكلامية « والمناهج » الفلسفية « ،
فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتتها في القرآن العظيم .
والإمام « الرازي » هذا ، هو الذي يقول فيه صاحب « وفيات
الأعيان » : فاق أهل زمانه في علم « الكلام » ، و « المعقولات » ،
وعلم « الأوائل » .

وليس « كانت » وليس الرازي إلا مثليين من أمثلة عديدة تتلاقى
في النهاية مع الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى فترجو من الله ما يرجو
حينما يلجأ إليه قائلاً :

يارب أهانى لفضلك . واكفى شطط العقول ، وفتنة الأفكار
ومع ذلك فهذه المشا كل تقض مضاجع كثيرين من ذوى الإحساس
الدينى المرهف ، وتؤرق أعينهم ، وتشغلهم — مصبحين ممسين —
ومثلهم فى ذلك مثل إبراهيم — عليه السلام — إذ قال :

« رب أرنى كيف تحي الموتى ؟

قال : أو لم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ... »

فما هي الوسيلة التي يروون عن طريقها غلهم ، وتشفي صدورهم ،
وتطمئن قلوبهم .

إن الدين لم يتعرض لهذه المشاكل ، والحس لا يصل إلى حلها ،
والعقل بموازينه ومقاييسه وقواعده : عاجز كل العجز كما رأينا سابقاً
عن الوصول إلى حلها وليس أدل على عجزه من التجربة الواضحة لكل
ذى عينين : إن الفلسفة منذ عهد سقراط تتخبط وتتعثر ، وتتضارب
وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل ألبتة إلى نتيجة حاسمة في أية مسألة
من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة .

وعلم الكلام مختلف مضطرب ، يحارب بعضه بعضاً ، بل ويكفر
رجاله بعضهم البعض .

إلام نتجه إذن ؟

إننا إذا رفضنا أيدينا من الحس ، فذلك لأننا لم نجد فيه غناء فيما
وراء الطبيعة ، وإذا أعرضنا عن العقل ، فليس ذلك احتقاراً له ، لأننا
نستعمله معترفين بفضلته في ميدانه الخاص به ، وإنما كان إعراضنا عنه في
ما وراء الطبيعة لأننا لا نريد أن نقحمه في غير دائرة اختصاصه .

نعود فنقول : إلام نتجه ؟ إن الأمر ليس بهين الاوتكشاف الطريق

الصواب ليس من السهولة بمكان .

البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة :

ولكننا إذا ما لجأنا إلى الله نستلهمه الخير ونستهديه طريق الرشاد .
وإذا ما توجهنا إلى القرآن نسترشده فيما ادلهم وخفي ، فماذا نجد ؟
نجد أن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
يرشد ، في مواطن عدة ، إلى نوع من المعرفة ، ليس طريقه الحس ،
وليس طريقه العقل ، ولا يستمد صراحة من الكتب المقدسة ، ذلك
النوع في أبسط صورته وأعمها وأشملها هو الرؤيا . فالقرآن يتحدثنا في
سورة يوسف عن عدة رؤى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت ، إني
رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ .
ويعتقد والده في رؤياه ، ويؤمن بها ، ويسدى إليه النصيحة : « يا بني ،
لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا » .

وحينما سجن العزيز يوسف « ودخل معه السجن فتيان .

قال أحدهما : إني أراني أعصر خمرآ .

وقال الآخر : إني أراني أحمل فوق رأسي خبزآ تأكل الطير منه » .

وذهبا إلى يوسف واستنباها الأمر ، وطلبا إليه مستعطفين . « نبشنا

بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » ونبأهما يوسف بتأويل الرؤى .

ولا تقتصر السورة على ذكر ذلك : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع
بقرات سمان ، يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر ، وآخر
يابسات ، يا أيها الملأ أفتوني في رؤيائي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ .

ويفسر « يوسف » تلك الرؤى ، فيرى أن نفس « الملك » تكشف
لها المستقبل ، ورأت الغيب المحجوب ، وعبرت عنه في صورة رمزية ،
وبعبر « يوسف » الرمز قال : تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم
فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون .

ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ، يأكلن ما قدمت لهن إلا
قليلاً مما تحصنون .

ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .
ولما اجتمع شمل « يوسف » بأبيه وإخوته وخر له إخوته سجداً .
ذكر « يوسف » أباه برؤيته السابقة وقال « يا أبت هذا تأويل
رؤيائي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً » .

والحديث الشريف يذكر أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من
النبوة .

ليست الرؤيا معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، وليست معرفة
مصدرها الكتب المقدسة .

ولكن « قد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحا ، وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيا عليه ، كالميت ، ويحول عنه إحساسه وسمعه وبصره . فيدرك الغيب — لأنكر وأقام البرهان على استحالة وقال : القوى الحساسة سبب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها فبأن لا يدركها مع ركودها ، أولى وأحق .

وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والملاحظة (١) .

والنبوة ، هي الأخرى ، ليست معرفة حسية ، وليست معرفة عقلية ، إنها ليست تجربة ، وليست منطقيا ، ليست استقراء ناقصا أو تاما ، وليست قياسا من الشكل الأول أو الرابع ، ولكنها وحى من الله . والقرآن غاص بهذا النمط من المعرفة الإلهية . إنه غاص بذكر الأنبياء والرسل الذين كلمهم الله وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو بإرسال الرسل إليهم أعني الملائكة .

والقرآن يمددنا أيضا في أسلوب قصصى طريف شائق عن العبد

(١) الغزالي في المنقذ من الضلال .

الصالح الذى أخذ سيدنا « موسى » فى البحث عنه جهده ، حتى وجده
وأبدى رغبته فى اصطحابه ومرافقته ، فقال له العبد الصالح :

إنك لن تستطيع معى صبراً .

وألح « موسى »

وقبل العبد الصالح — فى النهاية — على شروط اشتراطها ،

ولم يكن فيها رفيقاً « موسى » أو عطوفاً عليه ...

وسارا فأخذ العبد الصالح يأتى بأعمال لا تنسجم مع العاطفة ،

ولامع المنطق ، ولا مع العقل ، ولا مع القانون .

ولم يكن موسى ليحتمل الصبر على ما يرى دون تفسير له وتعليل .

وكان من أول شروط العبد الصالح عليه ألا يسأله عن شيء ، ولم

يجد موسى إلى الصبر سبيلاً ، ولم يجد العبد الصالح — وقد أدخل موسى

بالشرط — مناصباً من أن يعلمها صريحة واضحة « هذا فراق بينى وبينك »

والقصة كلها حرية بأن تذكر بأسلوب القرآن الطريف الشائق :

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ

أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ، فَاتَّخَذَ

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ :

اتَّبِعْ غَدَاءَنَا ، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا .

قال : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ ،
وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَعْرِ عَجَبًا .
قال : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهَا قَصَصًا ، فَوَجَدَا
عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا .
قال لَهُ مُوسَى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟
قال : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ
تُحِطْ بِهِ خُبْرًا !!!

قال : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا .
قال : فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ
ذِكْرًا .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا .
قال : أَخْرِقْهَا لِتَمُرَّقَ أَهْلُهَا !!! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا !!!
قال : أَلَمْ أَقُلْ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟
قال : لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ..
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ .
قال : أَقَتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ..
قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ ، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ؟

قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ
مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ
يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ .
قَالَ : لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا .

قَالَ : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُتَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ
تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ
أَعْيِبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا .
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا .

وَأَمَّا الْجِدَارُ ، فَكَانَ لِإِثْنَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ
كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ؛ ذَلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .^(١)

«هناك إذن طريق للمعرفة ، غير الحس وغير العقل .

ما السبيل إليه ؟

الطريق إلى المعرفة :

إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تركية النفس ، وتطهيرها والاتجاه إلى الله ، والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملائكة الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لاتتأني لذوى النفوس المادية ، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين ، وبالمادة عن الله .

طريق البصيرة طريق صواب :

ولكن الكثيرين يشكون في هذا الطريق — : طريق البصيرة الذي سبيله التزكى والتطهر — الموصل إلى المعرفة ، ويرون أنه أسطورة من الأساطير أو خرافة من الخرافات ، ويطلبون في إلحاح الاستدلال على أن هذا الطريق صحيح .

ويرون أن النبوة ؛ والرسالة ، والعبد الصالح ، كل هذه أمور خارقة للعادة أرادها الله فكان ما أراد ، ولكن ليس هناك من دليل على أن غيرهم من البشر يستطيعون أن يصلوا إلى معرفة إلهامية ، فما الدليل إذن على أن التصوف وسيلة من وسائل المعرفة ؟.

إلى هؤلاء نقول ما قاله الشيخ « عبد الواحد يحيى » لأمثالهم من
المعتريين ، قاله فى ساحة « السربون » لأساتذة الجامعة . وعلماء باريس ،
حينما دعوه ليحاضرهم فى « ما وراء الطبيعة » :

« سيتساءل قوم : أمن الممكن أن تتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟
إننا لا نتردد فى أن نجيبهم فى وضوح واضح : ليس ذلك ممكنا .
فحسب ، ولكن ذلك واقع موجود .

سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان :

ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا
الأمر ووجوده ؟ إنه لمن الغريب حقاً أن يطلب البرهان على إمكان
نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته
الشخصية ، سالكا إليها ما تتطلبه من سبل .

إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه — فى قليل أو
كثير — ما يثور حولها من جدل ونقاش .

وإنه لمن البين الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة »
نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » اهـ .

وهذا رأى نفسه هو ما يراه كثير من كبار المفكرين ، فى كل

عصر ؟

إنه رأى الفارابي، ورأى ابن سينا، ورأى الشيخ محمد عبده .
يقول الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد .

« أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال : « حال الاتصال » في النوع أو الجنس ، لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، وهم مشاهد صحيحة في عالم « المثال » لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم — ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحراف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه : ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يعجزه الذوق السليم ، وانتفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم ، المتلألئ في بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى مافيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة .

ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء

الأثر في تضاليل العقول ، وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم
الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله باطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة :
كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار^(١) .

التصوف أرسقراطية :

مما سبق نقبين : أن «الصوفية» يرون أن الحس وسيلة إلى المعرفة ،
له ميدانه .

وأن العقل وسيلة إلى المعرفة ، له ميدانه هو أيضا .

والبصيرة - التي سبيلها تزكية النفس - وسيلة إلى المعرفة ، لها ميدانها .
ولا صلة لتزكية النفس بالعاطفة . و « الصوفية » أقل الناس ، تأثرا
بالدواطف ، على خلاف ما هو مشهور عادة ، وإذا استعملوا أحيانا كلمة
القلب ، فلا يعنون بها ما يتصل من قرب أو من بعد بالعاطفة .

وتزكية النفس طريق صعب المرتقى ، وتركيز الانتباه في الله ، وهو
المتصود بـ « الذكر » ، وعزُّ السلك ، ولذلك كان طريقُ التصوف
طريقا خاصا لا يمكن سلوكه إلا لطائفة قليلة من الناس ، وإذا نظرنا
إلى الشروط التي يجب توافرها في السالك ، عامنا أن النفوس الجديرة
بسلوك هذا الطريق من الندرة بـ كان .

(١) رسالة الشيخ محمد عبده ، في التوحيد ط صبيح ص ٦٩ - ٧٠

ومن هنا يعترض خصوم « التصوف » قائلين :

« التصوف » إذن : « أرسقراطية »

وهذا اعتراض لا قيمة له : ف « التصوف » حقا « أرسقراطية ».

وطبيعة الأمور تأبى إلا أن يكون « أرسقراطية » ؛ إنه نظام
الصفوة المختارة ، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسامرهفا ، وذكاء
حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء « الملائكة » ،
وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور .

الديمقراطية أسطورة :

وإذا كانت « الديمقراطية » معناها التساوى فى كل شىء ، فهى
أسطورة من الاساطير : فالتساوى لا يوجد فى عالم الطبيعة بحال من
الأحوال : إنه لا يوجد بين الحيوانات فى الغاب ، ولا يوجد بين بنى
آدم فى المدن ، أو فى القرى .

إن الله لم يسو بين الناس فى ألوانهم ، ولا فى قوتهم الجسدية ، ولا فى
ذكائهم ، ولا فى دهائهم ومكرهم ، ولا فى أرزاقهم وحظوظهم . . . ونظام
« الطبقات » الذى يسود فى « الهند » ، والذى نتقدمه ونشنع عليه إنما
هو النظام الواقع فعلا فى جميع أقطار الأرض .

و « الروس » الذين بلغت « الديمقراطية » عندهم حد الفوضى ، فيهم الرئيس والمرءوس ، والسائد بذكائه وقوته ، والمسود بغبائه وضعفه .

و « الإنجليز » فيهم « الملك » و « الأمراء » و « النبلاء » ، وفيهم « عامة الشعب » .

و « أفلاطون » ؛ وهو « فيلسوف » نابيه ، قسم جمهوريته المثالية إلى « طبقات » ، وذلك بحسب استعداد كل طائفة من الطوائف : ففي « جمهوريته » : طائفة « الإنتاج » وهى الطائفة ذات « المعدة » الشرهة ، والشهوة الغلابة وطائفة « الجند » ذات العاطفة القوية .

وطائفة « القادة » معدن العقل والحكمة ، والبصيرة ، والإشراق

التصوف نهج الخاصة :

« التصوف » « أرستقراطية » وهو فى ذلك منسجم مع طبيعة الأمور : وعلى هذا لا يمكن أن يوجه إلى « التصوف » الاعتراض الرخيص ، الذى يقول : لو شمل « التصوف » كل الناس ، لفسد العالم : ذلك أن الناس جميعاً لا يمكن أن يصبحوا متصوفين ، فطبيعتهم تأبى ذلك ، وأئمة « التصوف » يعلمون حق العلم أنه لا يمكن أن يطلب من طائفة الإنتاج : طائفة المعدة والشهوة ، أن ينهجوا نهج السادة المختارين : معدن الصفاء والحكمة .

الناس معادن : - على حد تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم - :
ومعادنهم ثابتة لا تتغير ف « خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام
إذا فقهوا » إن فيهم المعدن الذهبي ، وفيهم المعدن الفضي ، وفيهم غير ذلك .

ويصور الشيخ محمد عبده ذلك خير تصوير فيقول في رسالة
التوحيد :

﴿ مما شهدت به البديهة ، أن درجات العقول متفاوتة ، يعلم
بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى ، إلا على وجه
من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط ، بل لا بد
معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه
ولاشبهة في أن من النظريات : عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند
من هو أرق منه ، ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره
العد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها
قريباً ، فيسمى إليه ، ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ويمجبون
نهايته ، ثم يألفون ما صار إليه ، كأنه من المعروف الذي لا ينزع ،
والظاهر الذي لا يجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم بادية
الأمر على من دعاهم إليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلة --

ظاهراً في كل أمة إلى اليوم^(١) .

والله سبحانه يذكر تمايز الناس فيما ينعم عليهم به ، ويبين أن
منهم الأنبياء ، ومنهم الصديقون ، ومنهم الشهداء النخ . قال تعالى :
﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم :
من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك
 رفيقا . ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله علما ﴾^(٢) .

لا يدعو ﴿ الصوفية ﴾ إلى أن يكون الناس جميعاً متصوفين .
و ﴿ جل جناب الحق عن أن يكون شرعة لكل وارد ، أو أن يطلع
 عليه إلا الواحد بعد الواحد ﴾ .

إن أهل الحق نادرون ، وهذه فكرة بديهية ، لا تحتاج إلى
الاستفاضة ، بيد أن « الصوفية » : إذا كانوا لا يدعون الناس جميعاً
إلى ﴿ التصوف ﴾ فإنهم يعملون جهدهم للوصول إلى مجتمع أسمى ، إنهم
يريدون أن يسود بين جنابات المجتمع جو من الروحانية والرحمة والمحبة
يحمل الناس إخوانا متعاونين ، متكاتفين .

(١) رسالة التوحيد ، للشيخ محمد عبده ، ط . صبيح ص ٦٧ .

(٢) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

تفاوت الناس في فهم الدين :

أما الاعتراض : بأنه إذا كان الإسلام الحق هو ﴿التصوف﴾
فالإسلام إذن دين طائفة محدودة ، لا يتيسر لكل إنسان : فهو اعتراض
لا ينسجم مع النزعة العامة عند ﴿الصوفية﴾ .
إن ﴿الصوفية﴾ لا يكفرون من عداهم ، إنهم يرون أن طائفة
الإنتاج ﴿ناجية﴾ .

ونحن جميعا نعلم أن التحقيق الإسلامى ليس بدرجة واحدة عند جميع
الناس : إن إيمان ﴿أبى بكر﴾ - رضوان الله عليه - ليس كإيمان غيره .
والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يمثل تفاوت الطبائع في الاسترشاد فيقول :
﴿ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا
فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبئت الكلا والعشب
الكثير .

وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا
منها وسقوا وزرعوا

وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان : لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً
فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ،
فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى
أرسلت به .

التصوف قوة :

والتصوف قوة : ذلك أن نفوس « الصوفية » هينة عندهم في سبيل الله ؛ يبذلونها عن رضى لإعلاء كلمة الله ، فهم الذين جشموا أنفسهم المشاق لنشر الإسلام بين ربوع أفريقيا وأقطارها التي لم تفتحها الجيوش الإسلامية .

وقد كان لهم الفضل الأكبر في نشر الإسلام في « أندونيسيا » وغيرها من الأقطار النائية .

وكانوا ينشرونه بالقُدوة الطيبة ، والخلق الكريم ، أكثر مما ينشرونه بالدعاية التي قد لا تجدى .

وكان الكثير منهم من المرابطين ، ومعروف أن المرابط هو ذلك الشخص الذى يعيش على الحدود الإسلامية : مكرساً حياته لصد غارة الأعداء .

والمعبادة والروحانية ، والزهد والورع ، كل ذلك ايس من مظاهر الضعف وإنما هو قوة .

يقول ابن سينا عن الصوفى « العارف الشجاع » وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت .

« التصوف » روحانية ، والروحانية قوة ، ولا يمارى في ذلك اثنان

التصوف ليس دخيلاً على الإسلام :

أما أن « التصوف » دخيل على الإسلام ، فيكفيينا في الرد على ذلك أن نذكر ثلاثة آراء ، أولها : للشيخ « عبد الواحد يحيى » ، وهو فيلسوف مسلم صوفي .

والثاني : للمستشرق الشهير الأستاذ « مسينيون » الذي يعتبر أعظم باحث في « التصوف » بين المستشرقين في العصر الحاضر .

والثالث لصاحب كتاب « التبصير في الدين » وهو معنى أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة ،

ومؤلفه هو : « الإمام الكامل ، الفقيه الأصولي المفسر » الاسفراييني .

ويرى الشيخ « عبد الواحد » أن « التصوف » يكون جزءاً جوهرياً من الدين الإسلامي ، إذ أن الدين يكون ناقصاً بدونه ، بل يكون ناقصاً من جهته السامية ، أعني جهة المركز الأساسي ، لذلك كانت فروضاً رخيصة ، تلك التي تذهب بـ « الصوفية » إلى أصل أجنبي ؛ « يوناني » أو « هندي » أو « فارسي » ؛ وهي معارضة بالمصطلحات « الصوفية » نفسها ، تلك المصطلحات التي ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً :

وإذا كان هناك من تشابه بين « الصوفية » وما يماثلها في البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعي ، لا يحتاج إلى فرض « الاستعارة » ؛

ذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور^(١).

ويقول الأستاذ « مسينيون » : وقد بين « نيكولسون » أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول،

والحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التي اختص بها « متصوفة » المسلمين « نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن، والحديث وتقرئهما وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث، وما حل بالأفراد من نوازل » .

ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » ، و « الروافض » ، و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما يمتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف » ، و « الإشارات » وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريبا من ألفه وجمع إشاراتهم ، وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى

(١) أنظر كتاب : الفيلسوف المسلم : مكتبة الأنجلو المصرية .

شئ من بدع « القدرية » ، و « الروافض » ، « والخوارج » .
وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ،
والتبرئ من النفس ؛ والتوحيد بالخالق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق ، والتقدير إلى
أنفسهم ، وذلك بمزلة عما عليه أهل الحقائق من التسليم ، والتوحيد^(١) .
تعليل الإقبال على دراسة التصوف في العصر الحاضر :

التصوف في العصر الحديث :

لقد كان أتباع « فولتير » في القرن الثامن عشر ، وأنصار « رينان »
في القرن التاسع عشر يسخرون ممن يتجه إلى دراسة « التصوف » وكان
تأثيرهما من القوة بحيث كان الناس - شوقيون وغريبيون - منصرفين
عن هذا الميدان ، مقبلين على العلم الحديث ، معتقدين أنه سيحل كل
مشكلة في الطبيعة وفيما وراءها ، ولكن الناس الآن معنيون بالدراسة
الصوفية ، فما الذي غير اتجاههم ؟ إننا ندع الأستاذ الكبير عباس محمود
العقاد ، يفسر لنا ذلك بأسلوبه الرصين .

« ما الذي غير اتجاه العقل الإنساني في القرن التاسع عشر ؟

الذي غيره هو العلم نفسه ، لأنه عرف حدوده وكفكف من

(١) التبصير في الدين . « لآبي المظفر الإسفراييني » المتوفى سنة ١٧٤١ هـ . ط

غروره ، فهو اليوم يدعى ويتواضع كثيراً في دعواه : يدعى أنه يصف ما يحس ولا يزيد .

لا نريد أن نقول : إن العلم أخفق في تعزية الإنسان وتعمير قلبه وضميره . . . كلا بل نريد أكثر من ذلك . . . نريد أنه أخفق في دعواه الوحيدة التي كان خليقاً أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم « المادى » وهو اليوم لا يعلم من المادّة إلا أنها حركة مجبولة ، في فضاء مجهول .

نعم كل مادة تتركب من ذرات ، وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعاً ، وكل شعاع هو حركة في « الأثير » ، . . . وما « الأثير » ؟ . . . شيء كلا شيء ، وليست له حدود ولا أوصاف ، ولا مقادير يعرفها العلماء . فالعلم المادى لا يعرف المادّة إلا في هذه الحدود ، ومن الأدب إذن أن يتواضع كثيراً ، فلا يحتكر المعرفة ، ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا ، وهذا هو الجديد على العلم الحديث ، إنه لا يعلم كل شيء لأنه مقيد بالحواس . وإذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء ، فهل يعامها الفكر ؟

كلا — أيضاً — لأن الفكر محدود ككل شيء في الإنسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير .

لابد لها من البصيرة ، أو من البديهة ، أو من الإلهام .
وذلك هو مجال التصوف ، أو مجال الدين . فهذه هي المعرفة
التي يتعاون عليها الحس ، والفكر ، والإلهام ^(١) .

* * *

أما بعد : فأرجو أن يكون الحق قد استبان فيما بين الصوفية
وغيرهم من نزاع ، وإني لعلى يقين من أن نظرة الإنصاف ستزيل ما في
نفوس خصومهم من حدة : فيتلاقى الجميع — في رحاب المودة التي
يدعو إليها الصوفية — إخوانا في الله متحابين .

وبالله التوفيق

(١) حديث للأستاذ العقاد في الإذاعة المصرية .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
•	مقدمة (التصوف والحياة)
٢٩	خاطرة حول : المنقذ من الضلال

القسم الأول

٣٥	الإمام الغزالي : حياته
٤٦	د د د كتبه
٧٨	النصوص التي تبين منهج الغزالي وتشرح طريقته في الكتاب

القسم الثاني

المنقذ من الضلال : لحجة الإسلام الغزالي

١٠١	توطئه
١١٢	مدخل السفسطة وحجد العلوم
١١٧	أصناف الطالبين
١١٨	علم الكلام متصوده وحاصله
١٢٦	الفلسفة
١٢٨	أصناف للفلاسفه وشمول وصمة الكفر كافتهم
١٣٨	أقسام علومهم
١٥٨	مذهب التعليم وغائلته

الصفحة	الموضوع
١٧٠	طرق الصوفية
١٨١	حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها
١٨٨	سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه

القسم الثالث

أبحاث في التصوف

الفصل الأول

٢١١	التصوف
٢١٣	حول كلمة تصوف
٢٢٣	تعريف التصوف
٢٢٦	حول مصادر التصوف الإسلامي
٢٤٥	نشأة التصوف
٢٥١	لمحة عامة عن التصوف
٢٦٣	التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي المزموم
٢٦٥	علوم التصوف
٢٦٦	من شروط التصوف
٢٧٠	مقامات الوصول

الفصل الثاني

٢٧٣	التصوف والشريعة
١٧٥	التصوف والدين الإسلامي

الصفحة	الموضوع
٢٨١	التصوف والتحال من الشريعة الإسلامى (١)
٢٩٠	(٢) » » » »
٢٩٦	(٣) » » » »
٣١٨	وحدة الوجود
٣٣٢	السجود

الفصل الثالث

٣٤٧	التصوف والمعرفة
٣٤٩	البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث
٣٦٥	فى وسيلة المعرفة
٣٧٤	التصوف والشك
٣٩١	الشك ومدارج السالكين
٣٩٧	الإمام الغزالى يرسم طريق المعرفة
٤١٦	مشكلة المعرفة والتصوفية

الفصل الرابع

٤٢٥	قضية التصوف
٤٢٧	انكار التصوف
٤٣٧	الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة
٤٣٨	العقل » » » »

المنحة

الموضوع

- | | |
|-----|--------------------------------|
| ٤٤٣ | البصيرة ومشاكل ما وراء الطبيعة |
| ٤٤٩ | الطريق إلى المعرفة |
| ٤٥٢ | التصوف أرسنقراطية |
| ٤٥٣ | الديمقراطية أسطورة |
| ٤٥٤ | التصوف نهج الخاصة |
| ٤٥٦ | تفاوت الناس في فهم الدين |
| ٤٥٨ | التصوف قوة |
| ٤٥٩ | التصوف ليس دخيلا على الإسلام |
| ٤٦١ | التصوف في العصر الحديث |
| ٤٦٤ | الفهرس |